

الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب الثالث



تأليف
علي باپير

دار الحكمة
لندن

ameer.maktab@yahoo.com



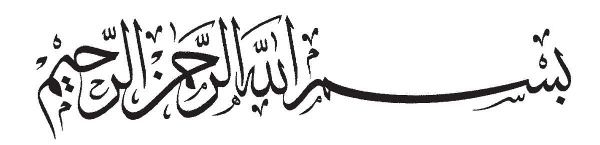




/MediaAmeerOffice

www.alibapir.net

الإيمان بالله ﷻ الخالق الربّ الإله
ذي الأسماء الحُسْنى والصفات العُلى



موسوعة: الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب الثالث

الإيمان بالله ﷻ الخالق الربِّ الإِله، ذي الأسماء الحُسْنى والصفات العُلى

تأليف
علي باپير

الطبعة الثانية

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

ameer.maktab@yahoo.com







/MediaAmeerOffice

www.alibapir.net

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة].

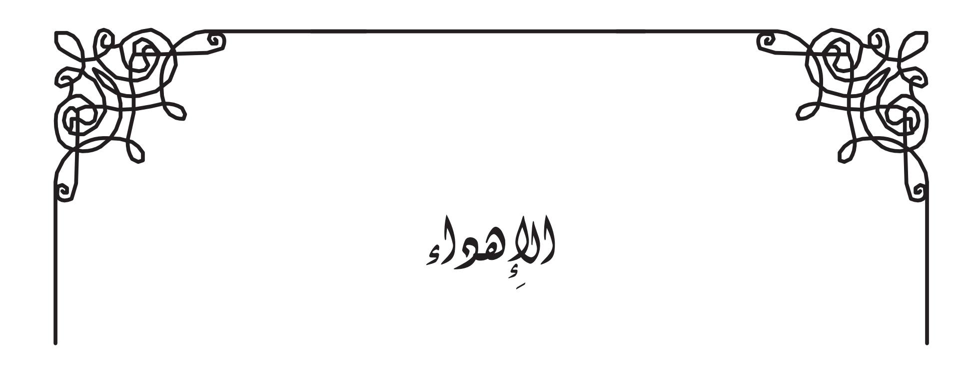
ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net



الإهداء

إلى الذين يَبْتَغون فقه الإسلام بعمقٍ وشمولٍ، كما هو عليه في كتاب الله العظيم وسنة رسوله الكريم ﷺ لِيُجسّدوه في حياتهم الشخصية والأُسرية والعامة، ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالى.

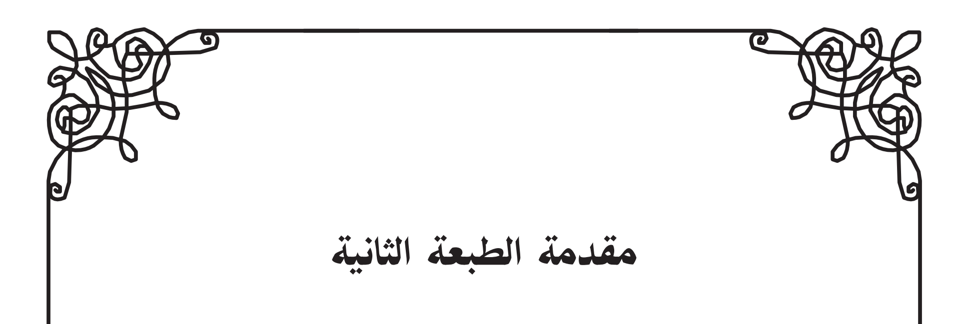
❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

ameer.maktab@yahoo.com









مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله العلي القدير، والصلاة والسلام على النبيِّ البشير النذير، محمد وآله الكرام «صحباً وأزواجاً وقرابةً» الذين هم جديرون بكل تكريم وتقدير.

وبعد، فقد ارتأينا إعادة طبع هذه الموسوعة: (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله)، بعد طبعتها الأولى، (**في صورة كتاب في ثمانية مجلدات** «**موزَّع على أربعة أبواب وسبعة عشر فصلاً**») في سلسلة كتب مجموعها: اثنا عشر كتاباً، كل كتاب يحتوي على موضوع رئيسي.

والنتيجة:

أصبح توزيع مواضيع الكتاب على الكتب الإثني عشر، في هذه الموسوعة، على الشكل الثاني:

الباب الأول بفصوله الأربعة، والمعنون: **(الإسلام: معرفة صحيحة بالخالق والخلق)** بقي كما هو، وصار:

الكتاب الأول، في هذه الموسوعة.

الباب الثاني بفصوله الستة، والمعنون: **(الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر)** تحول في هذه الموسوعة الى سبعة كتب، كل كتاب مُخصَّصٌ لبحث موضوع أساس من مواضيع الإيمان، وذلك بعد أن جعلنا الفصل الخامس: **(الإيمان برسل الله وأنبيائه)** فصلين، ففي الأول

منهما: بحثنا موضوع الإيمان بالرسل والأنبياء «عليهم السلام» عموماً، وفي الثاني منهما، تحدَّثنا عن خاتم النبيين «ﷺ» خصوصاً، فصار الباب الثاني في هذه الموسوعة بهذه الصورة:

الكتاب الثاني: مفهوم الإيمان والكفر...

الكتاب الثالث: الإيمان بالله سبحانه وتعالى...

الكتاب الرابع: الإيمان بالملائكة وبالجن.

الكتاب الخامس: الإيمان بكتب الله سبحانه وتعالى.

الكتاب السادس: الإيمان برسل الله وأنبيائه «عليهم الصلاة والسلام».

الكتاب السابع: خاتم النبيين محمد «ﷺ».

الكتاب الثامن: الإيمان باليوم الآخر.

الباب الثالث بفصوله الثلاثة، والمعنون: **(الإسلام: إلتزام جادّ بالشريعة على الصعيدين الفردي والجماعي)** تحول في هذه الموسوعة الى ثلاثة كتب، بالصورة التالية:

الكتاب التاسع: الإهتداء بهدى الله تعالى..

الكتاب العاشر: إلتزامُ المجتمع بدين الله تعالى...

الكتاب الحادي عشر: تطبيق المجتمع للشريعة...

الباب الرابع بفصوله الأربعة، والمعنون: **(الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم)** بقي على حالِهِ، وصار الكتاب الثاني عشر والأخير، في هذه الموسوعة بالشكل التالي:

الكتاب الثاني عشر: الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعامل صحيح معهم.

وقد راعينا في ترتيب هذه الكتب الإثني عشر «في ثلاثة وستين (٦٣) فصلاً» التسلسل المنطقي المتدرج: إذ الإنسان يحتاج قبل كل شيءٍ، المعرفة

بهذا الوجود، ومحلِّهِ هو في إعرابهِ، فجاء الكتاب الأول: بعنوان: (الإسلام: معرفةٌ صحيحة بالخالق والخلق) تلبيةً لهذا المطلبِ الفطريِّ الأول.

ثم تُنْتِجُ المعرفةُ الصحيحة بالوجود ـ طالما التزم صاحِبُها بمقضياتها المنطقية ـ الإيمان بالله الخالق الرب المالك، وببقية أركان الإيمان الخمسة، فجاءت الكتب: الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن، تحت عنوان: (الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) تحقيقاً لهذا المقصد العظيم، وبياناً لتلك الحقائق الكبرى، التي وضعَ فيها كتاب الله الحكيم النقاط على الحروف، ولم يُحْوِجْنا في إدراكها الى غيره.

ثم ان الإيمان الصحيح بالله تبارك وتعالى، وببقيَّةِ أركان الإيمان الأساسية، يدفعنا الى الإلتزام بدين الله القيِّم، وشريعته الحكيمة، فجاءت الكتب: التاسع والعاشر والحادي عشر، تحت العنوان العام: (الإسلام: إلتزامٌ جادٌّ بالشريعة على صعيدي: الفرد والمجتمع) لتوضيح كيفية التزام الفرد والمجتمع والدولة بالشريعة السّمحاء، بهذه العناوين الثلاثة، للكتب الثلاثة:

١ ـ الإهتداء بهدى الله، أو الإلتزام الفردي بشريعة الله تعالى.

٢ ـ إظهار الدين الحق، أو التزام المجتمع بدين الله تعالى: فكراً وشعائرُ وآداباً.

٣ ـ تطبيق المجتمع للشريعة في جميع جوانب الحياة.

ثم أخيراً: بعد المعرفة الصحيحة، والإيمان الراسخ، والإلتزام الجاد بالشريعة، بإمكان المسلمين: أفراداً ومجتمعاً ودولةً، أن يتعاملوا مع الناس: المسلمين وغير المسلمين، على أساس النظرة السَّديدة إليهم، بصورة شرعية صحيحة، بعيدة عن الإفراط والتفريط، وبيان هذا الموضوع تكفّل به الكتاب الأخير، الثاني عشر، والذي جاء بعنوان: (الإسلام نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم).

وفي المُحَصِّلة: بيّنا من خلال هذه الموسوعة ـ بِكُتُبِها الإثني عشر ـ تجلية كتاب الله الحكيم المبارك للإسلام:

١ ـ معرفةً صحيحة بالوجود (الخالق والخلق).

٢ ـ وإيماناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٣ ـ والتزاماً بالشريعة على المستويات الثلاثة: فرداً ومجتمعاً ودولةً.

٤ ـ وتعاملاً صحيحاً مع الناس، على أساس نظرة سديدة تجاههم.

والهدف الأساس من هذا العمل «طبع هذه الموسوعة بهذه الصورة» هو تسهيل وصولها الى القراء، وتيسير حصولهم على أي موضوع يرغبون فيه منها.

وجديرٌ بالذكر أننا أبقينا «في هذه الطبعة» على أكثرية الإحالات الى الأبواب والفصول والمباحث والمطالب، على حالها الذي كانت عليها في الطبعة الأولى.

وكذلك أبقينا على كل من هذه العناوين الثلاثة:

١ ـ (مُبَشِّرة حول هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ الى: (مُبَشِّرةٌ حول هذه الموسوعة).

٢ ـ (قصة تأليف هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ الى: **(قصّة تأليف هذه الموسوعة)** والتي شرحنا فيها: كيفية الشروع بهذا العمل في السجن الأمريكي، وكيفية انبثاق خطة الكتاب في خطوطها العريضة، من آيات سورة الفاتحة السبع المباركات، وسبب تقسيمه الى أربعة أبواب في سبعة عشر فصلاً.

٣ ـ (المقدمة) والتي غيَّرناها الى: (مقدمة هذه الموسوعة).

وسَنُدْرِجُها في بداية الكتاب الأول من هذه الموسوعة، لارتباطها بكل الكتب الأخرى المضمَّنة لها، ونكتفي بهذا عن تكرار إدراجها في بداية الكتب الأخرى.

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يَسُدَّ بهذا الجهد، ثغراتٍ كثيرة، في فهم كثير من المسلمين لدينهم القيِّم، وأرجو أن تَحْظى هذه الموسوعة، بأن تكون لبنة في بناء صرح المشروع الإسلامي المنشود.

وآمل ألّا يَبْخَل عليَّ القرّاء الكرام، بملاحظاتهم وتنبيهاتهم، وأشكرهم جزيل الشكر مسبقاً.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

١/ رجب ١٤٣٦ هـ
٢٠ نيسان ٢٠١٥م
أربيل /كوردستان ــ العراق



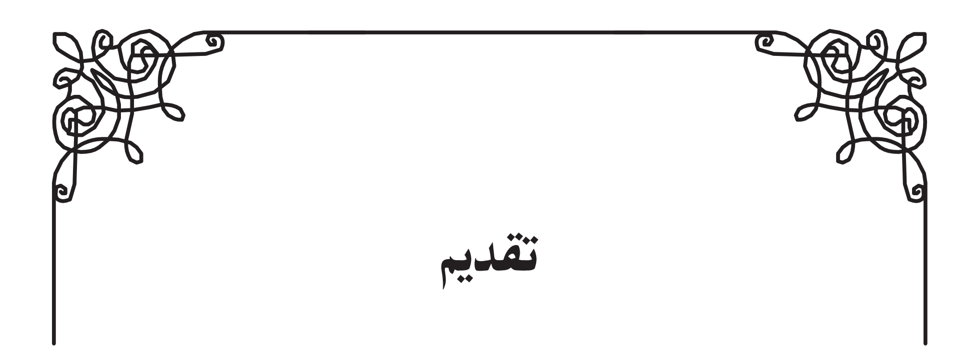
ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net



تقديم

إنّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْـتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شرُورِ أَنْفُسِـنَا، وَمِنْ سَيئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْده اللهُ فَلاَ مُضِـلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَن لاَ إِلَهَ إلاّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أَمّا بَعْدُ: فإِنَّ أَصْدَقَ الحَديث كَلامُ الله وَخَيْرَ الْهَدِي هدْيُ مُحَمَّد وَشرَّ الأُمُورِ مُحْدَثاتُها، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَة، وَكُـلَّ بِدْعَةٍ ضَـلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَـلاَلَةِ فِي النَّار.

موضوع هذا الكتاب الثالث هو الإيمان بالله تبارك وتعالى: خالقاً ورباً ومالكاً وإلهاً وحاكماً ووليّاً.

والإيمان بالله العليّ العظيم هو أساس الإيمان والإسلام، وهو قطب

الرّحى ومركز الثقل من الدين كله: عقيدة وشريعة، وعبادات ومعاملات.

ومعلومٌ أن لكل من أركان الإيمان الخمسة، وشعائر الإسلام الخمس، والإحسان الذي هو الإتقان في تجسيد الإيمان والإسلام، بل لكل جليل ودقيق في دين الإسلام، ارتباطاً وثيقاً بالله «سبحانه وتعالى» وبما أننا جلَّينا مفهوم (الإيمان) بصورة عامة في الكتاب الثاني من هذه الموسوعة، وسنوضِّح معنى الإيمان بالله تعالى وأَهَمِّيَّتِهِ الكبرى في هذا الكتاب، فلا نُطيل النَّفسَ هنا في الحديث عن الإيمان بالله تعالى، وأختم هذا التقديم بقولي:

بما أن الإيمان بالله تبارك وتعالى هو الروح السارية في جسم الإسلام والتديُّن كله، من أفضل شعبة فيه الى أدناها، فعلى كل من يريد التزاماً أحسن بالإسلام، وتديناً أفضل، وعبادة أكمل، أن يبذل جهده في ترسيخ إيمانه بالله تعالى وتكميله، وليكن معلوماً لديه: أن الإيمان ليس شيئاً واحداً، بل هوا أجزاء وشعب، كما قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضعٌ وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها: قولُ لا إله الاّ الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[1].

وعليه: فالإيمان ليس درجة واحدة، بل هو درجات، ومن البديهي أن الصعود في الدرجات، لابدّ له من بذل الجهد وتحمُّل التعب، وقد قيل قديماً:

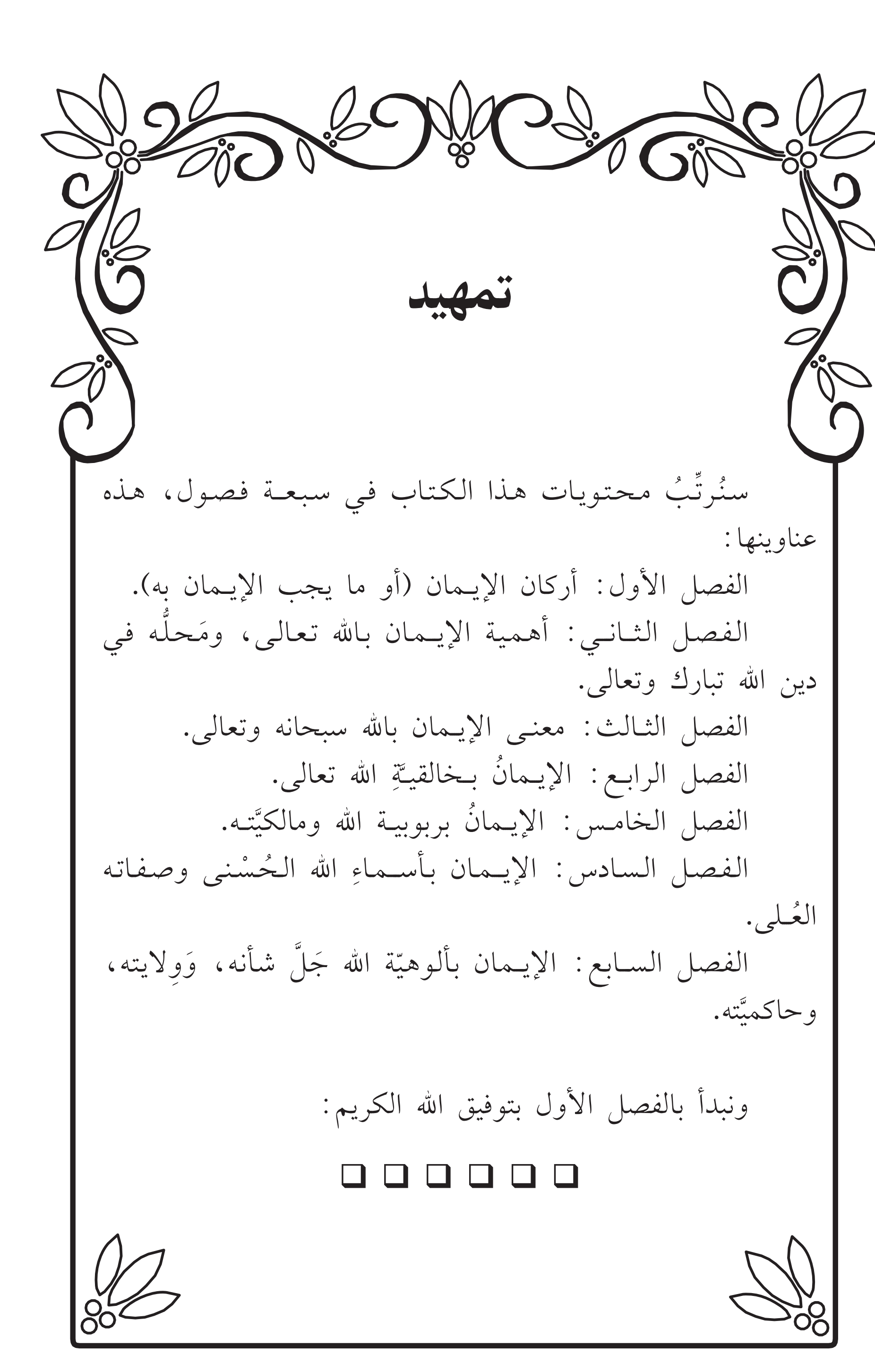
بِقَدَرِ الكَدِّ تُكْتَسَبُ المعالي   من طلب العُلى سَهَر اللَّيالي

والحمد أولاً وآخراً، وباطناً وظاهراً.

٣/رجب/١٤٣٦ هـ
٢٢/نيسان/٢٠١٥م



(١) رواه البخاري: ٩، ومسلم: ١٥٢.



تمهيد

سنُرتِّبُ محتويات هذا الكتاب في سبعة فصول، هذه عناوينها:

الفصل الأول: أركان الإيمان (أو ما يجب الإيمان به).

الفصل الثاني: أهمية الإيمان بالله تعالى، ومَحلُّه في دين الله تبارك وتعالى.

الفصل الثالث: معنى الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

الفصل الرابع: الإيمانُ بخالقيّةِ الله تعالى.

الفصل الخامس: الإيمانُ بربوبية الله ومالكيَّته.

الفصل السادس: الإيمان بأسماءِ الله الحُسْنى وصفاته العُلى.

الفصل السابع: الإيمان بألوهيّة الله جَلَّ شأنه، وَوِلايته، وحاكميَّته.

ونبدأ بالفصل الأول بتوفيق الله الكريم:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

ameer.maktab@yahoo.com







/MediaAmeerOffice

www.alibapir.net



الفصل الأول

أركـان الإيـمان (أو ما يجب الإيـمان به)



ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net

ونقصد بأركان الإيـمان: الأشياءَ التي يجب على المؤمن أن يؤمن بها لِيُعَدَّ مُؤْمِناً، أي: الأشـياءَ التي تكوِّن محتويـات الإيـمان والعقيدة في دين الله الحق.

وقد ذكر الله تعالى ما اصطُلِحَ على تسميتها بأركان الإيـمان، في ثلاثة مواضع في كتابه الحكيم، وهي:

* ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

* ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة].

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء].

ونأخذ من هذه الآيات الثلاث للتعرُّف على أركان الإيـمان، الحقائق الثلاث الآتية:

الأولـى: جَعَلَ سبحانه وتعالى موضوعَ الإيـمان وما يجب الإيـمان به، في كلّ من: الآية (١٧٧) من (البقرة) و(١٣٦) من (النساء)، خَمْسةَ أشياء: (الله تبارك وتعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر)، وإنما لم يذكر في الآية (٢٨٥) من (البقرة) الإيمان باليوم الآخر، لعدم اقتضاء السياق له.

الثانية: جَعَل الله تعالى الإيـمانَ بأركان الإيـمان الخمسة، في الآية (١٧٧) من (البقرة) أساساً للبِـرِّ، والمقصودُ بـ(البِـرّ) في الآية هو (التديُّن) و(التعبّد لله) بـمعناهما الواسع الشامل للإسلام كلِّه.

الثالثة: كما واعتبـر الكفر (عدم الإيـمان) بتلك الأركان الخمسة، في الآية (١٣٦) من (النساء) سبباً للضّلال البعيد الذي ليس بعده ضلال.

فالإيـمان الذي يشكِّل أساسَ التديُّن والتعبُّد لله تعالى، ويُبْعِدُ عن الإنسان التلبُّس بالكفر والضّلال، هو أن يؤمن الإنسانُ بـ:

١ ـ ألله تبـارك وتعـالى.

٢ ـ الملائكـة.

٣ ـ كتب الله تعـالى.

٤ ـ رسـل الله.

٥ ـ اليـوم الآخـر.

وقد أضاف رسولُ الله ﷺ الإيـمانَ بالقدر إلى هذه الخمسة، في الحديث الذي اشتهر بـ(حديث جبريل) والذي رواه مسلم في صحيحهِ عن عمر بن الخطاب ﵁[1] إذ قال في جواب سؤال جبريل: (فأَخبرنـي عن

(١) وهذا هو نص الحديث كما جاء في (صحيح مسلم): عن عمر بن الخطاب ﵁ قال: [بَينَما نحن ذاتَ يوم عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجلٌ، شَديدُ بَياضِ الثِّياب، شَديدُ سَوادِ الشَّعر، لا يُرى عليه أَثَرُ السَّفر ولا يَعْرِفُهُ مِنا أَحَدٌ، حتى جَلَسَ إلى النبيِّ ﷺ فأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَع كَفَّيْه على فَخِذَيْهِ وقال: يا محمدُ! أَخْبِرْني عن الإسلام؟ فقال ﷺ: الإسلام أن تَشْهَدَ أن لا إلٰه إلّا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله، =

الإيـمان): (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره)، وإنّما أضاف رسولُ الله الإيـمان بالقَدَر، إلى أركان الإيـمان الخمسة المذكورة في كتاب الله، تَنْبيهاً على أهميَّةِ (القَدَر) والإيـمان بـه، ولأنَّ (القَدَرَ) له جوانب عميقة وغامضة، قَلَّما يَسْتَوعِبُها العقلُ على وجهها الصحيح، لذا أَكَّد عليه نبيُّ الله الحكيم، وإلّا فالإيـمان بالقدر، داخِلٌ في الإيـمان بالله تبارك وتعالى، وذلك لأن الإيـمان بالقدر يعني:

[الإيـمان بعلم الله المحيط، والإيـمان بإرادته المطلقة، ومشيئتِهِ الشاملة، وبقدرته اللامحدودة، وبخلقه كلَّ شيء بِقَدَر].

ومعلوم أنَّ هذه الصفات كلّها من صفات الله تبارك وتعالى، وَيلْزَمُ مَن آمن بالله، الإيـمانُ بـها كُلِّها.

نـحن جرياً مع قاعدة كتاب الله الحكيم في ذكره لموضوع الإيـمان، قد أفْرَدْنا فصلاً مستقلاً لكل من الأركان الخمسة، ولكن الإيـمان بالقدر والمسائل المتعلّقة به، لم نُفْرِدْ له فصلاً خاصاً به، وسنشير إلى أصوله باختصار في نهاية هذا الباب الثاني ـ أي الكتاب الثامن من هذه الموسوعة ـ، كما أننا سنتعرَّض له وللمسائل المتعلقة به، في مواضع أخرى بإِذن الله تعالى.

= وتُقيمَ الصَّلاة، وتُؤْتيَ الزكاة، وتصومَ رمضان، وتَحُجَّ البيْتَ ان استَطَعْتَ إليه سبيلاً، قال صَدَقْتَ، فَعَجِبْنا لَهُ يَسْأَلُهُ ويُصَدِّقُهُ، قال: فأَخبِرْني عن الإيمان! قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبهِ ورُسُلِهِ واليوم الآخر وتؤمِنَ بالقدر خيره وَشَرِّهِ، قال: صَدقت، قال: فَأَخبِرْني عن الإحسان! قال: أنْ تَعْبُدَ الله كأنك تراه، فأن لم تكنْ تَراهُ فأنه يراك، قال: فأخبرني عن الساعة! قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائِلِ، قال: فأَخبِرْني عن أَماراتِها، قال: أنْ تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَها، وأنْ تَرى الحُفاة العُراة العالَة، رِعاءَ الشاءِ يتطاولون في البنيان، قال: ثم انْطَلَق، فَلَبِثْتُ مَلِيّاً ثم قال لي: يا عمر! أتدري مَن السائِلُ؟ قلت: ألله ورسولُهُ أَعْلمُ: قال: فإنَّه جبريْلٌ أتاكم يُعَلِّمكم دينكم.] صحيح مسلم، كتاب الإيمان:١، ورواه البخاري عن أبي هريرة بلفظ قريب منه: برقم: (٥٠).

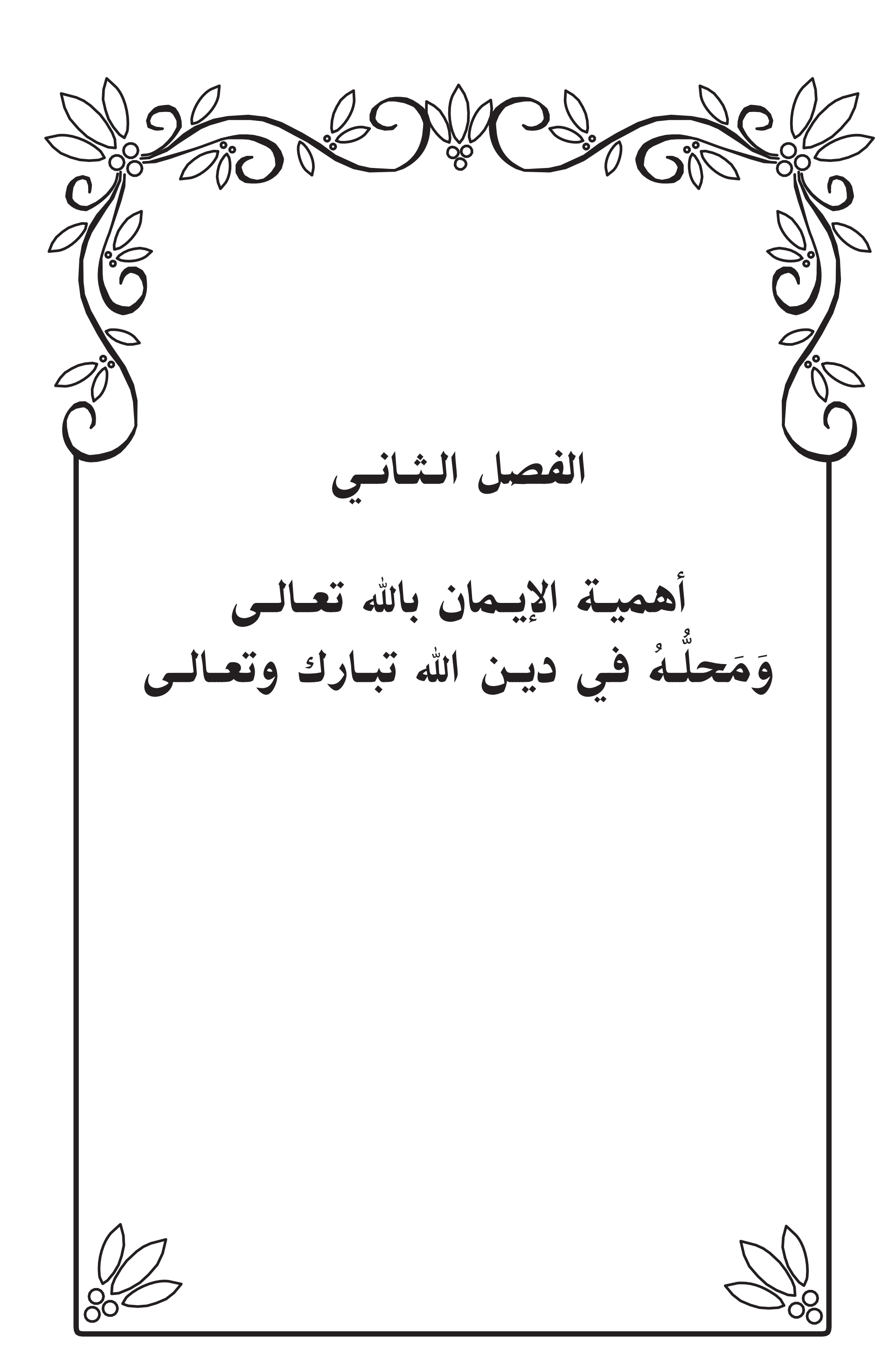
ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net



الفصل الثـانـي

أهميـة الإيـمان بالله تعـالـى
وَمَحلُّهُ في ديـن الله تبـارك وتعـالـى

ameer.maktab@yahoo.com







/MediaAmeerOffice

www.alibapir.net

الإيـمانُ بالله سبحانه وتعالى، ليس هو الركنَ الأولَ والأساسيَّ في الإيـمان والعقيدة الإسلامية، فَحَسْبُ، بل هو روحُ الإيـمانِ، وجوهَرُ العقيدة، وخميرَةُ الدين، وهو الأصلُ الذي تَنْبَني عليه كلُّ أصول الإيـمان والإسلام، بل ينبني عليه الدِّين كلُّه، بأصوله وفروعه، وكُلُّ ما يشتمل عليه دينُ الله الحق (الإسلام) من محتويات، يَدُورُ في فلك الإيـمان بالله، ويَخدِمُ هذا الأصلَ العظيم:

١ ـ أما بالنسبة لأَركان الإيـمان: فَلأَنَّ الملائِكَةَ ـ والإيـمان بالملائكة ـ أي الكتاب الرابع ـ هو الركن الثـانـي من أركان الإيـمان ـ ليسوا سوى جنُودِ الله المطيعين، سواءٌ منهم السَّفَرَةُ الذين وصفهم الله تعالى بـ(كرام بَـرَرة)، أي: المبلِّغين لوحي الله الحكيم، أو غيرُهم الموكولين بـمهمّاتٍ وأمور شتَّى، سنشير إليها في الفصل الثالث من هذا الباب الثاني المخصص للحديث عن الملائكة.

وكذلك ليست كُتُبُ الله المُنَـزَّلَةُ، سوى وحي الله المتضمِّن لشرائعه وتعليماته وتوجيهاته للبشر.

والرسلُ والأنبياءُ الكرام عليهم الصلاة والسلام، مُبَلِّغوا وحيه ورسالاته وحاملوا هدايته للناس، كي يتعلَّموا طريقة عبادة الله تبارك وتعالى على الوجه الـمَرْضيِّ لَـهُ.

واليوم الآخر هو يوم لقاءِ الله، ونَيْلِ كلٍّ فردٍ من الجنِّ والإنس جزاءه حسب موقفه من الحكمة التي خلقهم الله من أجلها، والوظيفة التي كلَّفهم بها، وهي: (العبادة لله تبارك وتعالى).

٢ ـ وأما بالنسبة للدين كُلِّه عامةً، أصولاً وفروعاً: فَلأَنَّ الدِّين ليس سوى منهج الله القويم وطريقِهِ المستقيم، الذي أنزله الله تعالى للجن والإنس، كي يعبدوا الله تعالى وِفْقَهُ من خلال تمضية حياتهم الأرضية في كافة جوانبها، حسب هداه وتوجيهاته وأحكامه، إذ لا يمكن القيامُ بعبادة الله تبارك وتعالى على الوجه الصحيح المَرْضيِّ له، إلّا بالإلتزام بدينه القيِّم، والسَّيْرِ على صراطه المستقيم، وهذا هو السرُّ في مَجيءِ: [﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾] **بعد** [﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾].

هذا، وقد تكرَّر ذكرُ الإيمان بالله تعالى في القرآن الحكيم كثيراً جداً، وذلك بمختلف الصيغ، مثل: (آمَنوا بالله) (آمن بالله) (يؤمن بالله)، (يؤمنون بالله)، (تؤمنون بالله) (آمِنوا بالله).. ثم إن كلمة الإيمان المطلقة أيضاً تَدُلَّ أول ما تدل عليه، على الإيمان بالله، وذلك مثل: (إن الذين آمنوا)، (وهو مؤمن)، (المؤمنون)، (المؤمنات)...

وسَتَتَجلَّى لنا أهمية الإيمان بالله تعالى ومكانته الرفيعة في دين الله تعالى، في الفصول التي ستأتي تِباعاً بإذن الله تعالى.





الفصل الثالث

معنى الإيمان بالله تبارك وتعالى

الإيـمانُ بالله تبارك وتعالى بخلاف تصوُّر أكثرِ الناس ـ حتى بعض المسلمين أو كثيرٍ منهم ـ ليس هو العِلْمَ بوجوده والإعتقاد بخالقيته وربوبيَّتِـهِ، فَحَسْبُ، بل لا بدَّ من أن تَنْضَمَّ إلى ذلك العِلْمِ والإعتقادِ: أمورٌ أخرى ـ سَنُبَيِّنها بعد قليل ـ كي يَحْصُلَ الإيـمانُ بالله تعالى، وذلك لأن العلم والإعتقاد بوجود الله تعالى وخالقيته وربوبيَّته ومالكيته، قاسِمٌ مُشْتَرَكٌ بين الناس جميعاً، كفّاراً كانوا أم مسلمين، بل وحتى إبليسَ الملعون وفرعون وأبـا جهل، يتساوون في هذا مع أهل الإيـمان ـ كما أشرنا إليه سابقاً ـ.

وقد بيّنا في الفصل الأول من الكتاب الأول، أن قضية الإعتقاد بوجود الله وخالقيته وربوبيته، شيءٌ مركوز في فِطَر الناس، ويعرفونـها ببدائِهِ[1] عقولهم، حيث لم يخلق الله تعالى شيئاً من مخلوقاته ـ عاقلاً كان أو غير عاقل ـ إلّا وهو يعرف خالِقَه وفاطِرَه، بل وأكثر من هذا: ما من شيء من مخلوقات الله ـ حتى الخلايا والذرات التي يتركب منها جسمُ الإنسان ـ إلّا وهو يُسَبِّحُ الله ويَحْمَدُهُ ويُثِني عليه، كما قال جلّ شأنه بهذا الصَّدد: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ

(١) بَدَهَهُ يَبْدَهُ بَدْهاً وبَداهةً: فَجَأَهُ، البَداهَةُ: أول كلِّ شيء، وفي الفلسفة: وضوح الأفكار والقضايا بحيث تفرضُ نفسَها على الذهن. المعجم الوسيط، ص ٤٤.

وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء].

ولكن مع هذا فقد أوتـي الإنسانُ، إرادةً حُرَّةً، يستطيع أن يكتم بها تلك الحقيقة البديهية العظيمة التي تشهد بها كلُّ الكائنات طُرّاً، وذلك ابتلاءً من الله تعالى له، كما قال جلّ وعَزَّ بـهذا الصدد: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان].

وإنـما اختيـر لفظ الكفر الذي هو بمعنى السَّتْرِ والإخفاء، للدلالة على ضدِّ الإيـمان، لأنه ليس الكفر في الحقيقـة، سوى التَسَتُّر والتغطيـة على حقيقـة التوحيد الكبـرى الناصعة.

فمـا معنـى الإيـمان بالله، إذاً؟!

والجـواب هو:

أن الإيـمان بالله ـ وذلك بالمفهوم الذي بيّنـاه في الفصل الأول من هذا الباب الثاني ـ أي الكتاب الثاني ـ يحصُلُ نتيجة اجتماع أربعـة أمور:

١ ـ معرفـةُ الفطرة وبداهة العقل بالله تعالـى، خالقاً وربّاً ومالكاً وإلـهاً.

٢ ـ استخدامُ العقـل والسمع والبصر، للتأمل في آيات الله في الأنفس والآفاق، لتعميق معرفة العقل وإدراكه لخالقية الله وربوبيته ومالكيته وألوهيته وترسيخها.

٣ ـ علـم الـوحي الـذي يبيِّـن كـيفـيـة الإيـمـان بـخـالـقـيـة الله وربـوبـيـتـه ومالكيتـه وألوهيتـه.

٤ ـ اتّخـاذُ الله تعـالى وحده رَبّـاً وإلـهاً ووليّـاً وحاكِمـاً.

وهذا هو شرح وتوضيح مختصر لهذه الأركان الأربعة التي يتكوَّن منها الإيـمان بالله:

١) المقصود بـمعرفة الإنسان الفطرية بالله، وإدراكِهِ العقليِّ البديهيِّ له،

هو أن الله تعالى خَلَقَ الإنسانَ، بحيث يعرف فاطِرَه جلّ وعلا، بِقَلْبه وعقله وفطرته، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم]، وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ...﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقال تعالى على لسان جميع رسله الكرام عليهم من الله الصلوات والبركات والسلام: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ...﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال مخاطباً نَبِيَّهُ الخاتم متحدِّثاً عن المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ...﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقد فَصَّلْنا القول في هذه المسألة في الفصل الأول من الباب الأول، لذا نكتفي هنا بهذه الإشارة.

٢) والمقصود باستخدام العقل والسَّمع والبصر للتأمُّل في آيات الله في الأنفس والآفاق ..ألخ، هو أنَّ المعرفة الفطرية والبداهة العقلية تجاه الله الخالق الرب المالك جلَّ شأنه، إنَّما تترسَّخان وتتقوّيان، عندما يَنْضافُ إليهما: تدبُّر العقل وتأمُّلهُ بمساعدة الحواس، في آيات الله التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى في الآفاق (أي خارج نطاق الإنسان) وفي الأنفس (أي داخل دائرة الكينونة الإنسانية)، وذلك لأن الإيمان بالله يُبْنى على العلم والمعرفة به، من خلال خَلْقه وآثاره، ولهذا فكلّما ازداد العلمُ بأسرار خلقه، وترسَّخت المعرفة به وبأسمائه وصفاته وشؤونه من خلال آثاره، كلّما تَمهَّد الطريقُ أكْثَر أمامَ الإيمان بالله تعالى والوصولِ إلى بَرْدِ اليقين، وقد اعتبر الله تعالى العقلَ والسَّمْعَ والبَصَر، وسائلَ لنيل العلم والمعرفة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].

والآيتان الكريمتان تدلّان بجلاءٍ على أن طريق اكتساب العلم والمعرفة، هو استخدام الفؤاد والسمع والبصر، ومن الواضح أن المجال

الذي يمكن استخدام تلك القوى الإدراكية فيه، هو مخلوقات الله تعالى، وظواهرها المُدْهِشَة المُتْقَنَةُ الصُّنْع، والتي يسمِّيها خالقها بـ(الآيات) وهي جمع (آية) وتعني العلامة، وذلك لأن كلها علامات دالّات على خالقها وفاطرها سبحانه وتعالى، وقد أمر الله تعالى الناسَ في كثيرٍ من آيات كتابه الحكيم، أن ينظروا ويتفكَّروا في مخلوقاته، لكي يُضيفوا إلى رصيد الفطرة السليمة، وبداهة العقل، المَعْرِفَةَ المُكْتَسَبة عن طريق العقل والحواس، فيزدادوا علماً، وتترسَّخ مَعرفَتهُم بربِّهم وأسمائه وصفاته المتجلّية في مرايا مخلوقاته، كما قال تعالى:

* ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ...﴾ [الأعراف: ١٨٥].

* ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس].

* ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

٣) ونقصد بعلم الوحي الذي يبيِّن كيفيَّةَ الإيمان بخالقية الله وربوبيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ، الحقائِقَ التي جاء بها الوحيُ الربانيُّ إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وذلك لأن المعرفة الفِطْرية والبديهية التي وَهَبهما الله تعالى للبشر وفَطَرهم عليهما، وانْ كانتا تُمَكِّنانِ البَشَرَ من معرفة الله تعالى والإعتقاد بوجوده، ولكنَّهما ليستا كافيتين لمعرفة الله العظيم المَعْرِفَةَ اللاّئقة به، ولِهذا فلا بُدَّ أن يَنْضَمَّ إليهما: عِلْمُ الوحي الذي تضمَّنه كتابُ الله وسنَّةُ رسول الله ﷺ، وقد بيـنّا في الفصل الأول ـ السابق ـ من هذا الباب، أنَّ الوحيَ هو المصدَرُ الوحيدُ الذي يَدلُّنا على حقائق الإيمان، ويعلِّمُنا كيفية الإيمانِ بالله تعالى، وسائرِ أركان الإيمان الأخرى، لذا فهنا نكتفي بالتذكير بهذه الآية المباركة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا

﴿ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى].

ولكن هذه الأشياء أو الأركان الثلاثة مجتمعة أيضاً، لا يمكن أن تُشَكِّل وَحْدَها الإيمانَ، وإنْ كان وجودُ كلّ منها ضرورياً، وشرطاً لتكوين الإيمان، ولكن ما لم ينضم إليها الركن الرابع والأهم، فهي تَبْقى بِمَعْزِلٍ عن معنى الإيمان، وأقصى ما يمكننا أن نصفها به، هو أَنَّها موادٌ خامٌ إذا وصَلَتْها يَدُ القلب الراغب في العبادة والعبودية لله، يمكنها أن تُحَوِّلها إلى الإيمان، وقد عبَّرنا عن الركن الرابع بـ:

١) أَنْ يَسْتَيْقِنَ الإنسانُ ويقتنع اقتناعاً تاماً وجازماً، عقلاً.

٢) ويُصَدِّق تصديقاً ويُصمِّم تصميماً قاطعاً، مُقْتَرناً بالرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ، قَلْباً.

٣) ويُقِرُّ إقراراً واضحاً وصريحاً، لساناً.

٤) ثم يُظْهِرُ ويُثْبِتُ من خلال الطاعة والإلتزام، عملاً.

أنه:

لا ربَّ لَهُ، ولا إلهَ، ولا وليَّ، ولا حاكم، إلّا الله تبارك وتعالى.

فهذا باختصار شديدٍ هو معنى الإيمان بالله سبحانه وتعالى، والذي سَنُفَصِّلُهُ فيما بعد في الفصول الأربعة الآتية بتوفيق الله الوهّاب.

ونختم هذا الفصل الثالث، بهذين الإيضاحين المختصرين:

أولاً:

إنَّ الكيانَ الإنسانيَّ يتكوَّن من أربع قِوى هي:

١ ـ القوة الإدراكية، المُتَمَثِّلَةُ في العقل وما تحت تصرّفه من حواس.

٢ ـ القوة الإرادية، المتمثِّلَةُ في القلب.

٣ ـ القوة البيانيّة، المتمثِّلَةُ في اللِّسان، أو ما ينوب عنه مثل الخَطِّ.

٤ ـ القوة التنفيذية، المتمَثِّلَةُ في البدَن وجوارحه.

والإيمان بالله تبارك وتعالى له ارتباط وثيق بكلٍ من هذه القوى الأربع، ويَجْعَلُ كلَّها مِرآةَ تَجَلِّيهِ وتَبَلْورُه، ولا يتم الإيمانُ ولا يصِحُّ إلّا عندما يشمل كلَّ كينونة وجوده، من خلال تجلِّيهِ وظهوره في مِرآة كل من قواه:

الإدراكية، والإرادية، والبيانية، والتنفيذية.

ثانياً:

إن كلَّ الذي ذكرناه في الفصل الأول من هذا الباب ـ أي الكتاب الثاني من هذه الموسوعة ـ حول تعريف الإيمان والمؤمن، إنما ينطبق تمام الإنطباق على الإيمان بالله تعالى فَحَسْبُ، وإن كان يشمل أركانَ الإيمان الأخرى أيضاً عموماً، ولكن صلِتَهُ الوثيقة هي بالإيمان بالله، الركن الأعظم والأهمِّ للإيمان والعقيدة، بل بعضها، مثل مكوِّنات الإيمان القلبية، من الحُبِّ المطلق والتعظيم المطلق والإجلال والخوف والخشية والتوكل ووجل القلب..ألخ، لا يجوز لغير الله تعالى، وَصرْفُها لغيره، شِرْكٌ بالله.





الفصل الرابع

الإيمان بخالقية الله تعالى

ولفهم كيفية الإيمان بخالقية الله تبارك وتعالى، فَلْنَتَدبَّر هذه الآيات المباركات، كأمثلة لآيات كثيرة جداً في هذا المجال:

قال الله الحكيم:

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام].

* ﴿...فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف].

* ﴿...أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

* ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ...﴾ [إبراهيم: ١٠].

* ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل].

* ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [النحل].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا

يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج].

* ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . . .﴾ [الفرقان: ٣].

* ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ. . .﴾ [فاطر: ٤٠].

* ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف].

* ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان].

* ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر].

* ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر].

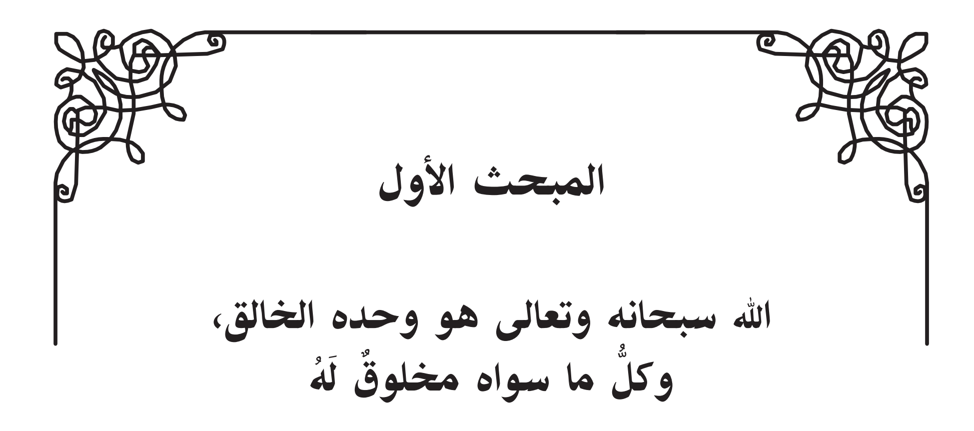
* ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف].

* ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف].

* ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور].

ونقتبس من أنوار هذه الآيات المباركات، الحقائق الأربع الآتية والَّتي نعرِضْ كلاً منها في مبحث، ونَتَوخَّى في عَرْضِها غايةَ الإختصار، لأنَّـنا قد تحدَّثنا عن قضية الإعتقاد بوجود الله تعالى وخالقيَّته وربوبيَّته، في الفصل الأول من الكتاب الأول:

❊ ❊ ❊



المبحث الأول

الله سبحانه وتعالى هو وحده الخالق، وكلٌّ ما سواه مخلوقٌ لَهُ

نعم لا يُوجَدُ إلّا شيئان: الخالق سبحانه، ومخلوقاته، إذن: كُلُّ ما هو غيرُ الله تبارك وتعالى، فهو مخلوقٌ له، إذ لا وجود لغيره، إلّا أن يكون مخلوقاً له، وقد بيَّن كتاب الله الحكيم هذه الحقيقة بمختلف الصِّيَغِ التعبيرية، مثل:

١) وصف الله تعالى بأنه هو وحده خالق كل شيء:

وقد عبَّر كتاب الله عن هذا، بتعبيراتٍ شتّى، كقولِهِ تعالى في (الزمر) الآية (٦٢) ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾، وكذلك في (الرعد) الآية (١٦): ﴿...قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾، وكقوله في كل من الآية (٦٢) من (غافر) والآية (١٠٢) من (الأنعام): [﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾].

وكقوله في الآية ﴿...وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢]، وفي الآية (٤٩) من (القمر): ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾﴾.

٢) وصف المعبودات المُزَيَّفَةِ كُلِّها، بأنـَّها لا تَخْلُق شيئاً، بل هي نفسها مخلوقة لله:

وذلك أيضاً بتعبيرات شتى:

كقوله تعالى في الآية (١٩١) من (الأعراف): ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾.

وكقوله تعالى في الآية (١٦) من (الرعد): ﴿...أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾.

وكقوله تعالى في الآية (١٧) من (النحل): ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وكذلك في الآية (٢٠) منها: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

وكقوله تعالى في الآية (٧٣) من (الحج): ﴿...إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾.

٣) تحدِّي المشركين والكفرة، أَن يُثْبِتوا وجودَ مخلوقٍ لغير الله الخالق:

وذلك أيضاً بتعابير متنوعة:

كقوله تعالى في الآية (١١) من (لقمان) بعد عَرْضِهِ سبحانه وتعالى مخلوقاته بصورة عامة: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

وكقوله تعالى في (الأحقاف) الآية (٤): ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾.

٤) توجيه السؤال الإستفهاميِّ الإنكاريِّ المتضمِّن جوابَهُ في طَيّاتِهِ:

كقوله تعالى في الآية (١٠) من (إبراهيم): ﴿...أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

وهذا السؤال موجَّهٌ من قبل الرسل الكرام جميعاً عليهم الصلاة والسلام إلى كافة أهل الكفر على مرِّ العصور!

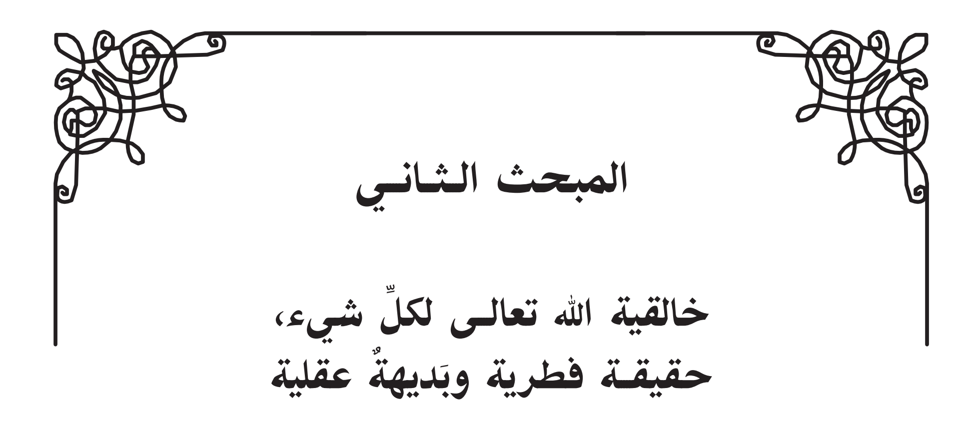
وكقوله تعالى في الآيتين (٣٥ و٣٦) من (الطور): ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

٥) تقرير خالقية الله تعالى على لسان أهل الكفر وباعترافهم:

كما قوله تعالى في الآية (٩) من (الزخرف): ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾.

وكذلك في الآية (٨٧) منها: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الثانـي

خالقية الله تعالـى لكلِّ شيء، حقيقـة فطرية وبَديهةٌ عقلية

ويدلّ على هذه الحقيقة، قولهُ تعالى على لسان كلِّ رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام مُخاطِبين أقوامَهم: ﴿...أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠] إذْ يدلُّ هذا الكلامُ المبارك على أن الإعتقادَ بخالقية الله وفاطريَّته للسموات والأرض، مركوزٌ في فِطَر الناس وعقولهم، وإلّا لما أجمع عليه كلُّ الرسل والأنبياء الكرام في محاججة أقوامهم به! ثم إن الأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، هم صفوة الله في البشرية، وهم أرجَحُ الناس عقلاً وأثقفهم فكراً، وأغزرهم علماً ومعرفة، فما يُجْمِعُ عليه أولئك الأفاضل المختارون، لا يكون إلّا حقاً وصواباً، كيْف لا! وهل يوجد بعد حق الأنبياء والرسل وصوابهم، حق وصواب؟!

وكذلك يدل عليها قول الله العظيم: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل]، لأن قوله تعالى (أفلا تذكّرون!) يعني ان خالقية الله تعالى للأشياء واضحة إلى درجة لا يحتاج إدراكها إلّا إلى التذكُّر، و(التذكُّر) هو (التفعّل) من (الذِّكْر) والذكر هو ضد النسيان، إذاً: فحقيقة خالقية الله تعالى لكلِّ شيء، لا تحتاجُ معرفتها إلّا إلى شيء من التذكّر والتفكّر ومراجعة الذّات.

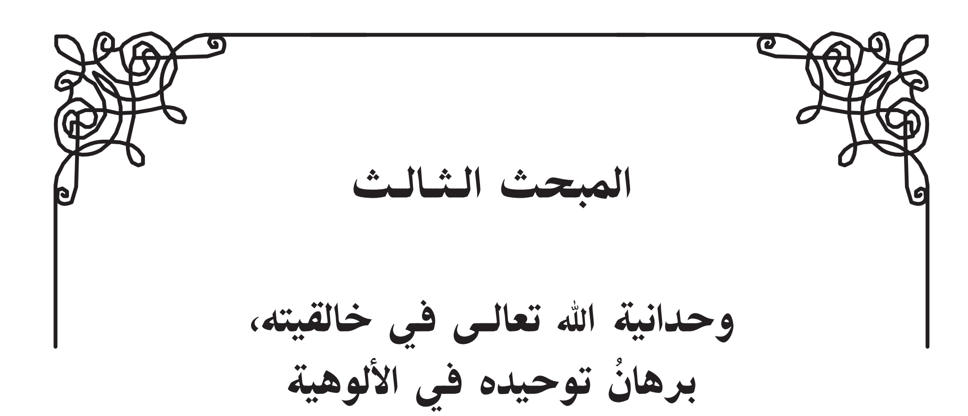
وكـذلـك يـدلُّ عـلـيـهـا قـولـه تـعـالـى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور]، حيث يُفنِّد الله تعالى بأسلوب الإستفهام الإنكاري احتمالَ كون الناس مخلوقين من غير خالق، أو احتمالَ كونهم خَلَقوا أَنْفُسَهُمْ، وذلك واضح وبديهي، إذ الموجود الذي أُوجِدَ وأُحدِثَ بَعْدَ أن لم يكن له وجود، لا بدَّ أن يكون له مُوجِدٌ، طبقاً للقاعدة العقلية البديهية القائلة: لا يُمكن أن يوجد شيء مُحْدَث بدون مُحْدِثٍ، ثم لا يمكن أن يكون الشيءُ المُحْدَثُ مُوجِداً لنفسه، لأنَّ مَن لم يكن له وجودٌ، كيف يُعطي الوجودَ لنفسه؟!

فَلَمْ يبق إلّا الإحتمال الصحيح الوحيد: وهو كون الخالق جلَّ شأنه خالِقاً لهم ومُعْطي الوجود إياهم.

وكذلك تـدلُّ الآيتان (٩ و٨٧) من (الزخرف) عليها: إذْ يُقرِّر الله تعالى فيهما على لسان الكفار، أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض، وكذلك هو الذي خلقهم وأوجدهم، ولولا أنَّ الناس كلَّهم، جَبَلَهم الله وفطرهم على الإقرار بهذه الحقيقة من أعماق فطرهم وعقولهم، لما قال الله تبارك وتعالى ذلك الجوابَ والإِقرارَ على لسان الكفار والمشركين.

ولكنه هو عليم بخفايا وجودهم، ويعلم منهم ما لا يعلمونه عن أنفسهم، كما قال: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك].





المبحث الثالث

وحدانية الله تعالى في خالقيته، برهانُ توحيده في الألوهية

أَجَلْ، طالما أنَّ الله تعالى هو وحده الخالق لكل شيء، ولا يوجَد غيرُه سوى مخلوقاتِهِ ومملوكاته، إذاً: يجب ألّا يُعْبَد إلّا هو، لأنه لا إلٰه غيره، ولا معبود بحقٍ سواه سبحانه وتعالى.

وتدلُّ على هذه الحقيقة آيات كثيرة جداً، وهذه أمثلة منها فقط:

١ ـ ﴿...فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف]، كما نرى: يُنْكِرُ الله الحكيمُ على المشركين إشراكَهم به في العبادة، ما لا يَخْلقُ شيئاً، بل هو نفسه مخلوق!

٢ ـ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام].

٣ ـ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر].

وفي هاتين الآيتين اللَّتين وردتا في سياقين، وتتحدّثان عن بعض آثار ربوبية الله وخالقيته، يعلن جلّ وعلا مخاطِباً البشَرَ، أنَّ الموصوفَ الذي ذَكَرْتُ بَعْضَ آياتِهِ ومظاهِرَ خالقيَّتِهِ وربوبيّته، هو وحده الله الرب الخالق

الإله، لذا يجب أن يعبد وحده، ولا يُشْرَكَ به سواه في العبادة.

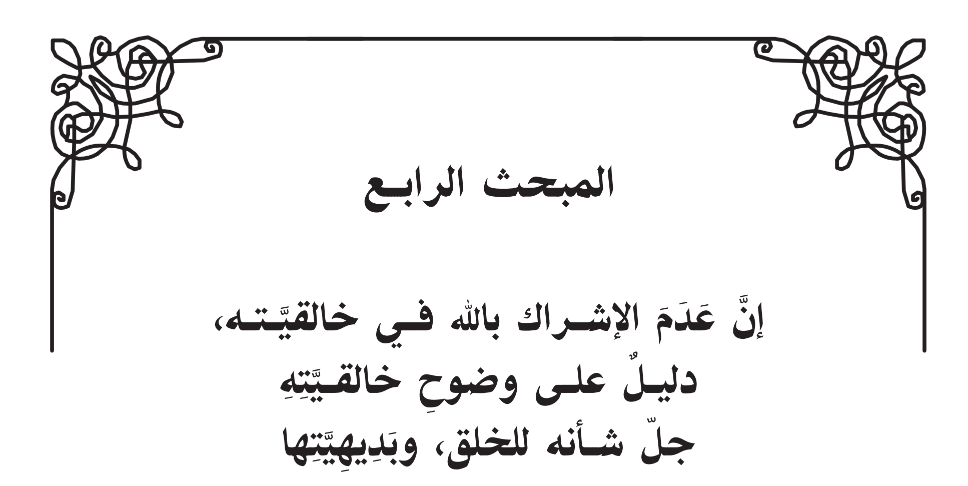
٤ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف].

ومعنى (يؤفكون) يُصْرفون، والمقصود من الآية المباركة:

طالماً أنَّ الكفارَ يُقِرّون بأن الله تعالى هو خالقهم ومالكهم، فكيف وإلى أين يُحرَّفون، ولِمَ يَعْبدُون غَيْرَهُ؟!

وصيغة المجهول في (فأنَّى يؤفكون؟!) للدلالة على أن أولئك الكفرة المنحرفين عن عبادة الله تعالى، كأنـَّهم فَقَدوا الإختيار والإرادة الحرَّةَ التي أكرمهم الله تعالى بها، وصاروا كالبهيمة التي تُقادُ بزمامها هنا وهناك بدون اختيار!



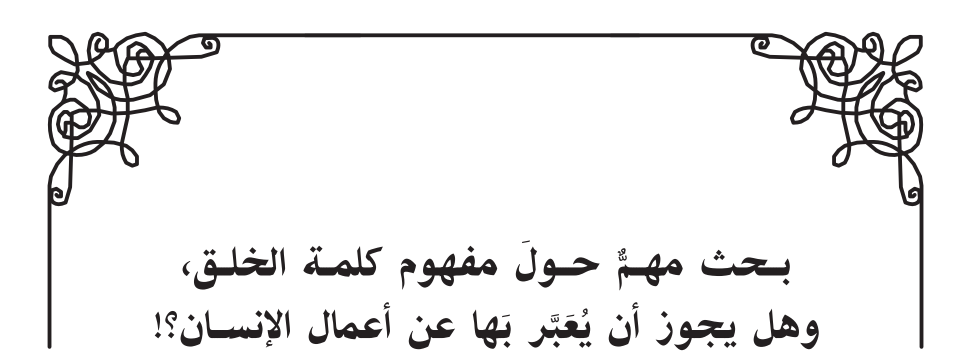


المبحث الرابع

إنَّ عَدَمَ الإشـراك بالله فـي خالقيَّتـه، دليـلٌ علـى وضوحِ خالقـيَّتِهِ جلّ شـأنه للخلق، وبَدِيهِيَّتِها

وهذه حقيقة أخرى تتجلَّى في الآيات التي أدرجناها في السّابق ـ في بداية هذا الفصل الرابع ـ وفي كثيرٍ من الآيات المباركات الأخرى، والواقع المعاصر والغابر للمجتمعات البشرية مِصْداقٌ لهذه الحقيقة القرآنية، حيث لم يَحْدُثْ يوماً أن يُشْرَكَ بالله في خالقيَّته شركاً صريحاً، ويُجْعَلَ مع الله تعالى في الخلق شريكٌ آخر، أو شركاءٌ آخرون، وهذا بخلاف ربوبيته وألوهيته وولايته وحاكميَّتِهِ، والتي حدث فيها كلِّها: الإشراكُ بالله، كما سنوضِّح هذا في الفصول الآتية، وسبب ذلك ـ أي عدم الإشراك الصريح بالله في خالقيَّتِهِ ـ هو بَديهيَّة خالقية الله للخلق ووضوحها من جانبٍ، وتَعَذُّرُ واستحالَةُ مزاولَةِ الخَلْق والإيجاد للبشر من جانبٍ آخر، وَعَدم امتلاك البشر أيَّ نصيبٍ من الخلق.

وهنا أرى من الضروري أن أُلقي الضوء على مسألة تعريف (الخَلْق)، لأنَّ الغَلَطَ في فهم معنى الخلق، يسبِّب حدوث الخَلْط والإلتباس بينه وبين (الجعل) و(الكسب) و(الفعل) و(العمل)، ومِنْ ثَمَّ تترتب على هذا الخلط والإلتباس، نتائج خاطئة، تمسّ جانب التصوّر والعقيدة، كما سيتبيَّن لنا من خلال بحثنا هذا.



بحث مهمٌّ حولَ مفهوم كلمة الخلق، وهل يجوز أن يُعَبَّر بَها عن أعمال الإنسان؟!

(الخلق) هو إيجاد شيء من العدم، أي إحداث شيء وإعطاؤهُ الوجودَ بعد أن لم يكن، كما قال موسى عليه السلام في جواب (فرعون) عندما سأله وأخاه: ﴿... فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]، فقال: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه]، وكما قال تعالى عن خلق الإنسان بعد أن لم يكن له ذكرٌ ولا وجود: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان].

وقد استعمل كتابُ الله المبين بالإضافة إلى كلمة (الخالق) مِنْ: (خلق يخلق خَلْقاً)، كلاً من: (فاطر)، و(بديع)، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ [الأنعام: ١]، وقد اشتقت كلمة (فاطر) من: (فَطَر يَفْطُر فَطْراً)[1]، أي: (شقَّ) وذلك لأن الإيجاد فصل بين العدم والوجود، كما واشتقت كلمة (بديع) من (أَبْدَعَ يُبْدِعُ إبْداعاً)[2] والإبداع هو إيجاد شيءٍ على غير مثال سابق، والبديع، فعيل بمعنى فاعِلٍ.

وهناك كلمات أخرى لها مفاهيم مختلفة عن مفهوم الخلق، مثل:

---

(١) المصباح المنير، ص٢٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٥.

(جَـعْـل) و(عَـمَــل) و(فِـعْــل) و(كـسْــب) و(إكـتـسـاب) و(إقـتـراف) و(إجتراح).

أما كلمة (جعل)، من (جَعَل يَجْعَـل جَعْـلاً) فتعْنـي تغييـر شيءٍ (أي مخلـوق) مـن حـالـةٍ إلـى أخـرى، كـمـا قـال تـعـالـى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ...﴾ [الأنعام: ١]، فذكر سبحانه كلمة (خلق) للسموات والأرض لأنَّهما أُوجِدَتـا بعد أن لـم يكن لهما وجود، ولكن ذكر كلمة (جَعَل) لإيـجاد الظلمات والنور، لأنَّ الظلمات والنور إنما تحدثانِ نتيجة التغيُّرات الحاصلة في السموات والأرض، من حركةٍ ودورانٍ للنجوم والكواكب..

وقال تعالى كذلك: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان]، وذلك أن إيجاد البشر من الماء شيءٌ، ثم صيرورتهم بحكم التناسل والتزاوج، مرتبطاً بعضهم ببعض عن طريق النَّسب (الصُّلب) والمصاهرة (الرحم)، شيءٌ آخر، إذ الثاني ليس سوى تَغَيُّر وتحوُّل يحدث في الأول، وهو موجود بالفعل، ولا يُضيفُ إليه شيئاً جديداً من حيثُ الوجودُ.

وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل].

فعبَّـر سبحانه عن عملية إحداثِهِ الظِّلال بالـ(جَعْل)، ولكن عَبَّر عن إحداثه الأشياءَ ذات الظِّلِّ بالـ(خَلْق)، وكذلك عبَّر عن تصييره الملابس والدُّرُوع واقيةً من الحَرِّ (والبـرد) والحرب، بالـ(جَعْل)، وذلك لأنَّ ظلال الأشياء وأكنان الجبال والملابس والدروع، كلَّها حصلت نتيجة التحوّلات والتغيُّرات في بعض المخلوقات، ولم تَحْدُثْ من العَدَمِ، حتى يعبِّـر عن حصولها بالـ(خلق).

وقد استعمل القرآنُ الحكيمُ لتسمية تصرُّفات المخلوقين ـ ونقصد

الإنسان هنا بالذات ـ كلاً من: الجعل والعمل والفعل والكسب والإكتساب والصنع والإجتراح والإقتراف.

ومن الواضح أن مفاهيم هذه الكلمات كلها، تدور في دائرة التصرّف والتغيُّر في الأشياء، وليس لها أيُّ نصيبٍ في الخلق والإيجاد، وهذه أمثلة من الآيات التي استعملت الكلمات المذكورة، بِصِيَغٍ مختلفة:

* ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس].

* ﴿. . . لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [البقرة: ١٣٩، القصص: ٥٥، الشورى: ١٥].

* ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ. . .﴾ [الشعراء: ١٩].

* ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ. . .﴾ [البقرة: ٢٨٦].

* ﴿. . . إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

* ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية].

* ﴿. . . وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ. . .﴾ [الشورى: ٢٣].

ولكن لَمْ يستعملْ القرآنُ الحكيمُ كَلِمَةَ الـ(خلق) للتعبير عن أعمال المخلوقين وتصرفاتهم، لأن المعنى الأصليَّ والأعم للخلق، هو إيجاد شيءٍ بعد أن لم يكن، ومن الواضح ان إيجادَ الأشياء وإعطاءَها الوجودَ، من اختصاص الله تعالى وحده، وليس للمخلوقين فيه نصيب، ولهذا عرَّف نبيُّ الله (موسى) عليه السلام ربّه العظيم في جواب سؤال فرعون، بأنه هو الذي أعطى الوجود للمخلوقات كلِّها:

﴿. . . رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

ولكن هناك ثلاث آيات في كتاب الله خالفت تلك القاعدة العامة

واسْـتُعْمِلَتْ فيها كلمة الـ(خلق) لوصف بعض تصرُّفات بعض المخلوقين، وذلك لحكمةٍ، كما سنشير إليها، والآيـات الثـلاث هي:

* ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت].

* ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ ...﴾ [آل عمران: ٤٩].

* ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِيۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة].

وحكمة استعمال الكلمة المذكورة في آية العنكبوت، والتي وردت في سياق حوارِ إبراهيم عليه السلام مع قومه المشركين، هي:

أَن الشِّرك بالله تعالى ـ والمقصودُ به هنا: هو الشرك المتمثِّلُ في عبادة الأصنام ـ يُشْبِهُ من ناحية عدم وجود مِصْداقِه في الواقع، الخَلْقَ من العدم، أي: كما أن الشيءَ المخلوق لا يكون له وجود قبل أن يُخْلَقَ، كذلك الشرك المُفْتَرى ليس له وجودٌ خارجيٌّ في دنيا الواقع، بل هو مجرَّدُ وهم في أذهان المشركين لا غير، ولهذا فَكَأَنَّهم أحدثوه وأبدعوه من العدم، وإلّاَ فأين تلك الشركاء المزعومة، وأين شَراكتهم لرب العالمين سبحانه وتعالى، ولِم لا نَجِدُ لها أيَّ أَثَرٍ؟!

وأما حكمة استعمالها في آيتي (آل عمران) و(المائدة) واللَّتين وردتا في سياق الحديث عن المعجزات والآيات التي أعطاها الله عيسى ابنَ مريم عليه السلام لإثباتِ نبوَّته، مثله في ذلك مثل سائر الأنبياء الكرام عليهم السلام،

والذين أعطاهم الله تعالى من المعجزات والبيِّنات ما يُثْبِتون بهِ نبوَّتهم، فهي:

أَنَّ الفعل الذي أجراه الله على يد نبـيِّ الله عيسى عليه الصلاة والسلام والذي كان عبارة عن صنع صورة مُجَسَّمَةٍ من الطِّين على هيئة الطير، ثم نفخِهِ فيها وصيرورتها طيراً حيّاً بإذن الله، وإن كان في حقيقته لم يكن سوى (صنع)، ولكن سمّاهُ كتابُ الله خلْقاً، لأنه كان شبيهاً بعملية الخلق من حيث حصولُ طائرٍ حيٍّ نتيجة ذلك، وبما أن قضية الحياة سرٌّ غامِضٌ وتحويلُ طينٍ ميِّتٍ إلى طَيْرٍ حيٍّ، ليس في مُكْنَةِ البشر، بل هو من اختصاص الله العليم القدير، وان كان في الظاهر قام به عيسى عليه السلام، لذا دفْعاً لتوهم الخالقية من عيسى عليه السلام، رُبِطَ في كلتا الآيتين تحوُّلُ الطِّين المصوَّر إلى طائر حيّ بـ(إذن الله)، أي مشيئته سبحانه، لأنه هو وحده المحي وواهب الحياة، ودور عيسى عليه السلام في تلك العملية كان منحصراً في شيئين:

١ ـ صُنع مُجَسَّم[1] طائرٍ ٢ ـ ثم نَفْخِهِ فيه، وأما محوِّل النفخة إلى حياة تدبّ في الطين المصوَّر، ثم تحوّله إلى طائر حي، فهو الله تبارك وتعالى وحده، ولكن أجرى فعله ذلك من خلال عيسى عليه السلام كمعجزة له.

ولهذا نسب عيسى إلى نفسه كلاً من: الخلق (الصنع) والنفخ: [﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ﴾] ولكنه نسب فعل صيرورة الطين المصوّر طيراً إلى الله تعالى وربطه بإذنه: [﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾].

وهنا يتبيَّن لنا سُخْفُ رأي المعتزلة وضحالة تفكيرهم، في نسبتهم خلق الأفعال خيراً أو شراً إلى الإنسان، وذلك دفاعاً عن عَدْلِ الله وحكمتِهِ وهروباً من الجبر بزعمهم! ولم يَعْلَموا أن الخَلْقَ والإيجادَ من اختصاص الله الخالق وحده جلَّ شأنه، ويَسْتَحيلُ ولا يمكن تَأَتِّيهِ من المخلوقين أصلاً، وإنما لم يُعْطِ الله البشَرَ القُدْرَةَ على الخلق، لأن وظيفة الإبتلاء المسنودة إليهم، لا تتوقف على ذلك، بل يكفيها العمل والإكتساب، وقد مَكّنهم الله تعالى منه أيَّما تمكين!

(١) المُجَسَّمُ: ما لَهُ طولٌ وعُرْضٌ وسَمْكٌ. المعجم الوسيط، ص ١٢٣.

ولكن إنصافاً للحق نقول:

إنَّ بعضَ خصوم المعتزلة من الجبرية وغيرهم، كذلك فرَّطوا في هذا الموضوع في مقابل إفراط المعتزلة، إذ صوّروا الإنسانَ في صورة من هو مجبَرٌ على أعماله، ولم يجعلوا قُدْرَةَ الإنسان على الفعل والعمل والكسب، موضوع شَكّ فَحَسْبُ، بل جَزَموا بأن الإنسانَ شبيهُ بريشةٍ طائر في مهبِّ الريح، وليس له أَيُّ دورٍ أمام مشيئة الله التي تذهب به هنا وهناك، رغماً عن أنفه!!

أجل ان خصوم المعتزلة، وفي ردِّ فعلٍ لإفراطهم وغُلوُّهم في التأكيد على حرية الإنسان، والذي يتمثل في قولهم: (الإنسانُ خالِقُ أفعاله)، أَوْغَلَوا في الإتجاه المعاكس لرأي المعتزلة، وقلَّلوا كثيراً جداً من فاعِليَّةِ الإنسان وقدرته على التحرُّكِ، حتى وصلوا إلى حدّ اعتباره مجبوراً، ومكتوف اليدين والرجلين أمام إرادة الله تعالى وقدره، وصرَّحوا ـ عكس المعتزلة ـ بأن الإنسانَ، لا أَنَّه لا يَخْلُقُ أفعالَه، فَحَسْبُ، بل ولا يكسبها أيضاً، ثم قالوا قولتهم المشهورة التي تَبنّاها مُعْظَمُ أهل الكلام فيما بعد وهي: (إن الله تعالى هو خالق أفعال الإنسان).

ولكن:

كما أن عدم استعمال كتاب الله المبين، كلمَةَ الخلق لأفعال البشر وتصرُّفاتهم، واقتصاره على استعمال الألفاظ التي مفاهيمها بعيدة عن مفهوم الخلق، رَدٌّ مُفحِمٌ على المعتزلة وإفراطهم في تقرير قدرة الإنسان وفاعليَّتِهِ، كذلك عَدَمُ استعمالُ كتابِ الله المبين تعبيرَ: كَوْنِ الله تبارك وتعالى خالقاً لأفعال الإنسان وتصرّفاته، لَدليلٌ قاطِعٌ في مجال الردِّ على الجبرية، وَدَحْضِ موقفهم المفرِّط بالنسبة للإقرار بفاعلية الإنسان وقدرته على العمل والكسب، والذي أرادوا به الدِّفاعَ عن إرادة الله تعالى الشاملة وقدرته المطلقة وفاعليته التي لا حدود لها! ولكن لا شكَّ أن صفاتِ الله العُلى وأَسماءه الحسنى ثابتة ومسلَّمة، وإثباتُها لا يتوقَّفُ على تصوير الإنسان الذي خلقه الله للعمل والكسب، بصورة عاجزٍ مشلولٍ، فاقِدِ الإرادة والقدرة!! كما أن فاعليَّةَ

الإنسانِ في مجال الكسب والعمل، لا يتوقَّف إِثباتُها على جعله ـ زُوْرَاً وظُلماً ـ خالقاً ومُوجِداً لأفعالِهِ وتصرُّفاته.

هذا واستدلَّت الطوائف القائلة بأن الله تعالى هو خالق أفعال الإنسان، سواءٌ الجبريَّةُ منهم أو غيرُها، بأدلَّة، رُبَّما أقواها في نظرهم، هذان الدليلان:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾ [الزمر].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات].

وفي كيفية دلالة هاتين الآيتين المباركتين على المطلب المذكور، قالوا:

قوله تعالى: [﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ...﴾] واضح الدلالة على أنه ما من شيءٍ إلّا والله تعالى هو خالقه ومُوجِدُهُ، وبما أنَّ أفعال الإنسان شيءٌ موجودٌ، إذاً: فالله تعالى هو مُوجِدُها وخالِقُها، إذ لا بدَّ لكل شيءٍ من خالق، ولا خالق إلّا الله تعالى.

هذا بالنسبة للآية الأولى، وأما بالنسبة للآية الثانية، فقالوا:

إن الله تعالى أعلن ـ على لسان عبده وخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مخاطباً قَوْمَهُ الكفّارَ، بأن الله تعالى هو الذي خلقهم وأوجدهم، وكذلك أوجد أعمالهم وعليه:

فالله تعالى هو خالق أفعال الإنسان وتصرّفاته، أياً كان نوعها!

أ ـ وجواباً على استدلالهم بالآية الأولى، نقول:

نعم لا شك أن الله تعالى هو وحْدَهُ خالق كل شيء، إذ لا خالق سواه، ولكنَّ الشيءَ المخلوق، هو الشيءُ الذي لم يكن له وجودٌ، فَأُلبِسَ ثوبَ الوجودِ، أو بتعبير آخر نقول:

إن الله تعالى أَعْلَنَ أنه هو وحده خالِقُ كلِّ شيءٍ، والمقصود بالشيء في قوله تعالى: [﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ...﴾] هو الشيء المخلوق

المُحْدَثُ، الذي خُلِقَ وأُنشيءَ بعد أن لم يكن له وجود، وبناءً عليه:

فالأشياء التي لم تَحْصُلْ نتيجة الخلق والإيجاد، بل حصلت نتيجة التغيير والتصيير والتصريف والتحويل ـ وذلك كأعمال الإنسان وتصرُّفاته ـ ليست مخلوقةً كي تحتاج الخالق، بل هي مُجرَّدُ كسوبٍ وأفعالٍ وأعمالٍ وتصرُّفاتٍ في الأشياء المخلوقة لله، وبالوسائل المخلوقة لله، لذا يكفي لحصولها وجودُ كاسبٍ وفاعلٍ وعاملٍ ومُتَصِّرفٍ، وقد نَسَبَ كتابُ الله هذه الصفات للإنسان ووصفه بها، كما استشهدنا بالآيات المباركات سابقاً، فالإنسان إذن كافٍ للقيام بتحصيل أعماله، نعم لا جدال في أن الله تعالى هو خالق الإنسان وخالق كل قواه الباطنة وأعضائِه الظاهرة، وكذلك هو خالق الموجودات التي يتصرّف فيها الإنسانُ كلِّها، ولكنَّ الله تعالى وَهَب الإنسانَ إمكانيةَ التصرُّف في المخلوقات، ووهبه القدرةَ على القيام بأعمالٍ ونشاطات شَتَّى، بذهنه وقلبه ولسانه وجوارحه، وذلك التمكُّنُ من القيام بِشتّى التصرّفات، هو الذي جعل الإنسانَ أهلاً للإمتحان والإبتلاء، وإلّا فكيف يُمْتحن ويُبْتلى العاجز الذي لا يتأتّى منه شيءٌ؟!

وتلخيصاً للموضوع المطروح، أقول:

ان المخلوقات هي التي يتوقف وجودُها على الخالق جَلَّ وعلا، ولكن بما أن أَفعالَ الإنسان ونشاطاتِهِ، ليست سوى أمورٍ مجعولة وشؤونٍ مكتسبة، لِذا يكفي لحصولها، مَنْ يتأتَّى منه الكسبُ والجَعْلُ والعَمَلُ، وهو الإنسان.

ب ـ وجواباً على استدلالهم بالآية الثانية، نقول:

ليس المقصود بكلمة: (وما تعملون) هو الأعمال والتصرُّفات التي يقوم بها الإنسانُ، بل المقصود بها شيءٌ آخر، وبعد التأمل في تلك الآية الكريمة في سياقها الذي وردت فيه، يتبيَّن المقصود بجلاء، فلْنَتَأَمل الآيات كلِّها: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾

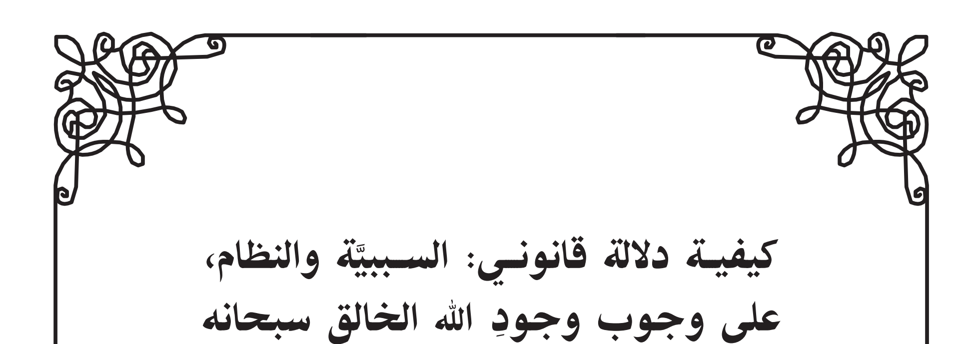
﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الصافات].

وبعد التأمل في هذه الآيات التي يحكي لنا فيها ربُّنا الحكيم الحوارَ الذي جرى بين خليله إبراهيم عليه السلام وأبيه وقومه العابدين للأصنام، يظهر لنا بجلاءٍ تام أن مقصود (إبراهيم) بقوله: [﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾] هو أنه يقول لقومه: كيف تعبدون ما تنحتونه من الأصنام بأيديكم، ولا تعبدون الله الخالق، مع أنه هو الذي خَلَقَكم وخَلَقَ ما تعملونه وتصنعونه من أصنام؟!

وليست للآية الكريمة أية صلة بمسألة خلق الأعمال التي كانت تَشْغُلُ بالَ خصوم المعتزلة، من جَبْريَّةٍ وأشاعِرَةٍ وماتريديَّةٍ وغيرهم، إذاً: المقصود بـ(وما تعملون) هو عين المقصود بـ(وما تنحتون)، إذْ لم يكن عَمَلُهُم الذي يعملونه، والذي نَسَبَ الله خَلْقَهُ إليه، سوى صُنْعِهِم الأصنام ونحتهم إياها، فوبَّخهم خليلُ الله أولاً على عبادتهم للأصنام التي كانوا ينحتونها بأيديهم، ثم ذكَّرهم بأنَّ الله العظيمَ الذي تركوا عبادَتَهُ لعبادة الأصنام، إنما هو خالقهم وخالق منحوتاتهم التي عَمِلوها وَصَنعوها بأيديهم، ومن الواضح أن الأصنام المنحوتة، من حيث هي موادٌّ مخلوقةٌ، إنما هي من خلق الله وصنعه، وإن كانت من حيث نحتُها وتصويرُها، من عمل عابديها وصنعهم وكسبهم.

وفي هاتين الآيتين، بالإضافة إلى الردِّ على الجبرية ـ لأن الله تعالى نسب النحت والعمل إلى المشركين ـ، كذلك فيهما ردّ مُفْحِمٌ على المعتزلة، وذلك لأن الله تعالى سَمَّى صُنْعَ المشركين لأصنامهم (نَحْتاً) وسمّاه (عملاً) ولو كان صنعهم لها (خلقاً)، لسمّاه الله تعالى به.





كيفيـة دلالة قانونـي: السـببيَّة والنظام، على وجوبِ وجودِ الله الخالق سبحانه

وبعد هذا البحث المختصر حول مفهوم كلمة (الخلق)، نعود إلى أصل الموضوع ونقول: إنَّ خَلْقَ الأشياءِ وإيجادَها من العَدَم وإعطاءَها الوجودَ، من اختصاص الله الخالق وحده سبحانه وتعالى، ولا يمكن لِغَيْره أدنى شيءٍ منه، وكيف يملك أمرَ الخلق من لا يملك وجودَ نَفْسِهِ، فهل يَهَبُ الشيءَ من لا يملك؟! كلاّ بل فاقِدُ الشيءِ لا يُعْطيه.

وقد ذكرنا ووضَّحنا في الفصل الأول من الباب الأول أن القانون العَقْلِيَّ البديهيَّ الواضِحَ المعروفَ بـ(قانون السببية) ـ والذي يقول: (لا بُدَّ للمخلوق من خالق، وللموجود من موجِدٍ، لأنه لا يَحْدُثُ حادثٌ، ولا يَحْصُلُ شيءٌ من غير سببٍ) ـ هو الذي يَضْطَرُّنا اضطراراً ويُلْجِئُنا إلجاءً لا مناص منه، إلى الإعتقاد بوجود الله الخالق جلّ وعلا لـهذه الموجودات، بـمجرَّدِ رؤيتنا لـها وبـمجرّد كونها مخلوقَةً، أي بِغَضِّ النظر عمّا فيها من نظام وإتقانٍ، وقد نَبَّهَ الخالق الحكيم جلّ وعلا على هذه الحقيقة في آيات كثيـرة، والتي أشرنا إلى بعضها في بداية هذا المبحث، فلا نُعيدُها هنا، ونكتفي بالإشارة إلى هذه الآية المباركة التي تَهُزُّ من الأعماق، كلَّ مَنْ يملك قَلْباً سليماً، أو عقلاً صحيحاً، إذْ يقول تعالـى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج].

نعم والله الذي لا ربَّ غيـره، يَسْتَحِقُّ هذا المَثَلُ كثيراً مِنَ التوقف والإستماع والتدبّر، وخلاصة ما يقصد بهذا المثل الذي يُنادي فيه رب العالمين كلَّ الناس العابدين لغير الله من غير استثناء، ويُعْلِمُهُمْ أن معبوداتهم كُلَّها لو اجتمعوا وتساندوا وتعاضدوا فيما بينهم، على أن يخلقوا ذباباً واحداً فقط لعجزوا عنه، بل وأكثر من ذلك: لو سَلَبَهُمُ الذُّبابُ شيئاً، لَما أَمكنهم استرجاعُهُ منه! أجل خلاصة ما يراد بهذا المثل ـ حسبما أرى ـ هي:

إلْفاتُ النظر والتنبيه على عظمة وضخامة قضية الخلق ـ الإيجادِ من العدم ـ والتي كثيراً ما نَغْفُلُ عنها، بل ننساها من جرّاء الإِلْفِ والعادة، ولهذا اختارَ الله الحكيمُ لِتَحدِّيه الكُفّارَ العابدين لغيره، مخلوقاً صغيراً حقيراً ـ حسب مقاييسنا، وإلّا فكل مخلوقٍ من مخلوقات الله عظيم وذو بالٍ وأهمية من حيث كونُهُ مخلوقاً، ومن حيث ضرورةُ وجوده لتكميل صورة الخَلْق، والحِكَم والمصالح المرتبطة بكل مخلوق، وإن خَفيَتْ علينا كلُّها أو جُلُّها ـ، ألا وهو (الذُّباب) فالذباب ذلك المخلوق الصغيرُ في حجمه والمُزْعِجُ بطبعه، يخلق الله الخالق منه في كل لحظة، ملايين بل مليارات في أقطار الدنيا، ولكن حتى خلق ذبابٍ واحدٍ من تلك الحشرة، عمل ليس صَعْباً فَحَسْبُ، بل ومستحيلٌ على كلِّ مَن يعتقد فيهم الناسُ الأُلوهيَّةَ، حتى وان تعاونوا وتساندوا فيما بينهم!!، ومن الواضح أن ما يستعصي فِعْلُهُ على الطواغيت، وكلِّ مَنْ يعتبرهم الناسُ أنهم فوقهم، وأنهم أَقْدَرُ منهم، ولهذا يعبدونهم، فهو على غيرهم أعصى وأصعب، إذ لا شكَّ أن المتبوعَ أقدر من التابع، والسيِّدَ أقوى من المسودِ، وما يعجز عنه القويُّ فالضعيف عنه أعجز!

ومن نافلة القول: أن مسألة ما تُسَمّى في هذا العصر بـ(أطفال الأنابيب) لَيْسَتْ لها أية علاقة من قريب أو بعيد بقضية الخلق، إذْ تلك العملية ـ أي نقل النطفة من رحم الأم إلى مكان آخر مُهَيَّأٍ له على غِرارِ الرَّحِم ـ ليست سوى نَقْلِ مخلوقِ الله الذي لا يَدَ لأحدٍ فيه إلّا خالقه، من مكانه إلى مكان آخر شبيهٍ به، كي يتربَّى فيه وَيَمُرَّ بالمراحل التي جعلها الله تعالى سنةً ثابتةً لَتَخلّقِ الجنين البشريِّ، وحتى في تلك الحالة، ما لم يُقَلِّدْ

ناقلوا النُّطْفَةِ في تهيئة المكان البديل الذي يراد أن تتربّى فيه النطفة، خَلْقَ الله تعالى في الرَّحِم، وما فيه من مستلزمات تنشئة الجنين وتكامُلِ نُموِّهِ، بدقةٍ بالغةٍ، فلا تَتَمَخَّضُ محاولتهم إلّا عن الفشل الذّريع!

هذا بالنسبة لدلالة الخلق ـ مجرّد الخلق ـ على الخالق جلَّ وعلا، ثم بما أن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلّا كأَحْسَن ما يكون الخلق، وبأتْقَنِ ما يكون الصُّنع، بحيث لا يقدر أحدٌ، بل الناسُ والجنُّ كلُّهم، على أن يَعْثُروا على أدنى خَلَلٍ أو نقصٍ في شيء من خلق الله العليم الحكيم، لذا فهناك بديهيةٌ عقليةٌ أخرى، تُجْبِرُ العَقْلَ على الإذعان بوجود الخالق العظيم والرب العليم الحكيم، للخلق المُنظَّم المُحْكَم المُتْقَن، وهي البديهية العقلية القائلة: (لا بُدَّ للنظام من مُنَظِّم، لذا فحيثما وجِدَ شيءٌ مُنَظَّم مُتْقَنٌ، فهناك مُنَظِّم مُتْقِنٌ).

وبما أننا قد تحدثنا عن هذه المسألة في الفصل الأول من الباب الأول، بقدر ما سَمَحَ به الحالُ والمَجالُ، نكتفي هنا بإيراد بعض الآيات التي سبق وأن علَّقنا عليها في الموضوع المشار إليه، لذا نُورِدُها هنا للتذكير بها فَحَسْبُ، من غير شرح:

* ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك].

* ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل].

* ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة].

* ﴿. . . وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

* ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى].

* ﴿... رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار].

ونختم هذا الموضوعَ بالقول:

طِبقاً للقانون العقلي البديهي (لا نظام بدون مُنظِّم)، فالنظام والإتقان والإحْكام المُدْهِش الذي نجده في خلق الله العريض، سواء على مستوى الأنفس أو الآفاق، وسواء على صعيد الخلق كله، من حيث تناسق وتجاوب المخلوقات بعضها مع بعض، وكأنَّ الخَلْقَ كلَّه جسَدٌ واحد، وفيه روح واحدة تُدَبِّر شؤونها، أو على صعيد كل مخلوقٍ على حِدَةٍ، لَبُرْهانٌ باهرٌ على خالقية الله تبارك وتعالى وربوبيَّته، بل ـ وكما قلنا سابقاً ـ ان هذا الخَلْقَ العَجِيبَ المُنَظَّم المُتْقَنَ المُدْهِشَ، يدلّ على ربوبية وخالقية خالقه وربِّه، بعدد الذرات التي تتشكّل منها الظواهر المادية، بل وأضعاف ذلك، لأن الذرات أيضاً بدورها تتشكّل منها ما لا يُحْصي عدَدَها إلا الله، من المخلوقات الصغيرة والكبيرة!

ودلالَةُ كل ذرة أو جُزَيءٍ (مولكول) أو خليَّة...الخ، أوضَحُ بكثير على خالقية الله العليم القدير وربوبيّتهِ، من دلالة ساعة يدوية أو حاسوبٍ أو سَمِّ ما شئت، من منتوجات التكنولوجيا المعاصرة، على صانعها، وذلك لأن:

١ ـ النظام والدقة والإتقان الذي يوجَدُ داخِلُ ذرةٍ أو جزيءٍ أو خَلِيَّةٍ...الخ، لا يُوجَدَ عُشْرُ مِعْشارِهِ، في أي آلةٍ يصنعها الإنسان.

٢ ـ الموادُّ التي يستعملها الإنسانُ، لصنع تلك الآلات والأجهزة، هي أيضاً مخلوقة ومهيأة من الله تعالى.

٣ ـ وفوق ذلك كُلِّه: الإنسانُ الصانع نَفْسُه: عَقْلُه وسَمْعُه وبَصَرُه وأجهزته الداخلية وأعضاؤه الظاهرة، وروحُه التي لا يعلم حقيقتها سوى بارئها، هذه الأشياءُ كلّها أيضاً من صنع الله وإبداعهِ.

إذن: لِماذا يُعْجَبُ الناسُ بالآلات والأجهزة البشرية الصُّنع ـ والتي هي بالقياس إلى أدنى وأصغرِ مخلوقٍ لله تعالى، ساذِجةٌ وبسيطة الصُّنع أياً كانت ـ، ويُرْجِعون صُنْعَها إلى صُنّاعها ويُشيدون بمهاراتهم ويُنَوِّهون بإتقانهم، ولكن لا يُعْجَبون ـ أي: الكافرون منهم ـ بمخلوقات الله ومصنوعاته التي كل منها أعظم شأناً، وأتقن صنعاً، وأكثر دِقة، بمئات بل بآلاف وبما لا يُحصى من المرات، ولا يُسَبِّحون بحمد خالِقها ومُسَوِّيها ومُتْقِنها وهاديها؟! مع أَنَّ ذلك الإنسان الذي يُعْجَبون بصناعته ومهاراته وفنونه، ليس سوى مخلوقٍ من مخلوقات الله التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، وكلُّ ما يُنتِجُها من آلات وأجهزه وصنائع، ليست سوى ثمارِ القدرات والإمكانيات الذهنية والروحية والجسمية التي وهبها له خالقه الحكيم، والنِّعَم والوسائل الخارجية التي أسبغها عليه، ووفَّرَها له ربَّه الرحمٰن الرحيمَ!!

وبهذا نختم هذا الفصل الرابع، وننتقل بإذن الله وتوفيقه إلى الفصل الخامس.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الفصل الخامس

الإيمان بربوبية الله تعالى ومالكيته

ولتوضيح مفهوم الإيمان بربوبية الله ﷻ ومالكيَّته، لنتأمَّلْ مجموعةً من آيات الله البيِّنات، التي تحدَّث فيها ربُّنا عن ربوبيَّته ومالكيَّته:

قال الله تبارك وتعالى:

* ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة].

* ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ...﴾ [الأنعام: ١٦٤].

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ...﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣١].

* ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ [آل عمران].

* ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف].

* ﴿...قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ...﴾ [الرعد: ١٦].

* ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٦٢﴾ [غافر].

* ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١)﴾ [يونس].

* ﴿. . . نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا (١٤)﴾ [الكهف].

* ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠)﴾ [طه].

* ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٦) وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣٧)﴾ [الجاثية].

* ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ [يونس].

* ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ [الأنعام].

* ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)﴾ [الشعراء].

* ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون].

* ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران].

***

ونأخذ من هذه الآيات، المباركات خمس حقائق، ونُخصِّص لكل منها مبحثاً مُستقلاً، وهذه هي عناوين المباحث الخمسة:

١) الرّب سبحانه هو الخالق المُدبِّر المُحي المُميت الرازق، المالك لكل شيء والهادي لكل شيء.

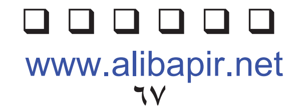
٢) ربوبية الله تعالى، تُوجِبُ تَوْحيدَهُ في ربوبيَّته وألوهيَّته.

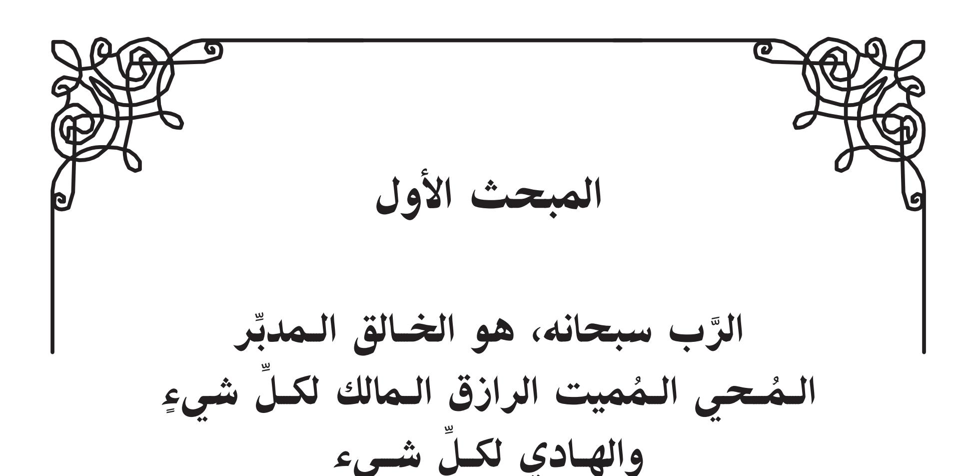
٣) إن اتِّخاذَ الله تعالى وحده ربّاً، سببٌ لنزول الملائكة الكرام وإلهاماتهم الخَيّرَة.

٤) الإيمان بربوبية الله تعالى، وإن كان الإنسانُ مجبولاً عليه، ولكنَّ النَّظَر والتأمُّلَ في آياته الخَلْقية (في الأنفس والآفاق) والتدبّر في آياته الأَمْرية، يَزيدُه قوةً ورسوخاً.

٥) مالكية الله تعالى مُتَفَرِّعَةٌ عن ربوبيَّتِهِ، وهي كالربوبيَّة شاملة للوجود كله.

ونبدأ بالمبحث الأول:





المبحث الأول

الرَّب سبحانه، هو الخـالق الـمدبِّر الـمُـحي الـمُميت الرازق الـمالك لكـلِّ شيءٍ والهـادي لكـلِّ شـيء

بما أنَّ كلامَ الله المبارك يُصدِّق بَعْضهُ بعضاً، ويُفسِّرُ بَعْضهُ بعضاً، ويُوضِّحُهُ، فَلْنتأمَّلْ بعض آيات الله البيِّنات، للتعرّف على تعريف (الربّ) ومفهومها.

وقصدي من التعريف بربوبية الله عزَّ وجل، هو أنَّ كلمة الـ(ربّ) قد استعملت في اللغة العربية، وفي كتاب الله نفسه أيضاً لغير الله تعالى، وربَّما ظنَّ بعضُ الناس: أن معنى الكلمة عند استعمالها لله تعالى، هو نفسه عند استعمالها لغيره، ولا شك أنَّ هذا غَلَطٌ فظيعٌ، لأن الله تبارك وتعالى لا يُشْبِهُ أحداً ولا شيئاً في شيء من صفاته وأسمائه وشؤونه، كما قال تعالى: ﴿...لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ...﴾ [الشورى: ١١]، وهذا شاملٌ لكل ما يتعلَّق بالله تعالى، ذاتاً واسماً وصفةً وشأناً وفعلاً، من غير استثناء.

إذن:

إذا كان المعنى المعهود المُتَبادِر إلى الذِّهن لكلمة الـ(ربّ) عند استعمالها لغير الله، هو:

السيِّد، المالك، المُربِّي، المتولِّي للشؤون، المنعِم، المصلح[1]، كما يدل عليه قوله تعالى على لسان (يوسف) عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿...إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ...﴾ [يوسف: ٢٣]، والمقصود به هنا هو زَوْجُ المرأة الذي اشتراه ووصَّى به زوجته، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ...﴾ [يوسف: ٢١]، وكذلك يدل عليه قولُه تعالى على لسان (يوسف) أيضاً: ﴿...فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٠]، حيث اقتنع ذلك النبيُّ الحكيمُ الكريمُ، أنْ يستجيب لأمر المَلِكِ الذي أرسل إليه رسولَه كي يَخْرُجَ من السِّجن، ولكن طالب بالتحقيق في قضيته، والتُّهْمَةِ التي أُلْصِقت به زُوْراً، وذلك لِيَخْرُجَ عندما يخرج من السِّجن طاهِرَ الذَّيل، ومُبَـرَّءاً من التُّهَم والظنون، وَلَنِعْـمَ ما فَعَلَ نبيُّ الله الحكيم ﷺ!

وقد استُعْمِلَتْ كلمةُ (ربّ) في الآية مرتين، في الأولى يُقْصَدُ بها المَلِكُ، ولهذا أضافه (يوسف) عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الـمُرْسَلِ الذي خاطَبَهُ: [﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ﴾]، ولكن في الثانية يُقْصَدُ بها ربُّ العالـمين، ولهذا أضافه يوسُفُ إلى نَفْسِهِ ووصفه بالعليم: [﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾].

وكذلك يَدُلُّ عليه قَوْلُ يوسف مُخاطباً رفيقَيْهِ في السِّجْنِ: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف]، ويقصد بالأرباب المتفرِّقين: الملوك والسلاطين والرؤساء الطواغيت الحاكمين بغير شريعة الله، والمدَّعين للربوبية والألوهية على الناس ظُلْماً وبُهْتاناً.

أجل إذا كان معنى كلمة (ربّ) عند استعمالها للبَشَرِ هو ما ذكرنا، فإنه مِنَ الجَليِّ البيِّن، أن معناها ومدلولَها عند استعمالها لربِّ البشر سبحانه وتعالى يختلف.

---

(١) الربُّ: اسم الله تعالى. ولا يُقالُ الربُّ في غير الله إلّا بالإضافة، والمالك والسيّد والمربِّي والقيِّم والمُنعِمُ والمدبِّر والمصلح، ج: أرباب ورُبوب. المعجم الوسيط، ص ٣٢١.

إذ لا شك أن كلمة (ربّ) عندما يوصَفُ بها الله تبارك وتعالى، تتضمَّن معاني ومفاهيم كثيرة، لأن ربوبية الله تعالى تشتمل على جميع صفاته وشؤونه وأفعاله الَّتي تتعلَّق بمخلوقاته، وذلك لأن الله تعالى كما أنه هو خالق المخلوقات جميعاً بلا استثناء، كذلك هو رَبُّها جميعاً، وسَنُحاولُ تلخيص المعاني والمفاهيم الأساسية لربوبية الله الشاملة، وفي ضوء الآيات التي أدرجناها، فيما يلي:

١ ـ استحقاقُهُ لكلِّ المحامد، كما في الآية (٢) من (الفاتحة)، وآيات أُخَرَ كثيرة جداً.

٢ و٣ ـ خَلْقهُ السموات والأرض واستواؤه على العرش، كما في الآية (٥٤) من (الأعراف) والآية (٣) من (يونس) وغيرها من السور والآيات المباركة.

٤ ـ تدبيرُ أمر الخلق وتصريف شؤونه، كما في الآية (٣) من (يونس) وغيرها.

٥ ـ تسخيرُ الشمس والقمر والنجوم بأمره، كما في الآية (٥٤) من (الأعراف) وغيرها.

٦ ـ حَصْرُ الخَلْق والأَمر بيده، كما في الآية (٥٤) من (الأعراف) وغيرها.

٧ ـ إِدرارُ الرزق من السماء والأرض للناس، كما في الآية (٣١) من (يونس) وغيرها.

٨ ـ مالكيَّتُهُ للسَّمع والأبصار، كما في الآية (٣١) من (يونس).

٩ ـ إخراجُ الحيِّ من الميِّت والميِّتِ من الحيِّ، كما في الآية (٣١) من (يونس) وغيرها.

١٠ ـ كونُ الهداية مُنْحصرةً بيده وحده، كما في الآية (٧٨) من (الشعراء).

١١ ـ كونه مَصْدَر الشفاءِ والإبراءِ من المرض، كما في الآية (٨٠) من (الشعراء).

١٢ ـ إمتلاكُهُ الإحياءَ والإماتة حصراً، كما في الآية (٨٩) من (الشعراء) وغيرها.

١٣ ـ كونه بيده وحده مَغْفِرَةَ الذنوب، كما في الآية (٨٢) من (الشعراء) وغيرها.

١٤ و١٥ ـ إعطاءُ الوجود لكل مخلوقٍ، وتوجِيهُهُ نحو تحقيق الغاية التي خلق لها، كما في الآية (٥٠) من (طه).

١٦ ـ ربوبيَّتُهُ للسموات والأرض والعالمين كلِّهم، كما في الآية (٣٦) من (الجاثية).

١٧ ـ ربوبيَّتُهُ لِكُلِّ شيءٍ، كما في الآية (١٦٤) من (الأنعام) وغيرها.

١٨ ـ تفرُّدهُ بالْألوهية، كما في الآية (٦٢) من (غافر) وغيرها.

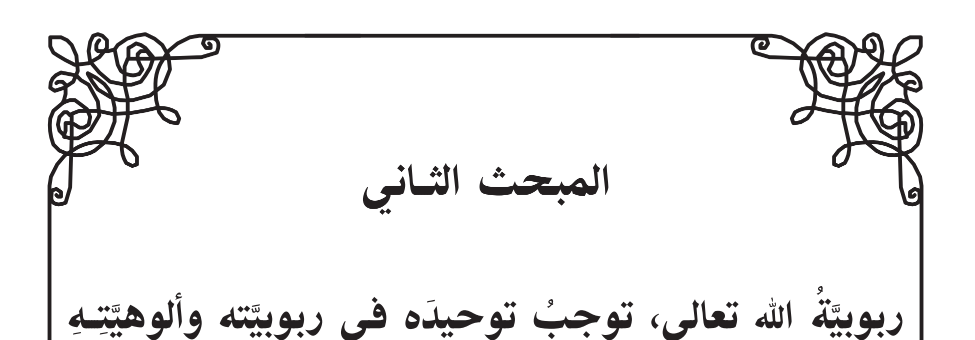
١٩ و٢٠ ـ وجوبُ إفرادِه بالعبادة والتقوى، كما في الآيتين (٣١ و٣٢) من (يونس) وغيرها.

٢١ ـ عدم امتلاك أحدٍ الشفاعَةَ إلّا بعد إذنهِ، كما في الآية (٣) من (يونس).

٢٢ ـ كونه هو الربَّ الحقَّ وَحْده ولا ربَّ سواه، كما في الآية (٣٢) من (يونس) والآية (٦٤) من (الأنعام).

هذه هي المعاني المفاهيم الأساسية (أو جُلُّها) لربوبية الله تبارك وتعالى، وكما رأينا: فإن مفهومَ ربوبية الله تعالى، يختلف عن مفهومها عند استعمالها لغيره سبحانه على سبيل التجوُّز، وإلّا فلا ربَّ غيره، سبحانه بالمفهوم الحقيقيِّ لكلمة الربّ.





المبحث الثـاني

ربوبيّةُ الله تعالى، توجِبُ توحيدَه في ربوبيّته وألوهيّتِـهِ

نعم إنَّ ربوبيةَ الله تعالى بالمفهوم الذي بيّنـاه، تستلزم اتخاذَهُ وحده ربّاً وإلـهاً، واتخاذُ غيره سبحانه ربّاً، يُعْتَبَـرُ إشراكاً به في ربوبيتـه، كما أن اتخاذَ غيـره إلهاً ومعبوداً، يعتبـر شركاً به في ألوهيَّتـه، سواء بسواء، بل الشرك به في ألوهيَّته يعتبر إشراكاً به في ربوبيَّتـه أيضاً، وذلك لأن ألوهيَّتـه سبحانه وتعالى مُسْتَنَدِةٌ إلى ربوبيَّتـهِ ومتفرِّعةٌ عنها، أي أن الله تعالى (إله) لأنه (ربّ)، ويجب إفرادُهُ فـي العبادة، لأنه مُنْفَـرِدٌ في ربوبيَّتـه جلَّ شأنه، وقبلها في خالقيتـه.

والشرك بالله في ربوبيَّتـه، يَحْصلُ بإشراكِ أَحَدِ مخلوقاته في إحدى خصوصيات ربوبيَّته أو أكثر، ومن خصوصيات ربوبيَّتـه كما أدرجناهـا سـابقاً:

إستحقاقُه سبحانه لأقصى الحمد والثناء، وتفرُّدُه بالخلق والأمر، وتصرُّفُهُ المطلق في شؤون الخلق وتدبيـره الحكيم له، وهدايته لمخلوقاته كلِّها وتوجيهها لتحقيق الغايات التي أَبْدَعَها لها، وتَفرُّده بالألوهيَّـة، ووجوبُ إفراده بالعبادة والتقوى، وكَوْنِه وحده ربَّ كلِّ شيءٍ ومالِكَهُ، وكونه وحده بيده الرزق والإحياء والإماتة، والشفاء، والشفاعة، والمغفرة...الخ.

وبنـاءً عليـه:

مَن نَسَبَ وأَسْنَدَ شيئاً من هذه الخصوصيات إلى غير الله تعالى، فقد جعل ذلك الغير شريكاً لله تعالى في ربوبيَّته، من ذلك الجانب، أو من تلك

الجوانب، ولهذا اعتبر الله الحكيمُ اليهودَ والنصارى مُتَلبِّسين بالشرك بالله، لأنهم:

أولاً: نَسَبوا بُنُوَّة كلّ من عُزير وعيسى عليهما السلام إلى الله تعالى: كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة].

ثانياً: إتَّخذوا علماءَهم وعُبّادهم أرباباً من دون الله، بإتِّباعهم لهم في التشريع والتحليل والتحريم: كما قال تعالى عنهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

الأحبار جمع (حِبْر)[1] وهو بمعنى العالم في الدِّين، والرُّهْبان جمع (راهب) وهو العابد[2]، المنقطع للعبادة، والأرباب جمع (ربّ)، والمقصود بقوله تعالى: [﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾] هو اتِّباعُ اليهود والنصارى ـ أي جمهورُهم وسوادُهم ـ لعلمائِهم وعبّادِهم الذين كانوا يتصرفون في دين الله الـمُنـزَّل على موسى وعيسى عليهما السلام، والمُتَمَثِّل في التوراة والإنجيل، حسب هواهم، فَيُحَلِّلون لهم الحرام، ويُحَرِّمون عليهم الحلال، وكانوا في كل ذلك يخضعون لهم ويستسلمون، ويُنَفِّذُون أوامِرَهم ونواهِيَهُم اللاّشرعية.

والدليل على أن المقصود بالجملة القرآنية الشريفة هو ما ذكرنا:

أنَّ المقصودَ بكلمة (ربّ) والقاسم المشترك بين مفهومَيْها، عندما

---

(١) الحِبرُ بالكَسْرِ: المِدادُ الذي يُكْتَبُ به، والحِبْرُ: العالِمُ والجَمْعُ: أَحبار، والحَبْر بالفتح لُغةٌ فيه، وجمعه: حُبُور مثل: فَلس وفُلوس. المصباح المنير، ص ٦٥.

(٢) الراهب: عابِدُ النَّصارى والجمع: رُهبان وربما قيل: رهابين، وترهَّب: انقطع للعبادة. المصباح المنير ص١٢٦.

تستعمل لله تعالى، وعندما تستعمل لغيره هو: الحكم وتولِّي الأمور والتشريع والتحليل والتحريم، فلا معنى إذن لاتّخاذ اليهود والنصارى، علماءَهم وعُبّادَهم (أرباباً) من دون الله، إلّا إسنادَهم إليهم أمورَ دينهم، ودنياهم وإطاعَتَهم واتِّباعَهُم لهم في أمرهم ونهيهم، إذْ ليس لكلمة (ربّ) معنىً، عند استعمالها للبشر، سوى كون الشخص الذي اعتبر ربّاً، آمِراً وناهياً ومشرِّعاً ومُحلِّلاً ومُحرِّماً، ثم مطاعاً ومُتَّبَعاً في كلِّ ذلك، مِنْ قِبَلِ الذين اتخذوه ربّاً.

وبالإضافة إلى دلالة الآية نفسها، فقد بيَّن رسولُ الله ﷺ هذه المسألة بوضوح تام كما جاء في سنن (الترمُذي) ومسند (أحمد) وغيرهما من كتب السنة: (أنَّ (عدي بن حاتم الطائي) جاء إلى النَّبيِّ ﷺ قبل أنْ يُسْلِمَ وفي عُنُقِهِ صَليبٌ مِنْ فِضَّةٍ، وهو ﷺ يقرأ قولَـهُ تعالـى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة]، فقال له (عدي): يا رسول الله! إنـهم لم يعبدوهم! فقال له رسولُ الله ﷺ: «**بلى، إنـَّهم حرَّموا عليهم الحلال، وأحَلُّوا لهم الحرام، فاتَّبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»[1].

والدليل على أنَّ اتِّباعَ الناس للطواغيت الذين يشرِّعون لهم حسب أهوائهم، فيُحِلُّون لهم ويُحَرِّمون عليهم كما يشتهون، يعتبر عبادة لهم من دون الله، هو أن الله تعالى قال في التعقيب على فِعْلَةِ أهلِ الكتاب تلك: [﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾] فاعتبر تلك الفِعْلَةَ منهم إشراكاً بالله في أُلوهيَّتِهِ، وعبادةً منهم لتلك الأرباب، ولهذا أكَّد سبحانه بِأَنَّه لم يَأْمُرْهم في دينه الحق المتمثِّل في التوراة والإنـجيل الحقيقيين، إلّا بعبادة الله الإله الحق الواحد الأحد، ثم

(١) رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٣٥٩٥) وَقَالَ: غَرِيبٌ، وَحَسَّنَهُ الألباني في (صحيح الترمذي)، (٣/ ٥٦) وَرَوَاهُ الطَّبَرِي في تفسيره، أنظر: (مَحاسن التأويل) للقاسميِّ، ج٨، ص١٨٥، و(المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير)، ص٥٦٣.

أعلن توحيده في أُلوهيَّتِـهِ: [﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَـٰنَهُۥ﴾] ونزَّه نفسه عن إشراكهم: [﴿سُبۡحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾].

ثـالثاً: عَبَدوا غير الله تعالى، والذي تمثَّل ـ أي ذلك الغير ـ في كلٍّ من عُزَيرْ وعيسى، واعتبارِهما ابنين لله تعالى، وعلمائِهم وعُبّادِهم المحرِّفين لدين الله عن علمٍ أو عن جهلٍ:

ومن الواضح أَنَّ عبادَةَ اليهود والنصارى لـ(عزير) و(عيسى) عليهما السلام، إنَّما تمثَّلت في إسناد بعض صفات الربوبيَّة وشؤونها إليهما، وتقديم شعائر التعبّد لهما، والتي يتمثّل في الحب والتعظيم والإجلال والخشية والتوكّل، كجذور قلبية للشعائر، ثم في الدعاء والإستغاثة والنَّذْرِ والذبح والسجود والركوع...الخ.

أَجَلْ، كانت عبادة اليهود والنّصارى لـ(عزير وعيسى) عليهما السلام، ـ والتي استحدثت بعد وفاة عزير ورفع عيسى ـ كانت على الأكثر متمثلة في جانب: الشعائر التعبّدية.

ولكن عبادتهم لعلمائهم وعبّادهم ـ والذين كانوا معاصرين لهم ـ تمثَّلت في طاعتهم واتِّباعهم لهم في تشريعهم وتحليلهم وتحريمهم، وهذا يعني أن عبادة اليهود والنصارى لعلمائهم وعبّادهم المحرِّفين لدين الله، تمثلت على الأكثر في جانب: الشرائع.

وبما أن الله تعالى وَصَمَ أهلَ الكتاب عموماً ـ أي بكلا طَرَفيهم اللَّذَيْن تجسَّد فيهما الشركُ الشعائريُّ والشرائعيُّ ـ بأنهم اتخذوا أرباباً من دون الله وعبدوا غير الله تعالى، فهذا يعني أن كلَّ من أشرك بالله في مجال الشعائر، بإسناد بعض صفات وشؤون الربوبية الخاصة بالله تعالى، لغير الله، أو تقديم بعض شعائر التعبُّد لغير الله تعالى، أو أشرك به في مجال الشرائع بِاتِّباع وإطاعة الرؤساء الطواغيت الذين يشرِّعون ويُفْتون للناس حسب هواهم، أجَلْ، كلُّ من أشرك بالله في شيء من هذين المجالين، فهو في حكم اليهود والنصارى المنحرفين والمحرِّفين لِدين الله تعالى.

هذا وقد أمر الله تعالى نبيَّه الخاتم ﷺ أن يدعو أهلَ الكتاب إلى

ثلاثة أُمور، تعتبر محتوى وجوهر رسالات الله وشرائعه كلِّها، من لدن آدم إلى النبيّ الخاتم عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران].

كما نرى:

أمر الله تعالى نبيَّه الخاتم أن يدعو أهل الكتاب إلى:

أولاً: عبادة الله وحده، وعدم تقديم أي نوعٍ من أنواعها لغيره: [﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾].

ثانياً: عدم إشراك أيِّ شيءٍ بالله تعالى: [﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾]. وهذا يشمل الإبتعاد عن كل أنواع الشرك، سواءٌ في مجال خالقية الله وربوبيَّتِهِ ومالكيَّتِهِ، أو في مجال أسمائه وصفاته، أو في مجال ألوهيَّته وولايته وحاكميته، وذلك لأن كلمة (الشرك بالله) وإن كان مفهومُها المتبادِرُ إلى الذهن هو الشرك بالله في العبادة، ولكنَّ مفهومَها الحقيقيَّ عامٌ، ويشمل كلَّ الجوانب التي تشكِّل خصوصيات الله تبارك وتعالى.

ثالثاً: عدم اتخاذ الناس بعضُهُم بعضاً أرباباً من دون الله، أي ألّا يَتَّبعَ الناسُ رؤساء وحكاماً وطواغيت يحكمون بغير ما أنزل الله، ويشرِّعون لهم ما لم يَأْذَنْ به الله: [﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾]، وهذا من باب (ذكر الخاص بعد العام) لأن كُلاً من قوله تعالى: [﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾] وقوله: [﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾] يتضمّنان عدم جواز اتخاذ غير الله ربّاً أي سيِّداً وحاكماً (مُشرِّعاً) ومُتَولِّياً للأمور ومُدَبِّراً مُطْلقاً[1]، وذلك مثل

(١) كلمة (مطلقاً) قيد على كلّ من: (سيداً وحاكماً ومتولياً للأمور ومُدَبِّراً) وذلك لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ونوّابهم من الخلفاء والأئمة والعلماء، يعتبرون سادة وحكاماً وولاة أمور ومُدَبِّرين لأمور المسلمين، ولكنهم ليسوا مُطْلَقي اليد، بل مُقَيَّدون بشريعة الله وأحكامها القطعية، أما السيِّد المطلق، والحاكم المطلق، والولي المطلق، والمدبِّر المطلق، فهو الله وحده.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة]، إذ من الواضح أن جبريل وميكال يشملهما مفهوم كلمة (وملائكته)، ولكن الله خصَّهما بالذكر تنويهاً بِشأنهما.

وقوله تعالى في آخر الآية: [﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾] دليل على أنّ المسلمَ الحقَّ، هو الذي يُجَرِّد عبادَتَهُ لله، ويتجنَّب كلَّ أنواع الشرك، ولا يَتَّخِذُ أحداً رباً من دون الله، باتِّباع دينه ومنهجه، أو حتى حكمٍ وقانون واحدٍ من أحكامِهِ وقوانينه!

وهناك أدلة كثيرة في كتاب الله على أن تشريع الدين (أي الأمر والنهي والحلال والحرام) للناس يعتبر ادِّعاءً للربوبية والألوهيَّة عليهم، وأنَّ الذين يطيعون أولئك المشرِّعين الطواغيت وَيتَّبِعونهم، يُعْتبَرون مشركين بالله تعالى، بالإضافة إلى الآيات التي استشهدنا بها، ولكن نكتفي منها بذكر ثلاثة أمثلة أخرى فحسب، لأن هذا الموضوع سَنَطْرُقُه فيما بعد في أكثر من موضِع بإذن الله تعالى.

قال الله سبحانه وتعالى:

* ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ...﴾ [الشورى: ٢١].

* ﴿...وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

* ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف].

١) أما آية الشورى، فَيُعْلِنُ فيها ربُّ العالمين وأحكمُ الحاكمين تبارك وتعالى متسائلاً سؤالاً استفهامياً إنكارياً، فيقول:

أَوَ للكفار والمشركين شركاء (رؤساء) يضعون لهم الدِّين الذي لم يأذن

به الله؟! فيُسمِّي سبحانه الطواغِيتَ الواضعين للأديان والمناهج، أو القوانين والأحكامَ المخالِفَةَ لدين الله تعالى، (شركاء) أي شركاء لله تعالى ـ بزعم أتباعهم المشركين ـ في ربوبيَّته وألوهيَّته!

وبناءً عليه: فكلّ من يَضَعُ دِيناً (أي منهجاً ونظاماً) لحياة الناس كلياً أو جزئياً ـ وذلك بسنِّ بعض القوانين المخالفة لدين الله وأحكامه القاطعة الواضحة ـ، فهو يعتبر مدَّعياً لشيءٍ من الربوبيَّة والألُوهيَّة اللّتَيْن اختصَّ الله تعالى بهما، ثم كل من يَتَّبِعُهُ في تشريعه ذلك، ويلتزم بدينه ومنهجه الموضوع الوضيع، فهو يعتبر مشركاً بالله العظيم، لأنه اتخذ غير الله ربّاً وإلهاً ومعبوداً.

وجدير بالذكر أن أي منهج ونظام يُحدِّدُ للناس التصوّرات والقيم والموازين، أو الحلال والحرام والأوامر والنواهي أو الشعائر، أو يَضَعُ للناس حتى ولو حكماً وقانوناً واحداً، ممّا يخالف قطعيات الدين الحق وأحكامه الواضحة، فهو ـ أي ذلك المنهج والنظام ـ يعتبر ديناً كلياً أو جزئياً، مخالفاً لدين الإسلام، والمُلْتَزِمُ به يعتبرُ مُنْخَرِطاً في سِلْك دينٍ غير دين الله تعالى، وإنْ صلَّى وصام وزعم أنه مُسلمٌ!!

وتأسيساً على ما مرَّ ذكره، نقول:

إن كلاً من: العلمانية (اللاّدينية)، والليبرالية، والإشتراكية، والرأسمالية، والعولمة[١]... ألخ، تعتبر ديناً، والمعتقد بها والملتزم بها يعتبر متديِّناً بغير دين الله الحق، وقد وضَّحنا مفهوم كلمة (الدِّين) في الفصل الأول من الباب الأول فلا نعيده هنا، وسنعود اليه مرةً أخرى في الفصل الثالث من الباب الثالث ـ أي الكتاب الحادي عشر من هذه الموسوعة ـ.

٢) وأما آية (الأنعام) فَيُوَضِّحُ فيها الله تبارك وتعالى مخاطِباً أهلَ الإيمان، بأنهم إذا ما أطاعوا المشركين الذين يوسوس إليهم الشياطينُ

(١) في جوانبها المتصادِمَة مع الشريعة وليس بإطلاق..

بالأفكار والتصورات والتصرفات الشركية والكفرية، فهم يعتبرون خارجين عن دائرة دين الله الحق، ويُوْصَمُون بوصمة الشرك وينخرطون في سلكهم: (وإن أطعتموهم إنكم لَمُشْرِكون).

٣) وأما آيتا (يوسف) فيبيِّن فيهما ربُّ العالمين على لسان نبيِّه (يوسف) عَلَيْهِ السَّلَامُ الحقائق الآتية:

١ ـ عدم إمكان التسوية بين الله تعالى الواحد القهّار وهو الرَّبُّ الحق، وبين الحكام الطواغيت المتفرِّقين الذين يتخذهم الجُهّال المخدوعون أرباباً لهم، أي أسياداً ورؤساء وحكاماً: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩﴾ [يوسف].

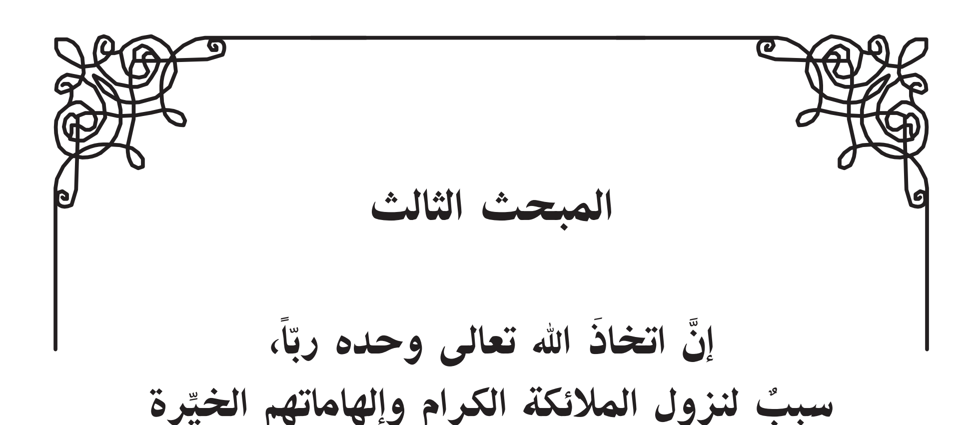
٢ ـ إنَّ كل مَنْ يَتَّخِذهم الجُهّالُ الضعفاءُ المخدوعون من الناس، أرباباً وآلـهة من دون الله تعالى ـ وذلك بخضوعهم واستسلامهم المطلق لهم، وتقديم ولائهم المطلق لهم، واتّباعِ أديانهم وأنظمتهم وقوانينهم الجاهلية ـ ليسوا سوى أسماءٍ مجرَّدة من غيرِ مُسمّيات، وعناوينَ جوفاء من غير محتويات، اصطلح عليها المخدوعون من السابقين واللاحقين، ولا يمتلكون الشرعية لأن الله تعالى لم يؤيِّدْهم من عنده ببيِّنة أو برهان، كما أيَّد عباده الأخيار من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكما يؤيِّد نوّابَهم وورّاثَهم الصادقين: [﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾].

٣ ـ إنَّ كون الحكم (التشريع) منحصراً في الله تعالى هو نفسه معنى: العبادة لله وحده وعدم الإشراك به: [﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾]، فلا يكون الإنسان إذن عابداً لله وحده وموحِّداً غيـر مُشْركٍ بربِّه، إلّا عندما يُجَرِّد خضوعَه واستسلامَه وولاءَهُ واتِّباعَهُ لحكم الله وشرعه، من غيـر أن يَخْلُطَ به شيئاً آخر، في قليل أو كثيـر.

٤ ـ إنَّ كونَ الإنسان عابداً لله من غيـر شريك، وخاضعاً لدينه وحكمه من غير تخليط أو تلفيق، هو التديُّن الصّحيحُ الوحيدُ الذي يرضاه تعالى ولا يرضى سواه: [﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾].

٥ ـ وإِن غفلة الناس عن تلك الحقيقة العظيمة لا يُضيرُها شـيئاً، فالحقُّ حقٌّ وإن جهله الجاهلون، كما أن عدم رؤية العُميانِ للشمس لا ولم يقلِّل من حقيقتها الساطعة شيئاً: [﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾].





المبحث الثالث

إنَّ اتخاذَ الله تعالى وحده ربّاً، سببٌ لنزول الملائكة الكرام وإلهاماتهم الخيّرة

وهذه الحقيقة مُصرَّحٌ بها في الآيتين (٣٠ و٣١) من (فصِّلت)، وهذا النزولُ للملائكة الكرام على أهل الإيمان الربّانيين المستقيمين ـ حسب دلالة السياق وظاهر الألفاظ ـ، إنَّما هو في الحياة الدنيا، لأن الله تعالى أخبر أن أولئك الأكارم الأطهار، يقومون من خلال نزولهم المذكور، بِطَمْأَنَةِ المؤمنين وإزالَةِ الخوف والحُزْنِ عنهم، وتَبْشيرِهم بالجنة، وهذا لا يكون إلّا في الدنيا، لأن الإنسان أياً كان، بعد خروج الروح من جسده، تنكشف له الأمور، ويعرف حاله ومآله، كما قال تعالى مخاطباً للإنسان الكافر بعد إماتته إيّاه ونزع روحه: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق].

وقولُ الملائكة: [﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾] دليلٌ واضح على أن ذلك النزولَ إنّما هو في الحياة الدنيا، وإلّا فلا مبرِّر لقول الملائكة بعد مُضيِّ الحياة الدنيا: [﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾] ولا جَدْوى منه أصلاً، وحاشا الملائكة الكرام، أن يقولوا ما لا مُبرِّر له ولا جدوى منه.

وقد ذكر الله تعالى أن تلك الإلـهامات الملكية، تحتـوي على ثلاثـة أشياء، وهي:

١) إزالـة الخـوف [﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾]، والخوف هو انزعاج القلب بسبب توقّع مكروه في المستقبل.

٢) إزالـة الحـزن [﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾]، والحزن هو اغتمام القلب، لـما يتعلق بـما مضى وفات.

٣) التبشـير بالجنّة [﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾].

إذن: تحتوي إلـهامات الملائكة الخَيِّرة لأهل الإيـمان والإستقامة، عند نزولهم عليهم، على أفضل وأوجب ما يحتاجه الإنسانُ في حياته الدنيوية، لأن الإنسان إنـما هو بروحه وقلبه إنسانٌ[1]، ولا شيءُ يُعَتِّمُ روحَ الإنسان، ويُعمي قلبَـهُ، ويَشُلُّ إرادتَهُ، مثل الخوف والحزن، إذ انشغال البال سَلْباً بالـماضي والآتـي، يجعل الإنسانَ لاهيـاً عن حاضره، ومكتوفَ اليدين أمامه، ومن البيِّن أن الحاضِرَ قبل مجيئه وحضوره كان مستقبلاً، وبعد مُضيِّهِ يُصبحَ ماضياً، لِذا فانشغال الإنسان عنه، يجعله يخسر عمره كله!

ولـهذا فأوَّل ما يقوم به الملائكة الكرام، هو إزاحَةُ غيومِ الخوف الـوهـميِّ الـذي لا مبـرِّر لـه، وذلـك مثـل الخـوف من الـموتَ والـرزق والمرض...الخ، ثـم إزالة رُكام الحُزْنِ عن قلوبهم، والمقصود بالحُزنِ هنا هو الغَمُّ والأَسَفُ والإنزعاج الذي يجعل الإنسان يائساً بائِساً عابِساً تعِساً، بسبب أشياءَ فاتَتْهُ في الماضي الذي لا يمكن إعادته بحال، ولكنَّ الحاضِرَ الموجودَ الذي يفوتُ الإنسانَ، وَيَضِيعُ عنه مِنْ جَرّاءِ انـهماكِهِ وانشغالِهِ السَّلْبـي بالماضي والمستقبل، بِوُسْعِ الإنسان، إذا ما استثمرهُ بِجدّ ونشاط واهتمام ـ أن يعوِّض به عمّا فاتَـهُ في الـماضي، ويجعله مقدِّمة وتـمهيداً لـما سيأتـي!

---

(١) كما قال الشاعر:

عـليك بـالـروح فـاسـتكْـمِـلْ فـضـائِـلَـها ... فـأنـت بـالـروح لا بـالـجـسـم إنـسـانُ

ثم بعد إزاحة غيوم الخوف من التوقُّعات المكروهة، وإزالةُ ركامِ الحُزْن عن قلوب أهل الإيمان والإستقامة، يُدْخِلون السُّرورَ في قلوبهم، ويفرّحونهم بتبشيرهم بالجنّة التي وعدهم ربهم بها، في كتابه الذي لا يأتيه الباطِلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد.

وهذا يعني أن الملائكة الكرام بعد ما يُنَظِّفون قُلوبَ أهلِ الأيمان من أوساخ الخوف والحزن الناتِجَيْنِ عن التعلّق بالدنيا وزيادة الإهتمام بها، يَعودون فَيُحَلُّونَها ويُطَيِّبونَها بالسرور والفَرَحِ بثواب الله ورضوانه المتجسِّدين في جنّاته التي أعدَّها لهم، وبالنتيجة: ينتشلُ الملائِكةُ الكرامُ بإلهاماتهم الملكيَّة النورانية، أَهْلَ الإيمان من بئر الحياة الأرضية، ويرفعونهم إلى قِمَّة التعلُّق بالحياة الأخروية الأبدية.

وجديرٌ بالذكر أن نزولَ الملائكة الكرام، وتطميناتهم المتمثِّلَةِ بإزاحَةِ الخوف، وإزالَةِ الحزن، وإدخالِ السرور والتبشير، كل هذا إنَّما يتم سِرّاً وخُفْيةً وليس علانية، أي عن طريق الإلهام والإلقاء في القلب، مثله في ذلك مثل وسوسة الشياطين إلى أوليائهم الكفار، كما قال تعالى: ﴿...شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ...﴾ [الأنعام: ١١٢].

ثم كما أن الإسراف في الكفر والمعاصي واتِّباع الشهوات، يَزِيْدُ أهلَ الكفر والمعصية قُرْباً من الشياطين، ويجعلهم أكثر استعداداً لتلقي وساوسهم وتزييناتهم، كذلك في الجهة المقابلة، كلما ازداد أهلُ الإيمان إيماناً وطاعةً، وتقوى واستقامة، كلّما ازدادوا من الملائكة الكرام قرباً، ولإلهاماتهم الخيِّرة نيلاً، سواءٌ في اليقظة في صورة الإلهام والإلقاء في القلب، أو في المنام من خلال الرؤى الصالحة، كما قال تعالى بهذا الصَّدد: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾: [يونس]. وقد فَسَّر

رسولُ الله ﷺ كلمة (البشرى) بالرؤيا الصالحة[١]، وسمَّى ﷺ ثناءَ الناس على المَرْءِ: (عاجل بشرى المؤمن)[٢]، ولا شك أن مقصود نَبِيِّ الله الكريم ﷺ هو أن الرؤيا الصالحة ممّا يشملها مفهوم البشرى من مصاديق.

وكلاهما ـ أي الإلهام والرؤى ـ، مجرَّبٌ ومشهودٌ ومعروفٌ لأهل الإيمان، كلٌّ بحسب ما عنده من إيمان وتقوى.

وخلاصة القول في نزول الملائكة على المؤمنين الربانيِّين المستقيمين على جادة الشرع، هي:

أنه كلما ازداد المؤمنون كمالاً ورسوخاً في إيمانهم، وجدّيةً في طاعة ربهم، كلّما ازدادوا أهلية القُرْبِ من ملائكة الله الكرام والنَّيل من إلهاماتهم، التي يُفِيضونَها على قلوب أهل الإيمان والتقوى، كل بحسب إيمانه وتقواه، ثم يُحَلِّقُ الملائِكَةُ المُلْهِمون بأوليائهم المؤمنين المتقين، في سماء القرب من الله تعالى والفَرَح بفضله ورحمته وكرمه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]، حتى يبلغوا بهم حداً، ينسون الدنيا وما فيها من خوف وأحزان وهموم وتفاهات وسفاهات، ويُصْبِحُ هَمَّهم الوحيدَ وشُغْلَهُم الشاغِلَ، هو إرضاءُ ربِّهم ولا شيء سواه! ولا شك أن القلب المنشغل بربِّه العظيم، حُباً وتعظيماً وإجلالاً وهيبةً وحياءً وخشيةً وإقبالاً ومُراقبة وتوكلاً وانقياداً. . .الخ، لا يَسَعُه الإنشغالُ بِسِواه، إلّا بالقدر الذي ينسجم مع ذلك الهَمِّ الأَهَمِّ المبارك وَيَخْدِمُهُ، ويَسْتَلْزِمه هو وَيَتَطَلَّبُهُ.



(١) أَخْرَجَهُ الطيالسي برقم: (٤٥٥)، وَأَحْمَد برقم: (٢١٤١٧)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٦٤٢)، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٤٢٢٥)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٣٦٦).

(٢) وهذا هو نصُّ الحديث: عن أبي ذر ﷺ قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يَعْمَلُ العَمَلَ من الخَيْر ويَحمدُهُ الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجِلُ بشرى المؤمن**» رواه مسلم: ٢٦٤٢.



المبحث الرابع

الإيمان بربوبية الله تعالى، وإن كان الإنسان، مجبولاً عليه، ولكنَّ النَّظَرَ والتأمُّلَ في آياته الخَلْقية (في الأنفس والآفاق) والتدبُّرَ في آياته الأمرية، يَزيدُهُ قوةً ورسوخاً

وقد ذكرنا هذه الحقيقة في السّابق، ولكن لِأَهْميَّتِها الكبرى والتي تتجلّى في اهتمام كتاب الله الكثير بها، والتنويع في أساليب ذكره لها، رأينا أن نلقي عليها أضواءً أخرى، من خلال تفسير الآيات (٧٥ إلى ٧٩) من (الأنعام) والتي كثر حولها اختلافُ المفسِّرين، في كيفية تفسيرها والغاية المُبْتَغاة من ورائها.

وبما أننا قد أدرجناها من قبل فلا نعيدها هُنا، ولكن نُفسِّرها جملةً جملة في بنودٍ متدرجة.

قال الله سبحانه وتعالى متحدِّثا عن عبده وخليله إبراهيم (عليهم الصلاة والسلام):

١ ـ [﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾]. أي: وبهذه الصورة ـ التي قصَّها الله علينا ـ نُري إبراهيمَ من خلال نظره وتأمُّلِهِ في مخلوقات الله العُلْويّة والسُّفلية، المُلْكَ الواسِعَ المتمثل في السموات والأرض، ثم يبيِّن سبحانه حكمة تلك الإراءة بقوله:

[﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾] أي: حتى يصل إبراهيمُ إلى اليقين في أمر ربِّه عزَّ وجلَّ، واليقين هو العلم الثابت الرّاسِخُ الذي لا تزلزل فيه ولا تردّد[1]، ولا يَصِلُ إلى هذا الحدِّ، إلّا بعد أن يتقبّلَهُ القَلْبُ ويجعله اعتقاداً له.

ويبدو من سياق الآيات ومن قوله تعالى [﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾] أن ذلك النظر والتأمل الذي يَحْكيهِ ربُّ العالمين عن خليله، إنما كان قبل النبوَّة وقبل أن يوحى إليه وفي مُقْتَبَلِ عمره، وذلك لأن الأنبياء الذين هم في القمّة الأعلى من اليقين، ليسوا بحاجة إلى النظر والتأمل لتحصيل اليقين، كيف وقد أوصلهم إيحاءُ الله إليهم، ونزولُ جبريل والملائكة السَّفرة الكرام البررة عليهم، إلى اليقين الذي ليس بعدَهُ يقين!

ثم يَقُصُّ علينا ربُّ العزّة جلّ شأنه كيفية نظر إبراهيم في ملكوت السموات والأرض، ومِنْ ثَمَّ وصوله إلى برد اليقين، فيقول:

٢ ـ [﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾]، أي فلما ستره اللّيل وغشّاه بظلامِهِ، شاهَدَ نجماً مضيئاً (أكثر ضياءً من النجوم الأخرى بدليل أنه عيَّنه من بينها كلِّها) فقال: هذا هو ربّي الذي تَطْلبُهُ فطرتي ويُحبُّهُ قلبي!

ويبدو أن (الكوكب) و(النجم) في اصطلاح كتاب الله المُبين هُما شيء واحدٌ، والذي اصْطُلِحَ عليه الآن، بتخصيص (النجم) بالجرم السماوي المضُيءِ المُشِعِّ ذاتياً، و(الكوكب) بالجرم المُعْتَم أصلاً والمُكتَسِبِ نورَهُ من غيره، إنما هو اصطلاح عُرْفيٌّ فقط، والدليل على ذلك هو أن الله تعالى ذكر أنه زيَّن السماء الدنيا بالكواكب: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ [الصافات]، أي: الكواكب المُزَيِّنَةُ للسماء الدنيا هي النجوم نفسها، ودليل آخر هو أن الكوكب ـ بالإصطلاح العرفي ـ لا يمكن رؤيتُهُ بالليل، إلّا إذا كان عاكِساً للنور الذي يكتسبه من النجوم، مثل القمر.

وقصد إبراهيم عليه السلام بقوله: (هذا ربِّي) وإن فسَّره أكثر المفسِّرين بأنه

(١) التعريفات للجرجاني، ص ٢٥١.

ليس على ظاهره، ولكنَّ الذي يبدو لي، هو أنه يُقْصَدُ به ظاهِرُه حقيقة، وليس من باب المجاز والتورية ومُجاراةِ الخصم، وذلك بدليلين:

أولاً: هذا هو ظاهر كلامه، ولا يجوز لنا صرف الكلام عن معناه الظاهر إلّا لدليل يضطرّنا، ولا دليل هنا، اللهم إلّا استعظام عدم معرفة إبراهيم لِربِّه، وأنه لا يجوز أنْ يتصوَّر أَنَّ ربَّه جلَّ وعلا هو نجم أو قمر أو شمس! ولكن هذا ليس بشيءٍ، لأن الأنبياء عليهم الصلاة، قبل إيحاءِ الله إليهم كانوا مثل سائر الناس، من حيث عَدَمُ معرفة الإيمان، بدليل قوله تعالى لخاتم الأنبياء: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ. . .﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى].

ثانياً: لا يظهر من السيّاق أنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يحاور أو يناظر أحداً، بل الذي يبدو جَلّياً هو أنَّ إبراهيم قد أجرى ذلك الحوار مع نفسه فَحَسْبُ، أي كان حواره ذاتياً، وقوله تعالى: [﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . .﴾]. يدلُّ على ما قُلْناهُ بوضوح، إذ لو كان لإبراهيم طرفٌ ثانٍ، عند تأمّله في ملكوت السموات والأرض، لَذُكِرَ في الآية.

إذن:

طالما كان حوارُ إبراهيم المذكور حواراً ذاتياً ولا طَرَفَ ثاني له، يسقط احتمالُ أن يكون إبراهيم عليه السلام قد قَصَد بقوله (هذا ربِّي) غير ظاهره تلقائياً.

وأمّا سبب إطلاق إبراهيم عليه الصلاة والسلام قولَهُ ذلك، فهو أنه كان بناءً على اقتضاءِ فطرته وبديهة عقله، مَثَلُهُ في ذلك مثل سائر الناس، يعتقد أن هناك رباً عظيماً جليلاً له ولهذا الخلق، ولكنه كان يجهل صفات ذلك الرب الذي يعرفه بفطرته ويشعر بِظَمَأٍ عميق إليه، لذا فكلما رأى موجوداً وبدا في عينه عظيماً، ظنَّه هو، أي: إنَّ إبراهيم كان يعتقد في قرارة نفسه، أن هناك ربّاً ومالكاً لهذا الخلق، ومن ضمنه نفسه هو، فكان يسعى

من خلال تأمّلاته في الوجود، أن يجد مِصْداقَ ما يَعْتَقِـدُهُ بقلبه وعقله، في الموجودات التي يراها عظيمة وجليلة! واستمرَّ في تأَمُّلاته تلك إلى أنْ سَبَرَ[1] أغوارَ الموجودات العظيمة في عينها، كُلِّها، وفي نـهاية المطاف توصَّل إلى نتيجة: أن شيئاً من تلك الموجودات لا يصلح أن يكون ربّاً له، ولهذا الخلق الواسع، وذلك لِأُفُولِها وزوالها وتَغيُّرها، وعَلِمَ أن ربَّ هذا الوجود، هو وراءَ هذا الوجود وفوقه، وهو أعظمُ وأكبرُ وأجَلُّ من أن يُلْتَمَس ويُطْلَب داخِلَ خَلْقِهِ، أو أن يُرى في هذه الحياة الإبتلائية، وبهذه الأجسام الهَشَّة الضعيفة.

٣ ـ [﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾] أي: فلمّا غاب ذلك النجمُ وذهب، قال إبراهيم لا أُحبُّ الغائبيـن الزائلين، لأن من لم يملك البقاء والدوام لنفسه، فأنّى يتسنَّى له التدبيرُ لغيره والإشرافُ على شؤونه!!

ويمكننا صياغة قول إبراهيم المذكور كدليل هكذا:

أنا أُحِبُّ الربَّ جلَّ شأنه.

والرب ثابتُ الوجود ولا يزول، لأنه يُدَبِّر الأمور.

ولكنَّ هذا النجم غاب ولم يَدُمْ.

إذا: فهو ليس ربِّي ورب هذا الوجود.

ومن ثَمَّ فلا أحبُّهُ بصفته ربّاً لي.

٤ ـ [﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧﴾]، أي: وبعد أن غاب النجم المذكور وطلع القمر منيراً، ظَنَّه إبراهيمُ ربَّهُ الذي يَبْحَثُ عنه، ولكن ما لَبِثَ أن غابَ هو أيضاً، فعلم إبراهيمُ أن القَمَر ليس هو كذلك، ثم استنجد بربِّه الذي يجِدُ نورَ معرفته، وحلاوةَ محبَّته، والإنجذابَ إليه في أعماق روحه وفطرته وقلبه

(١) سَبَرَهُ يَسْبُرُهُ سَبْراً: حَزَرَهُ وخَبَرَهُ. يقال: سَبَرَ الجُرْحَ: قاس غَوْرَهُ بالمِسْبار. المعجم الوسيط، ص ٤١٣.

وعقله، وقال: إذا لم يَدُلَّني ربِّي عليه، لأكوننَّ من الناس الضالِّين الذين لا يعرفون ربَّهم ولا يقدرون قَدْرَه!

٥ ـ [﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾] أي: فلما مضى اللَّيلُ بنجومه المُتَلَئْلِئَة وقَمَرِه المُنيرِ، وأقبل النَّهارُ بضياءِ الشمس وطلعت الشَّمْسُ، ظَنَّها إبراهيمُ أنَّها هي الرب الذي يبحث عنه وقال: هذا هو ربِّي، ثم بما أن إبراهيم عليه السلام كان يعتقد بفطرته السليمة، أن الربَّ جلّ شأنه لا يمكن أن يكون إلّا أكبرَ وأعظمَ ما يكون، لذا فلمّا رآها أعْظَمَ الأجرام السماوية ـ في النظر الظاهري ـ وأكثرَها ضياءً ونوراً، قال: هذا أكبر، أي إنّ كِبرَها دليلٌ على ربوبيَّتها، لأن الرب ينبغي أن يكون أكبرَ وأعظمَ من كل شيء!

ولكن لما غابَتْ هي أيضاً، ولم تَتَمتَّعْ بالديمومة والبقاء؛ الصِّفة التي لا يمكن بدونها الربوبية والتدبير، أَيِسَ إبراهيم نهائياً من أن يجدَ ربَّه في نطاق ما يشاهده من الوجود، وثبت لديه بالدليل العقلي الرصين، بعد الإستقراء التام والفحص الدقيق في الوجود، أنه لا يمكن لأيٍ من تلك المخلوقات أن يكون هو الربَّ العظيمَ جلّ شأنه، بل يجب أن يكون الربُّ العظيم تبارك وتعالى، وراءَها وفوقَها جميعاً، لأنه ربُّها وخالِقُها جميعاً، ويجب ألّا يكون مشابِهاً لِشيء منْها، لأن الخالق يخالف مخلوقاته من كل الوجوه، وحينئذٍ أعلن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بَراءَتَهُ مُدَويَّةً صريحةً، عن كل الآلهة والأرباب المزعومة التي تُدْعى وتُعْبَدُ من دون الله الإله الوحيد الحق ورب العالمين: [﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾].

٦ ـ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾]. بعد أن أعلن خليلُ الله الكريم ﷺ براءته عن الشرك والمشركين، أعْلَنَ توجُّهَهُ إلى الله وإقبالَه له على فاطر السموات والأرض وربِّهما ومالِكهما، ثم مبالغة في التبرِّي عن الآلهة المُدَّعاة والأرباب المزيَّفة، قال: [﴿حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾]. والحنيف من (حَنَفَ)

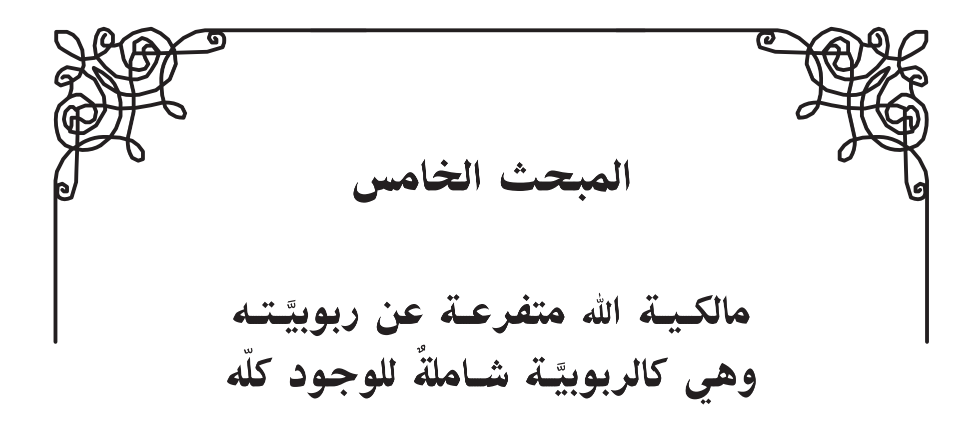
ضد (جنف)، إذ (حنف) يعنـي: مالَ إلى الحق من الباطل[1]، و(جنف) يعني: مال من الحق إلى الباطل، وقوله [﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾] هو تبـرُّؤٌ من عابدي الآلـهة والأرباب الباطلة، بعد التبـرُّؤ من نفس الآلـهة والأرباب ذاتـها!

وهذا كله تعبيـرٌ من خليل الله الحكيم ﷺ عن التوحيد الخالص الذي لَمْ تَشُبْهُ شائبَةُ الشرك من قريب أو بعيد.

وهكذا انتهى بخليل الله الحوار الذاتـيُّ، والتأمُّلُ في ملكوت السموات والأرض، إلى معرفة الخالق الفاطر والرب المالك له وللوجود، ومن ثم الإقرار بتوحيده والتصميم على اتـخاذه وحده ربّـاً وإلـهاً، ورفض كل ما سواه من الأرباب الـمزيَّفـين والآلهة المزعومين.



(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٦٠، راغب الأصفهاني.



المبحث الخامس

مالكية الله متفرعة عن ربوبيّته وهي كالربوبيّة شاملةٌ للوجود كلّه

ونقتبس أضواء الحقائق التسع الآتية حول مالكية الله المطلقة الشاملة لكل شيء، من أنوار الآيات (٨٤ إلى ٨٩) من (المؤمنون) والآيتين (٢٦ - ٢٧) من (آل عمران)، ونُدْرِجُ الحقائق مباشرة، لأنَّنا قد كتبنا الآيات المذكورة وأرقامَها، سابقاً:

١ - مالكية الله للوجود بأرضه وما فيها من جن وإنس وحيوان ونبات وأشياء، وسمائه وساكنيها، والعرش العظيم، جَلِيَّةٌ ولا يستطيع أحدٌ إنكارَها:

ويَدلّ على هذه الحقيقة أوضح الدلالة، الآيات (٨٤ إلى ٨٩) من (المؤمنون)، لأنَّ الله تعالى أمر فيها نبيَّه الخاتم ﷺ أن يوجّه هذه الأَسئِلة الثلاثة:

١ - لـمن الأرض ومَنْ فيها؟

٢ - مَنْ ربُّ السَّموات السبع وربُّ العرش العظيم؟

٣ - مَنْ بيده ملكوتُ كلِّ شيء؟

ثم قال تعالى في جواب الأسئلة كلِّها، جواباً واحداً على لسان الكفّار والمشركين، وهو: [﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾].

وهذا دليلٌ على أن الإعتقاد بـمالكية الله تبارك وتعالى لكل الوجود، العرش فما دونه، من الأمور البديهية المركوزة في فطر الناس وعقولهم، بغض النظر عن إيمانهم وكفرهم.

٢ ـ بـما أن الله تعالى هو مالك كل شيء، ولا يملك غيـره شيئاً، فهو وحده الذي يقدر على حفظ وإجارة من شاء، من دون أن يقدر أحدٌ أن يُجيـرَ عليه أحداً ويَحْفَظَهُ من عقابـه:

كما قال تعالى: [﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾].

ويقال (أجار فلانٌ فلاناً) أي جعله في جِوارِهِ وتحت كَنَفِه ورعايته بحيث لا يستطيع أحَدٌ أن يَمُسَّه بِسوء ويُلحِقَ به أذىً[١].

٣ ـ بناءً على مالكية الله لكلّ شيءٍ: مَنْ أصاب شيئاً من الملك وامتلك شيئاً، فَبِتَمْليك الله له إيّاه، وكذلك مَن فَقَدَ شيئاً وخرج عن ملكيته، فالله تعالـى هو الذي سَلَبَهُ منه:

كما قال تعالى مخاطباً رسول الله الخاتم ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ...﴾ [آل عمران: ٢٦].

والله تبارك وتعالى حكيم عليم، فلا يَهَبُ ولا يَسْلُبُ إلّا عن علم وحكمة، ويُعطي سبحانه المؤمن والكافر والتقي والفاجر، وكذلك يسلب من الكل، وكل ذلك ابتلاءً منه لعباده:

كما قال: ﴿...وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء].

٤ ـ كذلك الإعـزازُ والإذلالُ، يجري وفق مشيئة الله وسننه الحكيمة وتحت هَيْمَنتِـهِ ومالكيتـه:

كما قال تعالى: ﴿...وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ...﴾ [آل عمران: ٢٦].

---

(١) المعجم الوسيط، ص ١٤٦.

٥ ـ كذلك الخيـرُ كُلُّه بيد الله، لذا فمن أصاب خيراً، يجب أن يَعْرفه منه سبحانه، ويَحْمَده عليه ويشكره، كما قال تعالـى: [﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾]:

كما قال تعالـى في آيـة أخرى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل].

٦ ـ ثـم فوق ذلك كله، فالله المالك تبارك وتعالى لا يستعصي عليه فعل شيء أراده واقتَضتْهُ حِكْمَتُهُ، لأنه مالك كل شيء، لذا فهو على كل شيء قدير:

كما قال تعالـى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران].

٧ ـ كما تتجـلَّى مالكية رب العـالمين في عالـم البشر، كذلك هي مُتجـلِّيـةٌ في غير عالم البشر من الخلق (أي غيـر ذي الشـعور):

كما قال تعالى كذلك مخاطباً نبيَّـه وآمراً إياه، أن يقول مُناجياً وداعياً ربّـه: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ...﴾ [آل عمـران: ٢٧]، والإيلاج هو إدخال شيء في شيء آخر برفق وخِفّةٍ وتؤدة ولينٍ، مثل: إدخال الـميل في العيـن لتكحيلها، وإدخال الإصبع في الخاتم[(١)].

٨ ـ كذلك إخراجُ الحيِّ والميّت أحدِهما من الآخر، يجري بتدبيـر الله وتحت هيمنة مالك الملك جلَّ شـأنه:

كما قال تعـالى: ﴿... وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ...﴾ [آل عمران: ٢٧].

وتَحويلُ الأجْسام الميِّتـةِ الجامدة حَيَّةً، ثم تحويْلُها مرَّةً أُخرى إلى حالةٍ ميِّتـةٍ، لا حياةَ فيها، كما يحدث في عالـم النَّبات والحيوان، في كل لحظةٍ وخاصةً في عالم الخلايا والميكروبات والفيروسات، مُعْجزَةٌ برأسها والعِلْمُ البشريُّ عاجزٌ حتى هذه اللّحظة لَيْس أمام إحْداث أَبْسَطِ أنواع الحياة

(١) المعجم الوسيط، ص ١٠٥٥، ١٠٥٦، (والمنجد) ص ٩١٧، ولكن فَسَّرا الإِيلاج بمجرد الدخول.

فَحَسْبُ، بل حتى أمامَ فهم ظاهرة الحياة نفسها، مجرّد الفهم!

٩ ـ توزيعُ الأرزاق أيضاً من مظاهر مالكية الله تعالى، إذْ هو الذي يُعْطي مَنْ شاءَ من عباده، القَدَرَ الذي تَقْتَضيه حكمته من الرزق:

كما قال تعالى: ﴿. . . وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧].

وفي ختام هذا الموضوع، أُشير إلى مسألة قد أشرتُ إليها في السابق بمُناسبة توضيح مفهوم كلمة (ربّ)، إذ قلنا بأن كلمة (ربّ) قد استعملت لغير الله تعالى أيضاً، ولكن بمفهوم جزئي ومغاير لمفهومها عندما تستعمل لله تعالى، وهنا أقول: وكذلك كلمة (مالك) استعملت في كتاب الله الحكيم لغير الله تعالى، ولكن بمفهوم جزئي لائقٍ بالخلق، ومغايرٍ للمفهوم الحقيقي الشامل الكامل المختصّ بالله تبارك وتعالى، وذلك لأن البَشَر مالِكيَّتُهُم جزئيةٌ ومجازية، كربوبيتهم سواء بسواء، وهل تكون مالكية من لا يملك حتى وجوده هو، إلّا جزئية ومجازية؟!

ولهذا مدح الله المالك جلّ وعلا عِبادَه المؤمنين الصّابرين الثابتين الَّذين يقولون عندما تصيبهم مصيبة: ﴿. . . إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، وقال مُثْنياً عليهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة]، وذلك لأن في جملة: [﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾] إقرارٌ واعترافٌ من أولئك العباد الممدوحين من رب العالمين، بكلٍ من: (مالكية الله) و(وربوبيَّته)، إذ (إنَّا لله) إقرارٌ واعترافٌ بمالكيته لهم، و [﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾] إقرارٌ واعترافٌ بربوبيَّته لهم، إذْ ربوبيَّة الله تعالى تقتضي إرجاعَ عباده إليه لمحاسبتهم ومجازاتهم.

ونتنقلُ الآن إلى الفصل السادس بتوفيق الله وتَيْسيره.





الفصل السادس

الإِيمان بأسماءِ اللّٰه الحُسْنى وصفاته العُلى

ويَتَكَوَّنُ هذا الفصل من المباحث الخمسة الآتية:

المبحث الأول: الله سبحانه وتعالى له كلُّ الأسماءِ الحُسنى.

المبحث الثاني: عدد أسماءِ الله الحُسنى.

المبحث الثالث: صفات الله العُلى جلّ شأنه.

المبحث الرابع: كيفية التعامل مع أسماءِ الله الحُسنى وصفاته العُلى.

المبحث الخامس: ثلاثة تنبيهات في مجال صفات الله تبارك وتعالى.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

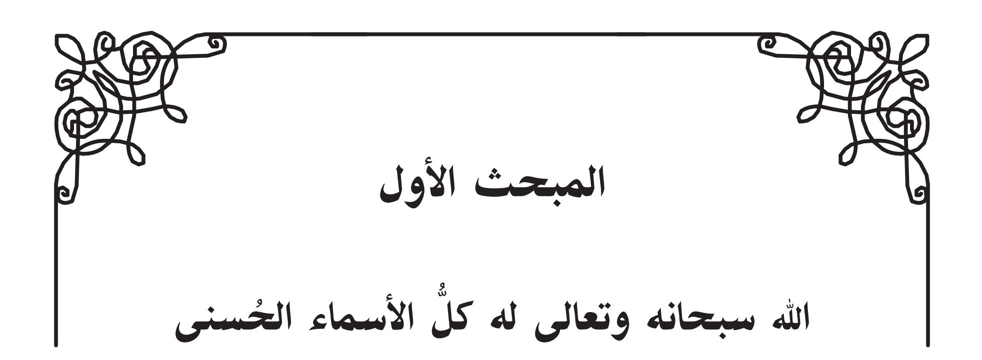
ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net



المبحث الأول

الله سبحانه وتعالى له كلُّ الأسماء الحُسنى

قال الله تبارك وتعالى:

* ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف].

* ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ. . .﴾ [الإسراء: ١١٠].

* ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم].

* ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه].

* ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر].

ونأخذ من هذه الآيات، هذه الحقائق الثلاث، في مجال التعرُّف على أسماءِ الله الحُسنى:

الأولى: إن الله تعالى له أحسن الأسماء وأفضلها، بل الأسماءُ الحُسنى كلُّها منحصرة فيه سبحانه، ولا نصيب فيها لغيره:

والآيات الخمس المدرجة أعلاه، كلُّها ناطقة بهذه الحقيقة العظيمة.

وكلمة (الحُسْنى) هي مؤنَّث (الأحسن)، إذاً: فكل اسم من أسماء الله هو أحسنُ الأسماءِ وأفضلُها، والأسماء في مجموعها هي حُسنى وفُضْلى، وكيف لا! والإسم يكون على قَدَرِ المسمَّى، ومُسمَّى الأسماء الحُسنى هو الله خالق الخلق ومالك الملك ورب العالمين، تبارك اسمه، وتعالى جِدُّه، ولا إلٰه غيرُهُ، ولا ربَّ سواه.

الثانية: يَجِبُ أن يُدعى الله تبارك وتعالى بأسمائه الحُسْنى فحسب، ولا يجوز أن يُطلق عليه اسمٌ لم يأت به الوحي، أو أن تُنفى عنه أسماؤه، أو تستعمل لغيره:

والدليل عليها هو قوله تعالى في الآية (١٨٠) من (الأعراف): ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف]، وكذلك الآية (١١٠) من (الإسراء)، والإلحادُ هو الميل والإنحراف، وسُمِّي لَحْدُ القبر بهذا الإسم، لأنه انحراف وميل إلى أحد جانبي القبر[1]، ويتمثل الإلحادُ في أسماءِ الله الحُسنى، والذي أَوْعَدَ الله عليه وعيداً شديداً، في ثلاث حالات:

١) إطلاق أسماءَ على الله تعالى، لم تَرِدْ في القرآن ولا في سنة رسول الله ﷺ.

٢) تعطيلُ الله تعالى عن أسمائِهِ، وعدم استعمالها له بأيِّ ذريعة كانت.

٣) إطلاقُ بعض أسماءِ الله الحُسنى على بعض مخلوقاته.

الثالثة: وأسماءُ الله تعالى لا تُشْبِهُ أسماءَ المخلوقين، وهي مُخْتصَّة به وحده، لا يشاركه فيها أو في شيءٍ منها، غيرُه:

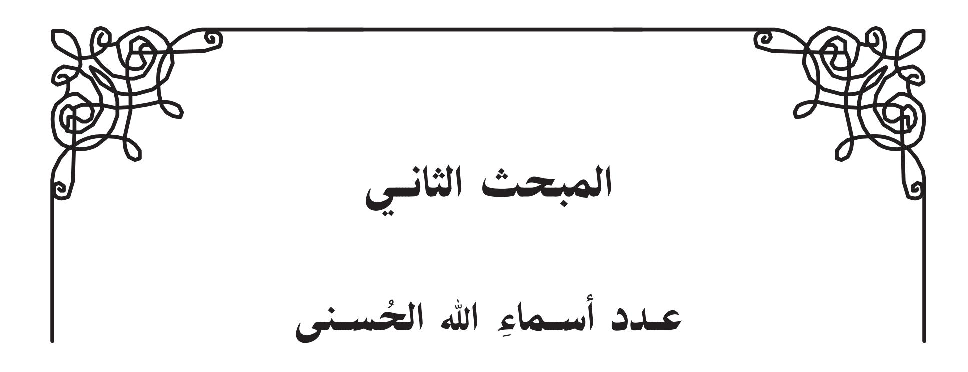
والدليل على هذه الحقيقة بالإضافة إلى المفهوم العام لكل الآيات الخمس المدرجة، هو قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، لأن

(١) المصباح المنير، ص ٢٨٣.

هذا السؤالَ استفهاميٌّ إنكاريٌّ، يَحْمِلُ جوابَه في طيّاتِـهِ، ومعنـى الجملة: لا تعلم ـ لأنه لا وجودَ له ـ من له اسم من أسـماءِ الله تعالى.

وأما إطلاق الله تعالى بعض أسـمائه على بعض عباده، مثل إطلاق اسم (شكور) على (نوح) عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء]، وإطـلاق اسم (حليم) على إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود]، وإطلاق اسـمي (رؤف رحيم) علـى خاتـم الأنبياء (محمَّد) ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة]، فهذا لا يُنـافي ما قلناه، وذلك لأن لتلك الأسـماء عند اسـتعمالها لغيـر الله تعالى، مفاهيمَ ومعانـيَ جزئيـة على قَدَر من استعملت له، وهي تختلف جذريـاً عن مفاهيمها ومعانيها الكلّية الشـاملة المطلقة، عند استعمالها لرب العالمين، ولهذا لم تستعمل معرَّفة بالألف واللاّم.





المبحث الثانـي

عـدد أسـماءِ الله الحُسـنى

لَمْ يُحدِّد الله تعالى عَدَد أسـمائه الحُسْنى في كتابه الحكيم، ولكن بيَّن رسولُ الله ﷺ أن الله تعالى له تسعة وتسعون اسماً حيث قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، مَنْ أحصاها دخل الجنة»[(١)]، ومن الواضح أن هذا الحديث ليس دليلاً على حصر أسماء الله الحُسنى في هذا العدد، ولو كان المقصود هذا، لقال: (إنّ أسماء الله تسعة وتسعون).

وجديرٌ بالذكر أن المقصودَ بإحصاءِ أسـماءِ الله الحُسنى، ليس حِفْظَها وعَدَّها فحسب، بل المقصود به هو التفاعل مع معانيها ومفاهيمها، كما بيّنّا هذا في الباب الأول من الفصل الأول منه، والتفاعل الحق مع أسماء الله الحُسنى تبارك وتعالى وصفاته، لَنْ يتـأتّى إلّا لِمَنْ يمتلك إيـماناً حقيقياً وعبودية تامة.

وأمّا ما هي تلك الأسـماء التسعة والتسعون؟! فلا ندري بالتحديد، لأن رسولَ الله ﷺ لم يُعيِّنْها لنا، والحديث الذي جاءَ في (جامع الصَّحيح) للترمذي والذي حُدِّدت فيه تسعة وتسعون اسـماً، فالعلماء لا يعُوِّلون عليه كثيـراً لضُعف سَنَدهِ، ثم لأنه ذُكِرَ فيه بعضُ الأسـماءِ التي لا يـمكن اعتبارُها من أسـماء الله الحُسـنى، مثل (الضّارّ)، أو على الأقل في اعتبارها من

---

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَد برقم: (٧٤٩٣)، وَالبُخَارِيُّ برقم: (٦٠٤٧)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٦٧٧).

الأسماء الحُسنى إشكالٌ، مثل: (الرشيد، الصّبور).

ولكن بإمكاننا بعد استقراء كل آيات كتاب الله الكريم والتدبُّر فيها، التوصُّل إلى كلِّ أو أكثرية تلك الأسماء المباركة، والتي قد تكون إحدى حِكَم عدم تحديدها، هي تدبُّر أهل الإيمان في كتاب الله، سعياً منهم للتوصُّل إليها(١).

وقد قمت أنا بمحاولة في هذا المجال، أسوةً بِعُلمائنا رحمهم الله تعالى والأسماء التسعة والتسعون الَّتي أدرجتها في الجدول الآتي، قسمان:

أ ـ قسمٌ أَخَذْتُها بألفاظِها الواردة في الآيات، بدون تغيير سوى زيادة الألف واللاّم في أولها، وهذا لا بُدَّ منه، لكي تُعطي الكلمة كامِلَ معناها الذي يليق بالله تبارك وتعالى، وهذا فقط بالنسبة للأسماء التي لم تَرِدْ مُعَرَّفة بالألِف واللاّم، وأما التي وردت مُعَرَّفةً، أو لم تحتج إليه، فَأُبقِيَتْ كما هي.

ب ـ وقسمٌ غَيَّرتُها من صيغة الفعل التي وردت بها إلى صيغة الإسم، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣﴾ [البروج] (المُبدِيءُ، المُعيد).

وهذه هي تلك الأسماء المباركة التي اجتهدت في تحديدها، مع الإشارة إلى أسماءِ السّور وأرقام الآيات، التي وردت فيها وأُخِذَتْ منها:

---

(١) وممّا ينبغي التنبّه له هنا: أنه لم يأت في الحديث النبوي الآنف الذكر، أن كل الأسماء التسعة والتسعين وردت في القرآن، وقد جاء بعضها في السنة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وأزكى تحية، ولكن بما أن أسماء الله الحسنى ليست منحصرة في العدد المذكور (٩٩)، فلا ضَيْرَ فيما قمنا به، من استنباط الأسماء التسعة والتسعين كُلِّها من كتاب الله تعالى.

التسلسل	الأسماء الحُسنى	أسماء السور	أرقام الآيات	التسلسل	الأسماء الحُسنى	أسماء السور	أرقام الآيات
١	الله	الحشر	٢٢	٢	عالم الغيب والشهادة	الحشر	٢٢
٣	الرحمٰن	الحشر	٢٢	٤	الرحيم	الحشر	٢٢
٥	الملك	الحشر	٢٣	٦	القُدّوس	الحشر	٢٣
٧	السّلام	الحشر	٢٣	٨	المؤمن	الحشر	٢٣
٩	المهيمن	الحشر	٢٣	١٠	العزيز	الحشر	٢٣
١١	الجبّار	الحشر	٢٣	١٢	المتكّبر	الحشر	٢٣
١٣	الخالق	الحشر	٢٤	١٤	البارئ	الحشر	٢٤
١٥	المصوِّر	الحشر	٢٤	١٦	الحكيم	الحشر	٢٤
١٧	السميع	الشورى	١١	١٨	البصير	الشورى	١١
١٩	الحيُّ	البقرة	٢٥٥	٢٠	القيّوم	البقرة	٢٥٥
٢١	العليّ	البقرة	٢٥٥	٢٢	العظيم	البقرة	٢٥٥
٢٣	الأوَّل	الحديد	٣	٢٤	الآخر	الحديد	٣
٢٥	الظاهر	الحديد	٣	٢٦	الباطن	الحديد	٣
٢٧	الغنيّ	النَّمل	٤٠	٢٨	الكريم	النَّمل	٤٠
٢٩	الواحد	الرَّعد	٦	٣٠	الأحد	الإخلاص	١
٣١	الصَّمد	الإخلاص	٢	٣٢	اللّطيف	الملك	١٤
٣٣	الخبير	الملك	١٤	٣٤	الوهّاب	آل عمران	٨
٣٥	الفتّاح	سبأ	٢٦	٣٦	الرزّاق	الذاريات	٥٨
٣٧	الحميد	هود	٧٣	٣٨	المجيد	هود	٧٣
٣٩	الحليم	البقرة	٢٦٣	٤٠	العفو	النساء	٤٣
٤١	الرؤوف	البقرة	١٤٣	٤٢	القويّ	الأحزاب	٢٥
٤٣	المتين	الذاريات	٥٨	٤٤	التوّاب	النصر	٣
٤٥	الغفّار	ص	٦٦	٤٦	الكبير	الرَّعد	٩
٤٧	المتعال	الرَّعد	٩	٤٨	البَرّ	الطور	٢٨

التسلسل	الأسماء الحُسنى	أسماء السور	أرقام الآيات
٤٩	المجيب	هود	٦١
٥١	الودود	البروج	١٤
٥٣	الحفيظ	سبأ	٢١
٥٥	الغفور	فاطر	٣
٥٧	الولي	النساء	١٢٣
٥٩	المحيط	النساء	١٢٦
٦١	الحسيب	النساء	٨٦
٦٣	الهادي	الفرقان	٣١
٦٥	الشاكر	النساء	١٤٧
٦٧	الواسع	النساء	١٣٠
٦٩	الباسط	البقرة	٢٤٥
٧١	النور	النور	٣٥
٧٣	المبدِ	البروج	١٣
٧٥	المُحي	الحديد	٢
٧٧	الحَكَمْ	الأنعام	١١٤
٧٩	الكافي	الزمر	٣٦
٨١	المليك	القمر	٥٥
٨٣	المولى	محمد	١١
٨٥	المُذِلّ	آل عمران	٢٦
٨٧	ربّ العالمين	الفاتحة	٢
٨٩	مالك الملك	آل عمران	٢٦
٩١	أحكم الحاكمين	التين	٨

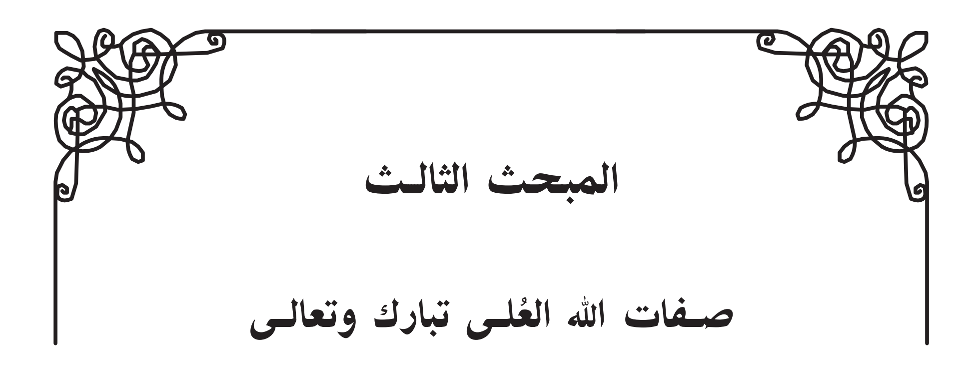
التسلسل	الأسماء الحُسنى	أسماء السور	أرقام الآيات
٥٠	القريب	هود	٦١
٥٢	الرقيب	الأحزاب	٥٢
٥٤	القدير	فاطر	٤٤
٥٦	الشكور	فاطر	٣٤
٥٨	الوكيل	الزّمر	٦٢
٦٠	المقيت	النساء	٨٥
٦٢	الشهيد	الأحزاب	٥٥
٦٤	النصير	الفرقان	٣١
٦٦	العليم	النساء	١٤٧
٦٨	القابض	البقرة	٢٤٥
٧٠	الحق	الحج	٦٢
٧٢	المُحْصي	يسٓ	١٢
٧٤	المُعيد	البروج	١٣
٧٦	المُميت	الحديد	٢
٧٨	القهّار	الرعد	١٦
٨٠	الشافي	الشعراء	٨٠
٨٢	المقتدر	القمر	٥٥
٨٤	المُعِزّ	آل عمران	٢٦
٨٦	علاّم الغُيوب	المائدة	١٠٩
٨٨	مالك يوم الدّين	الفاتحة	٤
٩٠	أحسن الخالقين	المؤمنون	١٤
٩٢	أرحم الراحمين	يوسف	٦٤

التسلسل	الأسماء الحُسنى	أسماء السور	أرقام الآيات
٩٣	خير الغافرين	الأعراف	١٥٥
٩٥	خير الفاتحين	الأعراف	٨٩
٩٧	بديع السماوات والأرض	الأنعام	١٠١
٩٩	ذو الجلال والإكرام	الرحمٰن	٢٧

التسلسل	الأسماء الحُسنى	أسماء السور	أرقام الآيات
٩٤	خير الرازقين	المائدة	١١٤
٩٦	خير الوارثين	الأنبياء	٨٩
٩٨	فاطر السماوات والأرض	فاطر	١
١٠٠	الباعث	الحج	٧

والملاحَظُ أنَّنا عدَّدنا (١٠٠) اسماً مع اسم (الله)، لأن الحديث النبوي الشريف أضاف (٩٩) اسماً ى (الله) تعالى، حيث قال: (إنَّ لله تسعةً وتسعين اسماً...).





المبحث الثالث

صفات الله العُلى تبارك وتعالى

المقصود بصفات الله تعالى، هو كلُّ ما وصف الله العليُّ العظيمُ به نَفْسَه، في كتابه، أو ما وصَفَهُ به نَبيُّهُ الكريمُ ﷺ، وبناءً على هذا: فكل أسماء الله الحُسنى صِفاتٌ له، باستثناء اسمه العَلَمْ (ألله)، فمثلاً:

(العزيز) اسمٌ من أسماء الله الحُسنى، لِذَا يوصفُ الله تبارك وتعالى بالعزّة، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ . . .﴾ [فاطر: ١٠]، وكذلك كل من (الرحمٰن) و(العليم) و(الغفور) و(القويّ) من أسمائهِ الحُسنى، لذا يوصف ربُّ العالمين: بالرحمة والعلم والمغفرة والقوة، كما قال تعالى:

* ﴿. . .قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ . . .﴾ [الأعراف: ١٥٦].

* ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ. . .﴾ [هود: ١٤].

* ﴿. . .هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

* ﴿. . .وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا. . .﴾ [البقرة: ١٦٥].

وهكذا بقية أسمائه الحُسنى، فكل اسم أطلقهُ الله تعالى على نفسه، أو أطلقه عليه رسولُهُ ﷺ فهو في الوقت نفسه صفة له.

ولكن ممّا يجبُ التنبُّه له: أنَّ صفاتِ الله تعالى العُلى، ليست مُنْحصرة في دائرة أسمائه الحُسنى، بل هي أوسعُ دائرةً وأكثرُ شمولاً، وهذه أمثلة من صفاته التي وصف بها نَفْسَهُ، ولا تُعتبر أسماءً له، جاءت في الآيات الآتية:

* ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه].

* ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ...﴾ [غافر: ١٥].

* ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ [المعارج].

* ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ...﴾ [البقرة: ٢].

* ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر].

* ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمٰن].

* ﴿...وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

* ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ...﴾ [التوبة: ٣٣].

* ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ...﴾ [الزمر: ٤١].

* ﴿...رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ...﴾ [التوبة: ١٠٠].

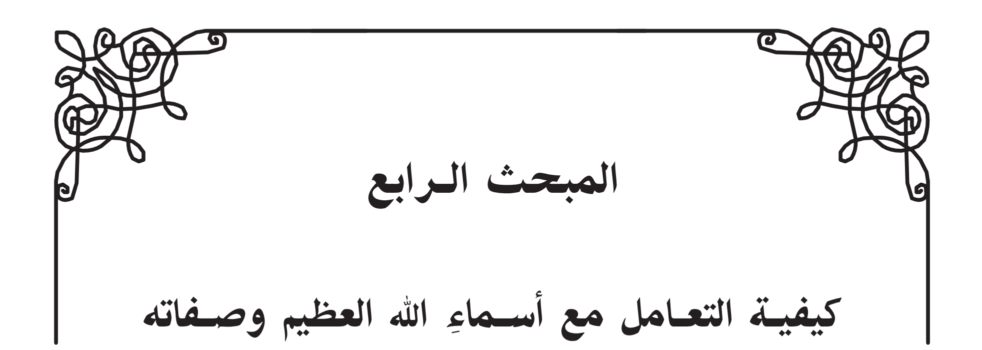
* ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ...﴾ [الفتح: ٦].

نَعَم، كما نرى من خلال تلك الآيات المباركات، التي ليس سوى أمثلة قليلة في بابها، دائرة صفات الله العُلى واسعة جداً، لأنها تشملُ كلَّ ما وصف الله تعالى بها نَفْسَه، من أسماءٍ وأفعالٍ وشؤون مختلفة، ولكن يجبُ أن نعلم أن صفات الله تعالى مع كثرتها وتنوُّعها، مقيَّدةٌ بما جاءَت في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، من آيات محكمات وأحاديث ثابتة النسبة

إلى الرسول، وذلك لأن الله تعالى لا تُعْرَفُ صِفاتُهُ ـ كما لا تُعْرَفُ أسماؤه ـ إلّا عن طريق الوحي، لذا لا يجوز تجاوز الوحي المعصوم، وتَخطِّيه بأَيَّة ذَريعةٍ، وبما أن أسماءَ الله الحُسنى، هي أساسُ صفاتِهِ العُلى، وقد بينّا في ضوءِ قوله تعالى: ﴿. . .وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ. . .﴾ [الأعراف: ١٨٠]، أن الإنحراف ـ بالمفهوم الذي وضَّحناهُ سابقاً ـ في أسماءِ الله تعالى ذَنْبٌ عظيمٌ، فكذلك الإِلحادُ والإنحراف في صفات الله تعالى، له نفس الحكم.

والآن لِنُبيِّن الطريق السَّويَّ الصَّحيحَ للتعامل مع أسماءِ الله تعالى وصفاته:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الرابع

كيفية التعامل مع أسماءِ الله العظيم وصفاته

ونقول باختصار:

إن الطريق الصّحيح الوحيد للتعامل مع أسماءِ الله الحُسنى وصفاته العُلى، هو:

(أن نُثْبِتَ لله تعالى ما أَثْبَتَهُ لنفسه من أسماءٍ وصفاتٍ، ونُمرِّرَها كما جاءَتْ من غير أيِّ مِساسٍ بها مِنْ زيادة أو نقص، لأنَّ المِساسَ بها يعتبر إلحاداً فيها، وهو ذَنْبٌ عظيمٌ).

ولكي نستطيعَ سلوكَ الطريقِ المذكور بالصورة السَّليمة، لا بُدَّ لنا من أن نَضَعَ هذه الحقائِقَ الثلاثَ نُصْبَ أعيننا، إذْ هي معالِمُها التي تهدي السّالِكَ المَقْصِدَ:

الأولى: ألله سبحانه وتعالى موسومٌ بجميع الأسماء الحُسنى، وموصوفٌ بكل الصفات العُلى، وكلُّ ما سَمَّى أو وَصَفَ بها الله نَفْسَهُ أو رسولُهُ ﷺ من الأسماءِ والصفات، فهي دالَّة أتمَّ الدِّلالة على كماله اللاّئق به، شريطة أن تُفْهَم على وجهها الصَّحيح.

وقوله تعالى:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر].

وكذلك قولـه:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء].

بُرهان ساطِعٌ على هذه الحقيقة العظيمة، لأنَّه طالـما أنَّ الوجود كُلَّه يُسَبِّحُ بحمد خالقه وبارئِهِ، أي يُنـزِّهُهُ عن العيب والنقص وَيُثْنـي عليه ويـَمْدَحُه وَيحْمَدُهُ ويُمَجِّده، فهو مُبَرَّءٌ عن كلِّ نقصٍ وشَيْنٍ، ومُتَسَمّ بكل الأسـماء الحُسنى، ومُتَّصِفٌ بجميع الصفات العُلى، وهذا هو السَّبَبُ الذي جعل الوجودَ كلَّه يُسَبِّحُهُ ويَحْمَدُهُ.

الثـانية: بـما أن الله تعالى لا يُشْبِهُ شيئاً ولا يُشْـبِهُهُ شَيءٌ، إذْ لا شيءَ إلّا وهو مخلوقٌ له، والمخلوق غيـر خالقِهِ من كل وجهٍ، لذا فأسـماءُ الله الحُسنى، وصفاته العُلى وشؤونه الـمُثْلى، جميعُها مُختصَّة به، ولا يُشْـبِهُ شيءٌ منها ما للمخلوقات، من أسـماءٍ وصفاتٍ وأحوالٍ، وبناءً عليه: فلا يجوز قياسُ شيءٍ من أسـمائه وصفاته وشؤونه على ما للمخلوقات، ولا تشبيهها بِها في أي جانبٍ من الجوانب:

وهذه الحقيقة مفهومة من آيات مباركات كثيرة، منها:

* ﴿...لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

* ﴿...قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

* ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

إذْ قوله تعالى: [﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾] يَنْفي أَيَّ مُشابَهةٍ بين الله تعالى وغيره من كل الوجوه وفي كل شيء، بإطلاق، وقوله: [﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾] يُبيِّـن أن الله تعالى (واحِدٌ) لا ثانـي له و(قـهّار) أي جعل كل شيء تحت هَيْمَنته، وجَليٌّ أنَّ المخلوقَ يكون تحت هيمنة خالِقهِ وفي قَبْضَتِهِ، ولا شيءَ إلّا وهو مخلوقُهُ سُبحانه إذاً: فالكل خاضِعٌ له.

وأما سـورة الإخلاص المباركة فَتُبيِّن:

١) أن الله تعالى (أحدٌ) والأحد هو من لا ثانيَ له، ولا شبيهَ، ولا مِثْلَ، ولا نِدَّ، ولا ضِدَّ.

٢) وأنه تعالى شأنه (صَمَدٌ)، وهو الغَنِيُّ عن غيره، والمحتاج إليه كلُّ ما سِواه.

وبَيِّنٌ أنَّ الخالق جلَّ وعلا، مُسْتَغْنٍ عن مخلوقاته كلِّها، وهي جميعُها محتاجة إليه، في وجودِها وبقائِها، وفي كلِّ شؤونها.

٣) وأنه: [﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾] أي: لا ولَدَ له ولا والد، لِأنَّ: (لَمْ يَلِدْ) يَعْني: لَمْ يَلِدْ منه أحدٌ، و(لَمْ يُولَدْ) يَعْني: لَمْ يُولَدْ هو منْ أحدٍ.

ويمكننا أن نُعَبِّر عن هذه الحقيقة بالقول: إن الله تعالى لا فَرْعَ له انفصل عنه، كما أنه لا أصْلَ له تَولَّدَ منه، بل هو حيٌّ قيّومٌ، ووجودُه ذاتِيٌّ، وليس مُسْتعاراً، مثل وجود المخلوقات التي أعطاها الخالِقُ الوجودَ، كما قال موسى عليه السلام: ﴿... رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

٤) وأنه سبحانه [﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾] أي: لا يُساويه ولا يماثله، بل لا يشابِهُهُ أَحَدٌ، إذ يقال للشيئين المتماثلين، أو المُتشابهين: هذا كُفءٌ لهذا[1]، ومن البديهي ألّا يكون بين الخالق جلَّ وعلا، وبين شيءٍ من خلقه، أيُّ تكافءٍ أو تَشابُهٍ، ومن يكون مخلوقاً لخالقِهِ، كيف يكون له كُفئاً ومساوياً، مع أن الخالق جلّ وعزَّ لا يُشْبِهُ حتى مجرَّد الشَّبه شيئاً من خلقه؟!

الثالثة: بما أن الله تعالى لا يُشْبِهُ، لا في ذاته ولا في أسمائِهِ ولا في صفاتِهِ، شيئاً من خلقه، فلا يمكن البتَّةَ الإطلاعُ على حقيقة الله تعالى، ذاتاً وأسماءً وصفاتٍ، في حياتنا هذه، والدليل على أنه يجب اليأْسُ من

(١) الكُفْءُ: المُماثِلُ ج: أَكْفاء وكِفاء. يقال: لا كِفاءَ له: لا مماثِل. المعجم الوسيط، ص ٧٩١.

إدراك الله تعالى كإدراكنا للظواهر المادية الموجودة حولنا، هو قوله تعالى: ﴿...لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ...﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه]، وقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام].

وذلك لأن قوله تعالى: [﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾] يَسُدُّ الطريق أمام كل محاولاتِ الذِّهن البشريِّ، لتصوُّر الله تعالى وتخيُّلِهِ، إذْ كلُّ ما يُدرِكُهُ الذهن ويتخيَّلُهُ، بعيدٌ عن مشابـهة الله الخالق، ولهذا قال علماؤنا رحمهم الله في هذا المجال: (وكلُّ ما خطَرَ ببالِكَ، فالله بخلافِ ذلك).

وكذلك قوله تعالى: [﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾] يُبيِّـن الله تعالى فيه بأنه يعلم كلَّ شيءٍ عن عباده[١]، ولكن علمهم لا يُحيطُ به كَي يَعرِفوه على حقيقته، وكما هو سبحانه وتعالى.

ومثله قوله تعالى: [﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾]، حيث نفى جلَّ وعلا أن تتمكَّنَ الأبصارُ من إدراكه (أي رؤيته)، ثم أخبـر بأنّه هو يُدْرِكُ الأَبصارَ، ثـم وصف نفسه باللُّطف والخبـرة بخلقِهِ.

والآن بعد توضيح الحقائق الثلاث التـي ـ كما قلنا ـ تُعْتَبـرُ المعالم الأساسية على الطريق السَّويِّ الصّحيح للتعامل مع أسـماء الله الحُسنى وصفاته العُلى، فَلْنَشرَعْ في تبيين ما عرَّفنا به في بداية هذا المبْحث، وما اعتبرناه الطريق الصحيح الوحيد للتعامل مع أسماءِ الله وصفاته، فنقول:

اتَّفق العلماءُ رحمهم الله في مجال كيفية التعامل مع أسماء الله وصفاته على قاعدة رصينة مفادها، هو: (نُثبِتُ لله تعالى كلَّ ما أَثْبَتَهُ هو أو رَسولُهُ ﷺ لِنفسه، من أسـماءٍ وصفاتٍ، مِنْ غيرِ تـمثيلٍ ولا تشبيهٍ، ونَنْفي

(١) لأن من علم ماضي أحدٍ ومستقبله، فهو قد عَرَفَهُ على حقيقته، ولا يخفى عليه منه شيء، والمقصود بـ[﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾] هو ماضيهم ومستقبلهم، أو كلّ شؤونهم وحالاتهم.

عنه ما نفاه هو أو رسولُهُ عنه، تنزيهاً له، مِنْ غير تعطيلٍ ولا تأويلٍ).

ولنُمثِّل بصفة: (استواء الله تعالى على عَرْشه) توضيحاً لهذه القاعدة، فنقول:

إن الله تعالى وصف نَفْسَه في سبع آيات من كتابه الحكيم ـ قد ذكرناها من قبل ـ بأنه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾، لذا فنحْنُ مُلْزَمُون بالقول بأن الله تعالى (مَسْتوٍ على عَرْشه)، لأنه هكذا وصَفَ نَفْسَه وهو العليم الحكيم، ولكن بِما أَنَّ الله تعالى [﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾]، فنحنُ إذن مُستيقنون أَنَّ استواءَه على العرش ـ والإستواء إذا عدِّي بـ(على) يعني الصعودَ والإرتفاعَ والإستقرار ـ ليس هو بالمعنى والمفهوم الذي نَعْرِفُهُ نحن لـ(الإستواء)، عندما نستعملُهُ فيما بيننا ـ أي للمخلوقات ـ، بل استواؤهُ سبحانه على عَرْشِهِ، له مَعنى ومفهومٌ يليق به سبحانه، ولكن نحن لا نَعلمهُ، وهذا هو معنى قوله تعالى: [﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾].

ولهذا لمّا سُئِل (مالك) رحمه الله تعالى عن معنى قوله تعالى: [﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾] قال: (الإستواء معلومٌ، والكيف مجهولٌ، والإيمان به واجبٌ).

وكذلك سائر صفاته سبحانه وتعالى ـ وكذلك أسماؤه ـ يَجِبُ أن يُنظر إليها وتُفْهَم وتُعامَل على هذا المِنْوال، وحسب هذه القاعدة.

فمن ناحيةٍ نُثْبِتُ لله تعالى، كلَّ ما سَمَّى بهِ أو وصف بهِ نَفْسَه، من أسماءٍ وصفاتٍ وشؤون، ولكن نَحْذر أشدَّ الحَذَر، من أن نُمثِّلها أو نُشبِّهها بغيرها من أسماء المخلوقين وأوصافهم وشؤونهم، فلا نقول مثلاً: بأنَّ (كلام الله) أو (وجه الله) أو (رحمة الله) أو (غضب الله) يُشْبِهُ ما لغيره من تلك الأشياء، بل نقول: نحن نعلم ونعتقد جازمين بأنَّ الله تعالى له (كلامٌ) و(وجْهُ) و(رحمةٌ) و(غضبٌ)، لأن الوحيَ المعصومَ أخبَرنا بهذا، ولكن لا ندري كيفية كلام الله، ووجهه، ورحمته، وغضبه ـ وهكذا سائر صفاته ـ، لأن الوحي أيضاً أخبرنا بأن الله تعالى: [﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾]!

وبناءً على ما مرّ:

فنحن من ناحيةٍ أثبَتْنا لله تبارك وتعالى، ما أَثْبَتَهُ له الوحيُ المعصومُ من الخطأ، من أسماءٍ وصفاتٍ، ولكن في الوقت نفسه، تجنَّبْنا التمثيل والتشبيه الّذي مَنَعَهُ الوحيُ كذلك.

ومن ناحيةٍ أُخرى، نَنْفي عن الله تعالى، ما نفاه عَنْ نَفْسِهِ، والذي من ضِمْنِهِ: تمثيلُ وتَشبيهُ أسمائه وصفاتِهِ، بما لغيره من أسماءٍ وصفاتٍ، ولكن هَهُنا أيضاً نحذر أشدَّ الحَذَر من الوقوع في ورطة التعطيل أو التأويل، بذريعة تَنْزيه الله تعالى عمّا لا يليق به!

و(التعطيل) هو أن نَنْفيَ عن الله تعالى ما سمَّى أو وصَفَ به نَفْسَه، والتأويل المرفوض الذي نعنيه هنا، هو: تفسير الألفاظ والكلمات التي جعلت أسماءً وصفاتٍ لله، تفسيراً لا تُجيزُهُ اللُّغَةُ، ولا تَسْمَحُ به قواعِدُها، والذي يُفقِدُ الأسماءَ والصفاتِ معانِيَها ومحتوياتِها، وهذا في الحقيقة (تحريف) وليس تأويلاً، وإن سُمِّي باسمه، كما سنُبيِّن معنى كلمة التأويل في المبحث الخامس بإذن الله.

فمثلاً وصف الله تعالى نفسه في كثير من آيات كتابه الحكيم، بأنه هو فوق خلقه من جهة السماء والعلو، وأحدُ أسمائِهِ هو (العليّ) ـ وقد تحدَّثنا عن علوِّ الله تعالى وكونه فوق الخلق في الفصل الأول من الكتاب الأول ـ، لذا: يجبُ أن نِصِفَ الله تعالى بأنه هو فوق خلقه، ولكن من دون أن نُمَثِّل ونُشبِّه فوقيّته وعلوَّه بما في ذهننا، من مفهوم العُلوِّ والفوقية، والذي ليس سوى تصوّراتٍ مُنْتَزَعَةٍ من واقع المخلوقات، بل نقول: إنَّ علوَّ الله تعالى وفوقيته على مخلوقاته، لَهُ معنىً ومفهومٌ خاص، وله كيفية لائقة بالله تعالى، وهي مجهولة لنا، ولكنَّنا نعلم قطعاً أنّها هي غير التي نفهمها، والتي لها في أذهاننا صُور مُنتزعةٌ من واقع المخلوقات، وذلك لأن الخالق جلَّ وعلا [﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾].

ولكن كما أنّنا يجب علينا الحَذَرُ من الوقوع في هُوَّةِ التمثيل والتشبيه عند إثبات أسماءِ الله تعالى وصفاته، كذلك يجب علينا تجنُّبُ الوقوع في مخاضة التعطيل والتأويل، عند تنزيهنا له سبحانه وتعالى عمّا لا يليقَ به،

وخصوصاً قياسِهِ على مخلوقاتِهِ، وتمثيلِ أو تشبيهِ أسمائِهِ وصفاته، بـما للمخلوقات من أسماءٍ وصفاتٍ.

فـلا نقـول:

طالما أنَّ للعلوِّ والفوقيـة مَعْنَىً متبادِراً إلى الذِّهنِ، والذي لا يليق بالله تعالى، وهو كونُ شيءٍ فوقَ شيءٍ آخَر مكانياً، إذاً: يجبُ أن نُنَـزِّه الله تعالى عن أن نصفه بتلك الصفة، أو أنْ نُسَمِّيَهُ بذلك الإسم! وذلك لأن تعطيل الله تعالى وتجريدِهِ عن أسـمائِهِ وصفاتِهِ بذريعة تَنْزيْهِـهِ، مثله مثل تـمثيله وتشبيهه بغيـره، بذريعة إثبات الأسـماء والصفات له، سواء بسواءٍ، ومصيـر التأويل (الذي هو في الحقيقة تـحريف) إلى التعطيل، فَهُما (أي التعطيل والتأويل بـهذا الـمعنى) شيءٌ واحدٌ، بل قَلَّما تَلَوَّثَ من تلَوَّثَ بالتعطيل، إلّا جرّاء اللّجوءِ للتأويل غير الصحيح.

ومـمّا يجدُرُ بالذكر في هذا المقام:

أن هناك ألفاظاً في كتاب الله الحكيم أُضيفت إلى الله تبارك وتعالى، قد اختلف العلماءُ بشأنها مثل: (اليـد والعيـن والساق) والتي وردت في آياتٍ معدودةٍ، وهي:

١ ـ اليـد: وجاء ذكر اليد في هذه الآيات:

١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ . . .﴾ [الفتح: ١٠].

٢ ـ ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ. . .﴾ [ص: ٧٥].

٣ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يس].

٤ ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة].

٥ ـ ﴿. . . وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ. . .﴾ [الزمر: ٦٧].

٢ ـ العَـيْـن: كما جاء ذكر العين في هذه الآيات:

١ ـ ﴿. . . وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩].

٢ ـ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون].

٣ ـ ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا. . .﴾ [الطور: ٤٨].

٣ ـ السـاق: وجاء ذكر السّاق في آية واحدة فحسب، وهي: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [القلم].

وبدون الخوض في التفاصيل، أقول:

بعد التأمُّل في السياقات التي وردت فيها هذه الألفاظَ، يبدو لي أن هذه الألفاظ لم يُقْصَدْ بها التعريفُ ببعض صفات الله، بدليل:

١) الآيات التي أدْرَجْتُها هنا، هي كلْ الآيات التي وردت فيها هذه الألفاظ، مع أن الله تعالى قد أكثر جداً من الآيات التي تتحدَّث عن أسمائه وصفاته، وتكرَّر فيها كثيراً ذكرُ الألفاظ والكلمات الدّالّة على أسمائه وصفاته، فمنها ما جاوز تكرارُ ورودها المائَةَ مرةً وأكثر.

٢) إن كلمة (اليد) جاءت مفردة ومُثنّاة وجَمعاً، وكذلك (العين) جاءت مُفْردة وجمعاً، وهذا دليل على أنه لَمْ يُقْصَدْ بهما صِفَتَيْن ثابِتَتَيْنِ لله تعالى، وإلّا لحُدِّد عَدَدُهُما، كما حدَّد الله تعالى صفة (الوَجْه) فلم يذكر في كل القرآن إلّا مُفرداً.

٣) وكلمة (السّاق) لَمْ تُضَفْ إلى الله بل جاءت مُطلقَةً، لذا لا يجوزُ

أن تُضاف إليه جلَّ وعلا، ونجعل لله تعالى على أساسٍ ـ على الأقل مشكوك فيه ـ صفة أخرى لله تعالى باسم (الساق)[١]؟!

وأوجِزُ موقفي تجاه هذه الألفاظ بقولي:

طالما أن اللغة العربية وأساليبها البلاغية، تَسَعُ هذه الألفاظ بمعاني حقيقية أو مجازية قد استعملها العربُ بها، فلا يَضْطَرُّنا شيءٌ أن نجعلها أدلّة على صفاتٍ لله تعالى، ليست عليها أدلّة أخرى، ولكن إذا ثبت في السنة النبوية نصٌّ يُحدِّد أن مدلولات هذه الألفاظ صفاتٌ لله تعالى وكذلك غيرها، فَنَضَعُها على العين والرأس، إذ ما لأحَدٍ قولٌ ـ في مسألة ـ بعد قول رسول الله ﷺ ما دام ثابتة النسبة إليه، ولهذا استثنيتُ كلمة (وجه) لأنه ـ بالإضافة إلى الدليل الذي تقدّم ذكره ـ وصفَ رسولُ الله ﷺ في حديث له رواه (مسلم) وجْهَ الله الكريم بقوله: «**إن الله ﷻ لا ينام ولا ينبغى له أن ينام... حجابه النور لو كشفه، لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[٢].

ثم حتى إذا ما أَصرَّ البعضُ على أن هذه الآيات والألفاظ التي وردت فيها، أدلَّةٌ كافيةٌ على وجود صفات (اليد) و(العين) و(الساق)، لله تعالى، فليست هناك مُشْكِلَةٌ، ما دُمْنا مُقيَّدين بالقواعد الثلاث التي ذكرناها، والتي تحفَظُنا من كلّ من: التمثيل والتشبيه من طَرَفٍ، ومن التعطيل والتأويل، من طرفٍ آخر.

---

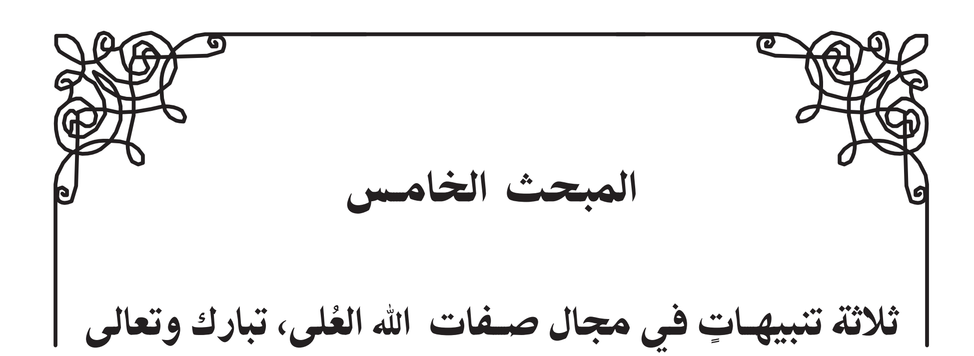
(١) ثم وجدت في (صحيح البخاري) هذا الحديث (عن أبي سعيد ﵁ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**يَكْشِفُ ربُّنا عن ساقِهِ، فيسجُدُ له كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رئاءً وسُمْعةً، فيذهب ليسجُدَ فيعود ظهره طبقاً واحداً**». (صحيح البخاري)، رقم: (٤٩١٩).
ولكن ينبغي التَنبُّهُ إلى أن تعبير (كشف عن ساقِهِ) تعبير مشهور في اللغة العربية، وجرى مجرى المَثَلِ، ويُقْصَدُ به إظهار الجِدِّ والعَزْمِ وقت الشِّدَّة.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٧٩).

إذ حينذاك يقال:

إن لله تعالى صِفَةً اسمها (يَدْ)، ولكن لا ندري كيفيتها وحقيقتها، والقَدَرُ الـمُتَيقَّـنُ لنا عنها فقط، هو أنَّها ليست بالـمفهوم والـمعنى الذي نعرفه نحن لِكلمةِ اليد، والتي نستعملها لغير الله تعالى، وهكذا في العين والسّاق، إذ نحن نستعمل هذه الألفاظ لجوارح مخصوصة، ولكن الله تعالى مُنَزَّه عن الجسميَّة والجوارح.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الخامس

ثلاثة تنبيهاتٍ في مجال صفات الله العُلى، تبارك وتعالى

أولاً: إنَّ تحديدَ صفات الله تعالى بسبع أو أربع عشرة أو عشرين... إلخ، خَطَأٌ، كما فعلت ذلك المدارس الكلامية، وذلك لأنَّ التحديد مهما تكن مُبرِّراته يُنافي آياتِ كتاب الله المحكمات، التي تَصِفُ الله تبارك وتعالى بصفاتٍ كثيرة متعدِّدة، لذا يجب أن نَتَّبعَ كتابَ الله ونَصفَ الله العليَّ العظيم سبحانه بما وصَفَ به نَفْسَه، فلا نَزِيدَ عليه ولا نَنْقُصَ منه شيئاً.

ثانياً: تقسيم صفات الله تعالى إلى خبرية وغير خبرية، لا مبرِّر لَهُ، لأنَّ صفات الله العُلى كلَّها خبرية، وليس بَعْضَها فحسب، والتي لم يُخْبِرْ بها الوحيُ، لا يمكن اعتبارها من صفات الله، وإن دَلَّتْ عليها مائة دليلٌ عقليّ ـ على سبيل الفرض ـ، وذلك لأن أسماءَ الله الحُسنى وصفاته العُلى من الغيب الذي لا يعلمه سوى علاّم الغيوب جلَّ وعلا، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ...﴾ [النمل: ٦٥]، وإذا كان غير الله تعالى لا يعلم الغيبَ داخل نطاق السَّموات والأرض، فكيف بالغيب الذي هو خارج نطاقِهما!!

ثمَّ إن أسماء الله الحُسنى وصفاته العُلى، جُزءٌ من الإيمان، والإيمان لا يُعْرَفُ إلّا عن طريق الوحي، كما قال تعالى مخاطباً نبيَّه الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾

[الشورى: ٥٢]، وقد فصَّلنا القول عن هذا الموضوع في الفصل الأول من هذا الباب ـ أي الكتاب الثاني من هذه الموسوعة ـ.

هذا ولا نقصد بقولنا: (وإن دلَّت عليها مائة دليلٍ عَقْليّ)، أنَّ العَقْلَ قد يتناقَضُ مع الوحي، أو يمكن أن يجزِم العقلُ السليم بشيءٍ ويرفُضَهُ الوحيُ، لأنَّ هذا محالٌ، إذْ ما دام العقلُ سليماً، والوحي صحيحاً ـ أي في كونه وحياً ـ يَستحيلُ أن يتصادما، وعلماءُ الإسلام متفقون على هذا، وكتبوا كُتُباً وأَبْحاثاً كثيرة بهذا الصَّدد، ولعلَّ أفضَلَ ما كُتِبَ في هذا المجال، هو كتاب: (درءُ التعارض بين العقل والنقل) لشِيَخْ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله تعالى، وإنَّما قَصَدنا بذلك أنَّ أسماءَ الله وصفاتِهِ كلَّها لا تثبت إلّا بالوحي وإِخْبارِ الله، لذا: فلا معنى لتخصيص بَعْضِها بالوحي والخَبَرِ دون بعضها الآخر، ثم إنَّ العقل وإن كان لا يُدْرِكُ من عنده الحقائِقَ التي تتوقَّفُ مَعرِفَتُها على مجيء الوحي، وخاصة منها التي تتعلَّق بالله تعالى، ولكنَّ كلَّ ما يأتـي به الوحيُ، يُصدِّقه العقلُ فيه، فلا معنى اذاً لتخصيص بعض صفات الله بالعقل، وجعلها تحت عنوان: (الصفات العقلية) لأنه إنْ كان المقصودُ بهذا العنوان، هو تحديدَ الصفات الربانية التي يُقِرُّ بـها العقلُ ويسلِّمُ، بعد مجيء الوحي بها، فالعقل يُقِرُّ بصفات الله العلى جميعاً، وأمّا إن كان المقصودُ به تمييزَ الصفاتِ التي يعرفها العقلُ قبل ورد الوحي، من التي لا يعرفها، فهو خطأ، وذلك لأنَّ العقل وإن كان يعرف مجملاً أن الله تعالى متصفٌ بكل صفات الكمال، ولكِنَّ هذا الإعتقادَ الإجماليَّ الـمَبْنـيَّ على الظن شيء، والمعرفة التفصيلية الحقيقية التي يأتـي بـها الوحي، شيء آخر.

وبنـاءً عليـه:

فصفات الله العُلى كُلُّها خبرية، من حَيْث مَعْرِفَتُها عن طريق الوحي وخبـر السَّماء، وكذلك هي كلُّها عقليةٌ، من حيث تقبّلُ العقلِ لها وتسليمه بها، بعد إخبار الوحي عنها.

وتبرير تقسيم الأسماء والصفات الى خبرية وعقلية، بأنَّ بَعْضَها مدارُها

على الوحي والخبر، وليس للعقل فيها مَجالٌ، وبَعْضَها الآخر، للعقل فيها مجالٌ، ليس بشيء، لأنَّ العَقْلَ لا يدرك كُنْهَ أيٍّ من الأسماء والصفات الربانية، ولكن بعد مجيء الوحي بها، يُسَلِّمُ بها جميعاً، ولا يتصادَمُ أي منها مع العقل، إذاً: ففيم التفريق؟!

ثالثاً: إنَّ كلمة (التأويل) لم تستعمل في كتاب الله إلّا بِمعنى مآلِ الشَّيء ومَصيرِه وعاقِبَتِهِ، ومن يتأمَّلْ تلك الكلمة في السَّياقات المختلفة التي وردت فيها، يُدْرِكْ هذا بوضوح، وهذه بعض الآيات بهذا الصَّدد:

١ ـ ﴿... وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ...﴾ [يوسف: ١٠٠]، أي: هذا مآلُ رؤياي وهذه نتيجتها، وقد جعل ربِّي تلك الرؤيا التي رأيتها من قبل، صادِقةً.

٢ ـ ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ...﴾ [الأعراف: ٥٢]، والمقصود بكلمة: (تأويلَهُ) و(تأويلُهُ) هو عاقبة وتحقّق ما أخبر به كتاب الله من الوعد والوعيد.

٣ ـ ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾ [الإسراء]، ومعنى الآية هو: أنَّ توفية الكيل، والوزن بالميزان العدلِ، خيرٌ لكم في الحياة الدنيا، وأحسن عاقبةً في الآخرة، من التطفيف والخيانة في الكيل والوزن.

هذا هو معنى كلمة (التأويل) في أصل اللغة، ولكنَّ العلماءَ استعملوها بِمَعْنيين آخَرَيْنِ أيضاً، وهما:

١ ـ التفسير والشرح: وبهذا المعنى استعملها (أبو جعفر الطَّبري) المشهور بشيخ المفسِّرين في تفسيرِهِ (جامع البيان) كثيراً، إذ يقول بعد إدراج الآيات: (وتأويل هذه الآية عندنا...).

٢ ـ صَرْفُ كلمةٍ أو جملة عن معناها الظاهري المتبادِرِ إلى الذِّهن،

إلى معنىً آخر، لوجود قرينةٍ تفرِضُ المعنى الثانـي، أو لِوجُود مانعٍ يمنع المعنى الظاهري:

وبـهذا المعنى استعملَ عُلماءُ الكلام الكلمة المذكورة، بحقٍ في بعض الأحيان، وبغير حقٍ في أحيانٍ كثيرة، أما استعمالها بحق، فهو حين توجَدُ قرينةٌ تَفْرِضُ معنى آخر غير، الذي يتبادَرُ إلى الذِّهن، أو يوجد مانعٌ يَمْنَعُ المعنى المتبادِرَ الظاهر، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿...وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، إذْ أجمع العلماءُ قاطبةً على وجوبِ تأويل جـملة: [﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾] أي صَرْفِها عن معناها الظاهريِّ، وهو: كون الله تعالى مع عباده في كل مكانٍ وآنٍ بذاتِهِ، لاِستحالة هذا المعنى في حق الله تعالى، والذي أخبرنا أنه فوق عرشه! لِذا قال العلماء: إنَّ المقصودَ بقوله تعالى: [﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾] أي: هو معكم بقدرته وعلمه ويسمعكم ويراكم[(١)]، والدليل على صحة ووجوب هذا التأويل لهذه الجملة، علاوة على المانع الذي يمنعنا من المعنى الظاهري المتبادر إلى الذهن من الآية، هو قولُه تعالى في ختام الآية: [﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾].

وأما استعمالُها بغير حَقّ، فهو حين لا يوجَدُ مُبرِّرٌ، بَلْ مُوجِبٌ لِصَرْفِ الآية عن معناها الظاهري، مثل تأويل (استواء الله على العرش) بِجَعْل كلمة (استوى) بمعنى (استولى) أو تأويل كون الله تعالى في السَّماء ـ على المعنى الذي بيّناه ـ بالقول: بأن الله تعالى أمرُهُ في السَّماء، وهكذا.

وأنا أرى أنه قد حدث كلٌّ من الإفراط والتفريط في هذا الموضوع، حيث وسَّعَ بَعْضُ علماء الكلام دائِرَةَ التأويل، حتى شَمَلوا بـها كثيراً من الآيات التي لا تحتمل التأويلَ، ومن ثَمَّ أوصَلَتْهُم المبالَغَةُ والإفراطُ فيه، إلى التحريف عموماً، وإلى التعطيل في الأسماءِ والصفات خصوصاً، والجهميَّة والمعطِّلة، كانوا أسبَقَ أهل البدع إلى هذا الميدان وفيه، وتَلِيهِمُ المعتزلة،

---

(١) انظر على سبيل المثال: (تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنّان) عبدالرحمٰن بن ناصر السعدي، ص ٨٣٨، إذ يقول: (وهذه المعية معية العلم والإطِّلاع..).

ثم كلٌّ من الأشاعرة والماتريدية وخاصة في العصور الأخيرة.

وبعضهم ـ كردِّ فعلٍ على المُفْرِطين في التأويل ـ ضَيَّق بل سَدَّ باب التأويل، حتى أمام النّصوص التي لا مندوحة لنا من صرفها عن معناها الظاهري إلى معانٍ أخرى، لوجود قرائِن أو موانع، وتحتمل معاني أخرى تَسَعُها أصولُ اللغة العربية وقَواعِدُها، والمدرسة الحنبلية عموماً، تَبنَّتْ هذا الإتجاهَ، وخيرُ مَن يُمَثِّلُ هذا الإتجاه هو شيخ الإسلام (ابن تيمية) الذي أنكر وجودَ المعاني المجازية في كتاب الله، بخلاف جمهرة العلماء، وضَخَّم أكثرَ من اللازم مسألة (الصفات) التي سُمِّيت بالصفات الخبرية، حتى يشعر المُطالِعُ لكتبه التي كتبها عن الإيمان والعقيدة، بأن مسألة الصفات الخبرية، هي أهمُّ قضايا الإيمان والعقيدة، بسبب ما بَذَلَها من جهودٍ كثيرة لتثبيتها والردِّ على المخالفين له فيها!

ولا يُنْكَرُ فَضْلُ (ابن تيمية) وسُمُوُّ مقامِهِ في العلم رحمه الله تعالى، ولكن الحق أحق أن يقال، ورُبَّما له العذر لموقفه المذكور، لكثرة أهل البدع المُعَطِّلين والمؤوِّلين للأسماء والصفات آنذاك، إذ كان فيهم من كان يُنكِرُ نسبة أية صفة إلى الله، وذلك ـ بزعمهم ـ دفاعاً عن توحيد الله وحَذَراً من الوقوع في نسبة التعدّد إلى الله الأحد، بسبب إضافة الصفات القديمة إليه، فَيَحدُثُ نتيجة لذلك (تعدُّد القُدماء)! ووَحْدانيّةُ الله تعالى في غنىً عن ذلك الدفاع الخطأ، والذي أدّى بأولئك إلى تلك العاقبة الوخيمة هو: حَيْدَتُهم عن الكتاب والسنة، وقياسُهم صفاتِ الله الخالق جلّ شأنه على صفات المخلوقين، من جرّاءِ وقوعهم تحت تأثير الفلسفة اليونانية عامةً، والمنطق الأَرَسْطي خصوصاً.

ولا شك أن الإستمساك بالكتاب والسنة، هو العاصِمُ الوحيدُ من الوقوع في الإفراط والتفريط، سواءٌ في هذا المجال الذي نحن بصدده، أو غيره من المجالات الأخرى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب]، وما إطاعةُ الله والرسولِ المُثْمِرَةِ

للتقوى والقولِ السَّديد والفوزِ العظيم، إلّا الإستمساكُ بالكتاب والسنة.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء](1).

وبهذا نُنْهي هذا الفصل السادس، وننتقل إلى الفصل السّابع والأخير من هذا الكتاب.



(١) وقد تحدثنا بإسهاب عن الأسماء والصفات الرّبانية في كتابنا: (الإيمان والعقيدة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة) والمكوَّن من ستة مجلدات باللغة الكوردية، وخَصَّصنا لهذا الموضوع المجلد الثالث كُلَّهُ.

ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net



الفصل السابع

الإيمان بألوهية الله تعالى، وولايته، وحاكميته

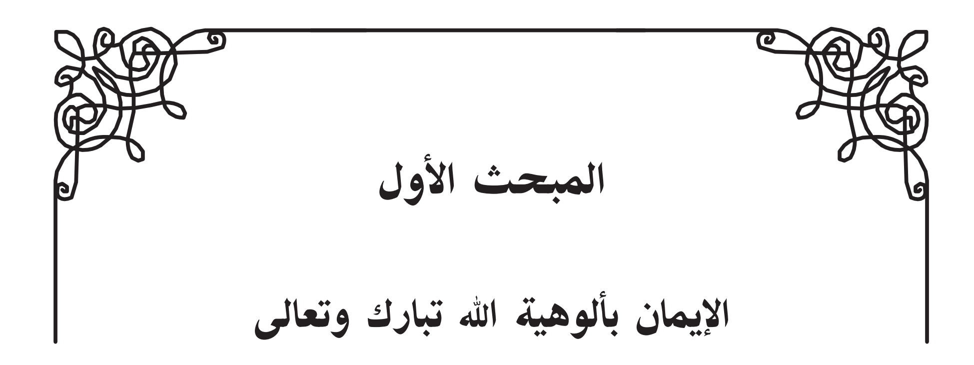
يشتمل هذا المبحث على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإيمان بألوهية الله تبارك وتعالى.

المبحث الثاني: الإيمان بولاية الله سبحانه وتعالى.

المبحث الثالث: الإيمان بحاكمية الله عز وجل.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الأول

الإيمان بألوهية الله تبارك وتعالى

قد أكثر كتابُ الله الحكيم من ذكر ألوهية الله جَلَّ وعلا، إثباتاً لها وأمراً بها، ونفياً لِضِدِّها ـ وهو الشرك ـ ونهياً عنه.

وهذه بعض الآيات الواردة فيها، نستمع إليها ونَتَدبَّرُها، ثم نَقتَبِسُ أضواءً من أنوارها، لِنَسْتجلي بها مفهومَ ألوهيَّةِ الله تعالى ووحدانيته فيها.

قال الله العظيم جلَّ وعلا:

١ ـ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة].

٢ ـ ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ...﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٣ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف].

٤ ـ ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾﴾ [الصافات].

٥ ـ ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص].

٦ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾﴾ [ص].

٧ ـ ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ . . .﴾ [محمد: ٦٦].

٨ ـ ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٩٢﴾ [المؤمنون].

٩ ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ [الأنبياء].

١٠ ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤﴾ [الأنبياء].

١١ ـ ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٣ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤﴾ [النمل].

١٢ ـ ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣﴾ [النحل].

١٣ ـ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء].

١٤ ـ ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ

فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل].

١٥ - ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾﴾، ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾﴾، ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف].

١٦ - ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات].

١٧ - ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة].

١٨ - ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف].

١٩ - ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه].

٢٠ - ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف].

٢١ - ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف].

٢٢ ـ ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص].

٢٣ ـ ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء].

٢٤ ـ ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل].

٢٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة].

٢٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾ [الزمر].

٢٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر].

٢٨ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر].

٢٩ ـ ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر].

٣٠ ـ ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت].

٣١ ـ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام].

٣٢ ـ ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

٣٣ ـ ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر].

٣٤ ـ ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر].

٣٥ ـ ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام].

٣٦ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء].

٣٧ ـ ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج].

٣٨ ـ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر].

٣٩ ـ ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس].

٤٠ ـ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام].

٤١ ـ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم].

٤٢ ـ ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ [ص].

٤٣ ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات].

٤٤ ـ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر].

٤٥ ـ ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء].

٤٦ ـ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي . . .﴾ [القصص: ٣٨].

٤٧ ـ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء].

٤٨ ـ ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم].

٤٩ ـ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

٥٠ ـ ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء].

٥١ ـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة].

٥٢ ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور].

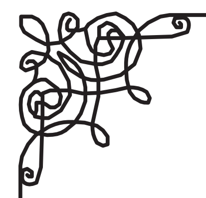
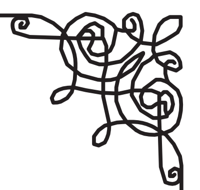
٥٣ ـ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ

ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان].

٥٤ ـ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

٥٥ ـ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر].

وَتدُلُّنا هذه الآياتُ المباركاتُ في مجال التعرُّف على ألوهية الله تعالى ووحدانيَّتِهِ فيها، على حقائق جَمَّة، نحاولُ تلخِيصَها في الفقرات العشرين الآتية:

الأولـى: توحيدُ الله تعالـى في ألوهيَّته، هوَ مَرْكَزُ ثِقَـلِ الدِّين وقُطْـبُ رَحـاه، لِذا اهتَمَّ به كتابُ الله المبيـن أعظَمَ اهتـمام

وهناك آيات كثيـرة جداً في هذا المجـال، لا مجال لِسَرْدِها والتعليق عليها لتوضيح كيفية دلالتها، لذا اكتفينا بسبعة أمثلة منها، وهي الآيات التي أدرجناها حسب تسلسلنا فـي الأرقام (١ إلى ٧)، وهذه إيضاحاتٌ مُوجَزَةٌ عنـها[1]:

١ ـ الآيـة (١٦٣) من (البقـرة):

يخاطب الله تعالى الناس في هذه الآية قائلاً: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ أي: إلهكم الحق الذي لا إلهَ سواه، واحِدٌ لا ثانـي له ولا شريك، وهو الله العظيم جلّ وعلا، ثم يؤكِّد ذلك بقوله: [﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾] أي: لا يوجد إلٰه غيره سبحانه، فهو متفرِّدٌ بالألوهية، ثـم يُعرِّف نَفْسَه سبحانه بقوله: [﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾] وذلك لأن امتلاك الرحمة كي يرحم بها عابديه في الدنيا والآخرة، أهَمُّ خصائِصِ الإله الحق جلّ شأنه.

وصيغة (فعلان) تدلُّ على التجدُّد والحالة الفعلية، كما أنَّ صيغة (فعيل) تدلّ على الثبوت والإستمرار، ولـهذا وصف الله العليم رحمته بكلتا

(١) ومن الواضح أن الفقرات الآتية تباعاً، ستُلقي مزيداً من الضوء على أهمية التوحيد ومركزيته.

الصّـيغتين، إذْ رحمته متجلِّية وجارية في الدنيا لكل مخلوقاته، وفي الآخرة ثابتة ومستمرة لأوليائه، كما قال تعالى بـهذا الصّدد: ﴿. . . ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف].

حيث ذكر سبحانه شـمولية رحـمته في الدنيا لكل شيء، واختصاصها في الآخرة بأهل الإيـمان والتقوى.

وههنا نكتة يجب التنبُّه لـها، وهي:

أن الله تعالـى في الوقت الذي نفى في آيات كثيرة، وجود إلـهٍ آخر غيـره، سـمَّى في آيات أخـرى معبـوداتِ الكفار والمشركين (آلـهة)، مثل قوله تعـالى:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود].

وقولـه تعـالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [يس].

وسِرُّ المسـألة: أَنَّ الله تعالـى عندما ينفي وجودَ إلهٍ غيـره، يَقْصُدُ به الإلَه الحقَّ، وليس الإلَهُ الحقُّ سـوى الله الخالق الرب المالك جلّ شأنه، ولكن عندما يُسَمِّي معبوداتِ الكفار والمشركين (آلـهةً)، فالمقصود الآلهة المزعومة، أو الأصح أن نقول: الأشياء التي ظنَّها الكفارُ والمشركون جهلاً آلـهةً، مع أنَّها لا تملك من الألوهية فتيـلاً[1]، بلْ إمّا هي أشياء مخلوقة سواء كانت شمساً أو قمراً أو بشراً أو حجراً أو بقراً..الخ، أو هي خيالات موهومة ليس لها وجود خارجي.

(١) الفتيل هو القشرة الرقيقة البيضاءِ على نواة التمْرَة ويُضْربُ بها المثل للشيء القليل التافه. أنظر: المصباح المنير، ص ٢٣٩.

٢ ـ الآيـة (٢٥٥) من (البـقـرة):

وفي هذه الآية المباركة المشهورة بـ(آية الكرسي) والتي سمّاها رسولُ الله ﷺ أعظم آية في كتاب الله، كما جاء في صحيح مسلم برقم: (٢٨١٠)، ونقصد الجملة الأولى منها: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ يصف الله تبارك وتعالى نفسه بالوحدانية في ألوهيَّتِهِ، ثم يصف سبحانه نَفْسه بالحياة الكاملة التي لا تُشْبِهُ حياة المخلوقين، و(القيوم) صيغة مبالغة من (القائم) لأن الله تعالى كما أنه حيّ وقائم بذاته، كذلك هو مدبِّر لشؤون خلقه وقيّوم لأموره، لا يغفل عنها ولا لحظة، كما قال في الجملة التالية: [﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾] والسِّنَةُ هي النُّعاس، والنوم معروف.

٣ ـ الآيـة (٨٤) من (الزّخـرف):

وفـي هـذه الآيـة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ يبـيِّنُ الله تبارك وتعالى أنه لا يوجد لا في السماءِ ولا في الأرض، إلهٌ سواه، فهو الإله الوحيد في الوجود كلِّه، عُلْوِّيه وسُفْلِيّه، ثم يصف نفسه بالحكمة والعلم، لأن الإله الحق جلَّ وعلا، حكيم في تدبير أمور خلقه، وعليمٌ بأحوالهم.

والمقصود بـهذا الإخبار الإلـهيِّ، هو ألّا يَعْبُدَ الناسُ سوى الله تعالى، ولا يتخذوا غَيْرَهُ إلـهاً زُوْراً وكذباً، إذْ لا يوجدُ في الحقيقة إلـهٌ سواه.

٤ ـ الآيـات (١ إلـى ٥) من (الصّـافات)

وفي هذه الآيات يقسم سبحانه بالملائكة الكرام، التي تصْطَفُّ صَفّاً، والتي تزجر زَجْراً، وتتـلوا ذكراً، والظّاهر أن المقصود بالمزجورين والمطرودين الذين تزجرهم الملائكة وتطردهم، هم الشياطين الذين يحاولون استراق السمع، كما أن المقصود بتلاوة الذكر، هو إيحاءُ الملائكة إلى الأنبياء، وتلاوة كلام الله وأوامره عليهم.

وبعد هذه الأقسام الثلاثة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴿٤﴾﴾ ثم

يعرِّفُ الإله الواحد جلَّ وعلا، بقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ إذن: لا يُوجَدُ إلهٌ حقيقيٌّ يستحق العبادَةَ سوى الله، رب السموات والأرض جلَّ شأنه، وإنَّما استحق الله تعالى العبادة من خلقه، لأنه خالقهم وربهم ومالكهم، كما أنه هو خالق ورب ومالك كلِّ شيء، وبناءً عليه: مَنْ لا حَظَّ له في الخالقية والربوبيَّة والمالكية، فَلا حَقَّ له في العبادة!

والمقصود بكلمة (المشارق) إمّا هو مشارق الكواكب التي يَلفُّها دوماً اللَّيلُ والنَّهار، وأرضنا واحدة منها، وإمّا هو المطالع المتوزِّعة على الكرة الأرضية، إذْ من المعلوم أنه يحصل في كل لحظةٍ على وجه الأرض مشرق - وفي مقابله مغرب - خاصٌ، من جـرّاءِ دَوَرانِ الأرض حول نفسها أمام الشمس.

٥ - الآيـة (٧٠) من (القصـص)

وفي هذه الآية المباركة: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ يُعرِّفُ بنا سبحانه نفسه باسمه المبارك العَلَم (الله) بأربعة أوصاف وشؤون:

أ - ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يوجد إله ومعبود حقٌّ، سواه.

ب - ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي: هو وحده المستحق للحمد والثناء المطلق في الدارين.

ج - ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: لا يملك الحُكْمَ القَدَريَّ سِواهُ، كما لا يستحق الحُكْمَ الشرعيَّ غيره.

د - ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: ومصيركم للحساب والجزاء إليه وحده.

وبناءً عليه، يجب علينا:

١ - أن نعْبده هو وحده (بالمعنى الشامل للعبادة، والذي سَنُبيِّنه فيما بعد).

٢ - أن نحمده ونثني عليه وحده الحمد والثناء المطلق.

٣ - أن نطيعه هو وحده الطاعة المطلقة.

٤. أن نَستعدّ بِجِدّ للقائه، كي نفوز برضوانه.

٦ ـ الآيتـان (٦٥ ـ ٦٦) من (ص):

وفي هاتيـن الآيتيـن يأمر الله تعالى نبيَّه الأمين ﷺ أن يُعرِّف بنفسه أولاً ويقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ أي: لست إلّا منذراً لكم، ولا أملك لكم شيئاً سوى الإنذار والتنبيه.

وأن يعلن وحدانية الله تعالى في أُلُوهيَّتِهِ ثانياً: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾ أي: لا يوجَدُ إلٰه (حق) غير الله تعالى، وهو واحدٌ لا ثاني له، وقهّارٌ لا نِدَّ لَهُ ولا ضِدَّ، والقهّار صيغة مبالغة لـ(القاهر) والقاهر هو الذي يُخْضِعُ غَيْرَهُ لِسُلْطانِهِ ويُذِلُّهُ[1].

ثم أن يعرِّف بالله الإله الحق الأحد، من خلال ربوبيَّته: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾.

فالإله الحق الوحيد، هو ربُّ السموات والأرض وما بيَنْهما أي مُدبِّرهما ومالكهما وقَيُّومهما، وهو متَّصِفٌ بالعزّة والمغفرة، العِزَّةِ على الطاغين، والمغفرةِ للطائعين.

٧ ـ الآيـة (١٩) من (محمد):

وفي الجملة الأولى من هذه الآية، يأمر الله تعالى نبيَّه الخاتم ونوره الأتم محمداً ﷺ بالعلم بتوحيد الله في ألوهيَّته: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ...﴾، ومعلوم أن رسول الله ﷺ كان له العلم اليَقينيُّ التام بذلك، ولكنَّ المقصودَ بهذا الأمر، هو سعيه لكسب المزيد من العلم، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿...وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه]، أو المقصود به ثباته واستقامته على ما كان عليه، وهذا كأمر الله تعالى إيّاه بالتقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ...﴾ [الأحزاب: ١]، مع أنه كان في القِمَّة من التقوى.

---

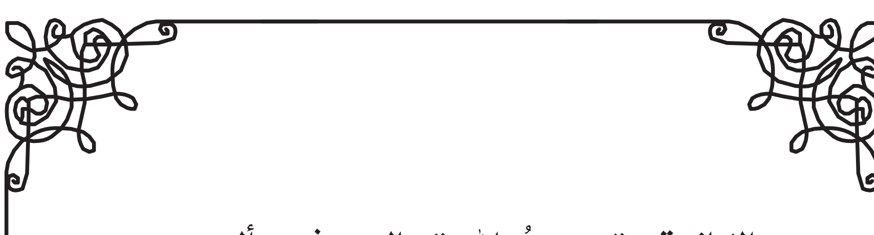
(١) المعجم الوسيط، ص ٧٦٤.

ولا شك أن مفهوم كلّ من الإيـمان والتوحيد والعلم والتقوى، لكل من رسول الله ﷺ وأفراد أمته، يكون على قَدَرهم وبحسبهم، وهذا كما قال العلماء: (حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبيـن)، ثم انَّ رسولَ الله ﷺ ولو أنه كان بالنسبة لغيره في القمة العُليا من الإيـمان والتوحيد والعلم والتقوى، ولكن كان بالنسبة لنفسه وحالاته المباركة، له درجات ودرجات، وكان في صعود ورقيّ مُسْتَمِرّ في السَّيـر إلى الله تبارك وتعالى.

وبـما أن الله تعالى لا نـهاية لعُلوّه وعظمته وخالقيته وربوبيته ومالكيته وأسـمائه الحُسنى، وصفاته العُلى، وشؤونه المُثلى، لِذا فطريق السَّـير إليه معَـرْفِةً وتَعبُّداً، كذلك لا نـهاية له، بل كلّما توغَّل الإنسانُ في معرفة الله تعالى والتعـبُّدِ له، وَتَقَرَّب إليه، انْفَتَحَتْ أَمامه أَبْعادٌ ومَدَيات.

وجديرٌ بالذكر أن الفقرات الآتية أيضاً ستُلقي مزيداً من الضوء على موضوع مركزية التوحيد وأهميتـه، وكونه قطب المدار في دين الله الحق، لِذا نكتـفي هنا بـهذا القدر.





الثانية: توحيدُ الله تعالى في ألوهيته، يعني اتِّخاذُهُ وحده إلهاً، وهذا يَعني عبادته هو وحده بالمعنى الشامل لكلمة العبادة

كما قال الله المتعال سبحانه في الآية (٢٥) من (الأنبياء): ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

إذْ يبيِّن جلَّ وعلا في هذه الآية مخاطباً نبيّه الكريم ﷺ: أنَّه لم يُرْسِلْ قَبلَهُ رسولاً إلى أمة وقوم، إلّا وأوحى إليه، أنَّه لا يوجد سوى الله إلهٌ آخر، بل هو وحده الإله الحق، لِذا يجب أن يعبدوه هو فحسب.

وهذه الآية المباركة واضحة الدلالة على أن (الإله) هو (المعبود)، لأنَّ الله تعالى رَتَّبَ استحقاقه وحده للعبادة من خلقِهِ، على كونه وحده إلهاً، وهذا يعني أن الإله هو المعبود، أو هو الذي يجب أن يُعْبَد: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ وكذلك هذا هو معنى كلمة (إله) في اللغة العربية، إذْ (أَلِهَ يـأْلَهُ إلاهـةً) يعنـي: (عبد يعبد عبادة) و(التـألُّه) هو التعبُّد[1]، وعبارة: (ألَّه المشركون الشَّمسَ والقَمَرَ) أي: عبدوهما وجعلوهما لهم إلـهاً ومعبوداً.

وبنـاءً عليـه:

فقوله تعـالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) المصباح المنير، ص ١٦.

يعنـي:

أن الله تعالى لم يبعثْ قبل (محمد) ﷺ نبيّاً ورسـولاً، في أمة من الأمم، أو قوم من الأقوام، إلّا وبلَّغه وأمره أن يقول للمرسل إليهم: أنه لا يوجد سوى الله تعالى (إله) ومعبود آخر، لِذا فاعبدوه هو وحده، أي: اتخذوه إلهاً لكم من غيـر إشراك غيـره معـه في التعبد والطاعة، لأن الإله هو وحده الذي يستحق العبادة، وطالما أنه هو وحده الإله الحق، فلا يجوز إذن صرفُ العبادة لغيـره.

هذا بالنسبة لمعنـى كلمة التوحيد، ومعنى (الإله)، والآن لِنَعْطَفْ على كلمة (العبادة) ونطّلع على معناها في أصل اللغة، وفي اصطلاح كتاب الله المبين:

أما في أصل اللّغة، فَجَذْرُ كلمة (العبادة) يعنـي: الذلّ والخضوع، إذ يقال: (طريق معبَّدٌ) لطريق مـمهَّد يَسْهُلُ المَشْيُ عليه، بسبب كثرة المشي عليه ووطأ الأَقدام له، بحيث ذَهَبَتْ نتؤاتُهُ وما يَمْنَعُ المَشْيَ، ويسبِّب تَعثُّرَ الأَقدام، وكذلك تُطلق كلمة (مُعَبَّد) على البعيـر الذي طُليَ بالقَطِران(١) فسَكن وقلَّت حركته، ويقال له: (بعيـر مُعَبَّد) أي مُذَلَّل مُخْضَعَ(٢).

وأما مفهومها في اصطلاح كتاب الله، فَيَتَبيَّنُ لنا من خلال التأمل في هذه الآيات المباركـات:

* ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء].

(١) بسبب جَرَبٍ وغيره، لأن القطران يُذْهِبُ الحِكّة التي تُزْعِجُه فيسكن.

(٢) عبدتُ الله أَعبده عبادةً، وهي الإنقيادُ والخضوعُ. المصباح المنير، ص ٢٠٢.

* ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون].

* ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة].

* ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس].

* ﴿... فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر].

* ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة].

* ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر].

* ﴿... إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ...﴾ [يوسف: ٤٠].

والآن لنتأمل هذه الآيـات، ونأخذ منها الدلالات التي تشتمل عليها بالنسبة لمفهوم كلمة العبـادة في كتـاب الله:

١ ـ أما الآيـات (١٦ إلـى ٢٢) من (الشـعراء):

والتي تتحدث عن إرسالِ الله تعالى موسى وأخـاه هارون إلى فرعون، وجُزءٍ من الحوار الذي جرى بين موسى وفرعون، فالشاهدُ فيها هو قولُ موسى عليه السلام لفرعون بعد أن يَـمُنَّ عليه بأنه ربّاه وليداً في بيته: (وتلك نعمة تـَمُنُّها عليَّ أن عبَّدت بني إسرائيل) أي: إنَّما وقَعْتُ في يَدِ زوجتك وَتَربَّيْتُ في بيتك، ليس بسبب كَرَمِكَ، بل من جرّاء ظلمك، حيث خوفاً من الذبح، جَعَلَتْنـي أمي في صندوق وألقَتْني في النهر، فالْتَقَطْتمُونـي وربَّيتمونـي!

وقَصْدُ موسى عليه السلام من قوله: (أن عبَّدت بني إسرائيل) هو أن فرعون أخضع بني إسرائيل لِسُلْطَتِهِ واستذلَّهم.

إذن: التَعْبيد يعنـي: الإخضاع والإذلال، وعليه: فالعبادة هي الخضوعُ والذُّلُّ والإِستسلام.

٢ ـ وكذلك الآيـات (٤٥، ٤٦، ٤٧) من (المؤمنون):

والتي تتحدث عن نفس الموضوع السابق، وتتحدث عن موقف فرعون وَمَلَئه، تجاه موسى وأخيه هارون عليهما السلام، واستكبارِهم وعُلُوِّهم، ورفضهم لدعوتهما التوحيدية، استعملتْ فيها كلمةُ العبادة بنفس المعنى، إذْ يقول أولئك الطواغيتُ، مُبرِّرين رفْضَهُم لدعوتـهما: ﴿...أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾.

فَيُسَمُّون ويعتبـرون قوم موسى وهارون عليهما السّلام (عابدين) لهم، ومن الجَليِّ أن قصدهم بِتِلك العبودية المفروضة على بني إسرائيل، هو خضوعُهم الإجباريُّ لهم، وإلّا لم يكونوا يقدِّمون لهم شعائر التَعَبُّد، من صلاة وصيام وركوع وسجود ودعاء!

لِذا: فكل مَن خضع لغيـره واستسلم لأمره ونهيه وأطاعه، طَوْعاً أو كَرْهاً، فهو يعتبـر عابداً له من حيث خضوعُهُ واستسلامُهُ له، ومن ثَمَّ يعتبـر الطرف الذي جعلـه خاضِعاً ومُستَسْلِماً، معبوداً له، إذْ كلّما وجِدَ عابِدٌ، وجِدَ معبودٌ، وحَصَلَتْ ثَمَّـة عبـادةٌ.

وإلـى هنـا وصـلنا إلى نتيجـة:

أنَّ كتاب الله يُسمِّي مطلق الخضوع والطاعة (عبادةً)، سواء كان عن اختيار وطواعية، أو عن جبرٍ وإكراه، ثم لأيّ كان ذلك الخضوع والطاعة والإِستسلام.

والآن لننظر ماذا تعنـي كلمة (العبادة) عندما تستعمل للخضوع والطاعة والإِستسلام الذي يُفعـل لله تبارك وتعالى؟!

٣ ـ وجوابُ سؤال: ما معنى (العبادة)؟ تُتْحِفُنا به الآيات: (٥) من (الفاتحة)، و(٦٦) من (الزمر)، و(٢) من (الزمر) و(٥) من (البيِّنة) و(٤٠) من (يوسف):

وذلك لأنَّه:

أولاً: كل من الآية (٥) من (الفاتحة) و(٦٦) من (الزمر) تدلّان بوضوح على أن العبادة لله تعالى، فعلٌ اختياريٌّ يقوم به الإنسانُ بإرادته، إذ آية الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ يخاطِبُ فيها المؤمنون ربَّهم جلَّ وعلا، بأنهم يعبدونه هو، ويستعينونه، أي: يطلبون منه العون.

وأما آية (الزمر) فيأمر فيها ربُّ العالمين رسولَه الكريم ـ وكذلك أُمَّته المقتدين به ـ أن يَعْبُدَهُ هو وحده، ويكون من الشاكرين: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾، ولا شك أن العابد لله تعالى إنّما يستحق الثناء بوصفه بالشكر، لأنه يقوم بالعبادة لله تعالى باختياره.

وهذا يفهم منه شيئان:

أ ـ أن الإنسانَ الذي يخضع لله بظاهره ويُطيعه باتِّباع شريعته، من غير أن يكون خضوعُه واستسلامُه لله تعالى نابعاً من قلبه، لا يعتبر عابداً لله تعالى، ومن ثمَّ لا يعتبر خُضوعُه الظاهريُّ وطاعَتُه الشَّكليَّةُ، عبادةً لله من حيث الحقيقة، وذلك لفقدانه عُنْصُرَي الإختيار والرّغبة، وذلك مثلُ طاعةِ المنافقين وصلواتِ المرائين، الذين يقومون بما يَقومون به، تحت نوع من الضغط النفسي، كَجَلْبِ نفعٍ دنيوي أو دَفْعِ ضَرَرٍ، وليس بدافع حب الله وتعظيمه، والخشيَة منه، ونيلِ رضوانه وثوابه.

ولهذا قال تعالى عن طاعة المنافقين: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٣ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٥٤﴾ [التوبة].

وكذلك قال تعالى: ﴿. . . أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩]، وحَبِطَتْ أي: بَطَلَتْ وذَهَبَتْ[١].

وكذلك قال تعالى عن صلاة المرائين: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون].

ب ـ والإنسان الذي يُكْرَهُ على الخضوعِ والطاعة لغيرِ الله تعالى، ولغير ما يأمر به دينُ الله تعالى، ولا يَجِدُ مَلجأً ومَفَرّاً من ذلك، فَخُضوعُه واستسلامه، وانْ كان من حيث الظاهِر يسَمَّى ويعتبر عبادةً لغير الله، ولكن من حيث الحقيقَةُ، ليس كذلك ولا يُحْسَبُ عليه، وذلك أيضاً لافتقاده عُنْصَرَ الإختيار والرغبة، ولهذا لم يَحْسِب الله تعالى خضُوعَ بني إسرائيل واستسلامهم لفرعون ومَلئه عليهم، لأنهم كانوا مُكْرَهين ومغلوبين على أمرهم، فَعَذَرهم الله الكريم.

ثانياً: وكذلك تدل الآيتان المذكورتان اللّتان لَيْسَتا سوى مثالين لآيات كثيرة، على أن العبادة لله تعالى يجب أن تكون لله تعالى فقط، ولا يُشْرَكَ فيها غيره مُطلقاً، وذلك لأن آية الفاتحة قُدِّمَ فيها المفعول [﴿إِيَّاكَ﴾] على الفعل والفاعل [﴿نَعْبُدُ﴾] أي: بَدَل أن يقال: (نَعْبُدك) قيل: [﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾]، وهذه الصِّيغة دالّة على الحصر، إذ معنى الجملة المباركة: (نَخُصُّك بالعبادة ولا نعبد سواك) وكذلك معنى الجملة الثانية: [﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾] هو على نفس المِنْوال.

وكذلك آية الزمر قدِّم فيها المفعولُ على الفعل والفاعل: [﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾] بَدَل أن يقال: (بل اعبد الله)، وهذا أيضاً لإفادة معنى حصر العبادة في الله تبارك وتعالى فحسب دون غيره.

فهذه اذن صفة أساسية ثانية، أو شرط ثانٍ في العبادة التي تُفعل لله تعالى، فالعبادة لله، كما أنها يجب أن تكون صادرةً عن إرادةٍ حُرَّة ورغبة صادقة، كذلك يجب أن تكون خاصة بالله ولا يشرك فيها سواه.

---

(١) المصباح المنير، ص ٦٥، ٦٦. (حَبِطَ العَمَلُ يَحْبَطُ حَبَطاً وحُبوطاً: فَسَدَ وهَدَرَ).

ثـالـثـاً: وتـدل الآيـة (٢) مـن (الـزمـر): ﴿...فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ والآية (٥) من (البيِّنة) ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ على أن العبادة لله تعالى يجب أن تكون خالصة وكاملة وشاملة، وذلك لأن كلمة [﴿ٱلدِّينِ﴾] في الآيتين تعني: الطاعة والخضوع، والمُخْلِصُ (مُفْعِلٌ) بـمعنى (فاعل) أي: الذي يُخلِّصُ ويُنَقِّي عبادتَهُ، ولا يُبْقي فيها شيئاً من الشوائب ويَجعله صافياً خالصاً[1].

وبناءً عليه:

فقوله تعالى: [﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾] يَعني: أُعبد الله وأطِعْهُ عبادةً وطاعةً خالصةً صافيةً نقيةً لا شوب فيها ولا كَدَر.

وواضِحٌ أنَّ العبادة لله تعالى، لا تكون خالصة وصافية ونَقيَّةً، إلّا إذا كانت كاملةً وتامةً وشاملةً، ومن المعلوم أنه لا سبيل إلى عبادة كاملة وتامة وشاملة لله، إلّا بالإتِّباع التام والإلتزام الشامل بدينه الحق وشريعته الحكيمة، وأحكامها الشاملة لجميع جوانب الحياة الإنسانية، فرداً وأسرة ومجتمعاً ودولة.

رابعـاً: وتدلّ الآية: (٤٠) من (يوسف): ﴿...إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ...﴾ على أن العبادة لله تعالى لا تكون مَرْضيَّةً ومقبولةً في ميزان الله، إلّا إذا تجرَّد صاحبُها من الإنتساب إلى أي حكم أو منهج، غير حكم الله تعالى ومنهجه، وذلك لأن الله حصر في هذه الآية الحكم في نفسه، فقال: ليس الحكم إلّا لله تعالى، والحكم هنا بمعنى التشريع وإصدار الأحكام ووضع المنهج، ثم قال: [﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾] وهذا معناه: إنكم إنما تجرِّدون عبادتكم لله تعالى ولا تعبدون سواه في حالةٍ واحدةٍ فقط، وهي: عندما تتجرَّدون لحكم الله وشرعه لا غير، ثم قال تعالى: [﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾] أي: إن تجريد العبادة لله تعالى،

---

(١) المعجم الوسيط، ص ٢٤٩. (أَخْلَصَ الشيءَ.. وخلَّص الشيء: صَفَّاهُ ونَقَّاه من شَوْبِهِ).

بتجريد الإِتِّباع لحكمه، وتجريد الولاء لمنهجه وشرعه، هو وحده الدين الصحيح المستقيم، أو التدّين الصَّحيح السَّليم.

٤ ـ الخضوُع والطاعة الإختيارية لغير الله تعالـى، تُعْتَبَـر عبادة له:

وتـدلُّ علـى هذه الحقيقة الآيتـان (٦٠ ـ ٦١) من (يس) علـى أن الخضوع والطاعة الإختيارية من الإنسان لغيـر الله تعالى، تُعْتَبَرُ عبادةً منه لذلك الغيـر، وذلك لأن الله تعالى يُخاطبُ في هاتين الآيتين كل الكافرين من بني آدم ـ يوم القيامة ـ ويوبِّخهُم على عبادتهم للشيطان وتركهم عبادة الله: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾ [يس].

ومن الظاهر البَيِّن أن الكفار لم يعبدوا الشيطان بصورة مُباشِرةً، باستثناء قِلَّةٍ منهم كاليزيديين، بل إنّما اعتبرت طاعتهم للطواغيت واتِّباعُهُم لأديانهم ومناهجهم التي وضعوها حسب أهوائهم، عبادةً للشيطان، لأن الشيطان اللَّعين هو بوساوسه وإغراثاته، وراء الإِنحرافات والمعاصي، ووراء كل الأديان والمناهج الباطلة، التي يراد بها مضادَّة شرع الله الحكيم وصراطه المستقيم.

وزيادةً في الإيضاح نقـول:

إن الله تعالى اعتبر في هاتين الآيتين: كلَّ الكفار الذين لا يعبدون الله تعالى، ولا يتَّبعون دِينَهُ وصِراطَهُ المستقيم: عَبَدَةَ الشيطان، وبما أننا لا نرى الكفار عموماً عابدين للشيطان بالصورة المعهودة لنا، إذن فلا بُدَّ أن يكون المقصود بتلك العبادة شيئاً آخر، وبعد التأمّل في أحوال الكفار عامَّةً واستقراءِها، يتبيَّن لنا بوضوح أنّ القاسم المشترك بينهم جميعاً هو:

طاعتهم للطواغيت واتِّباعهم للأديان والمناهج، التي أرادوا بها أن تكون بديلاً عن دين الله الحق وشرعه الحكيم، لِذا نقول:

إن المقصود بعبادة الكفار للشيطان، هو خضوعهم وطاعتهم للطواغيت وأهوائهم وأديانهم[1] الباطلة، والتي تمخَّضتْ عنها وساوسُ الشيطان ودَسائِسُهُ.

٥ ـ الفرق الأَساسيُّ بين كون الإنسان عَبداً لله تعالى، وبين كونه عابداً له، هو وجود الإختيار في الثاني دون الأول:

إنَّ عبوديَّةَ الإنسان لله تعالى ـ أي كونه عبداً له ـ ممّا لا يَدَ ولا اختيار له فيه، إذ هو عَبدٌ لله تعالى كَرِهَ أم أحبَّ، خِلْقَةً، ولكن عبادته له ـ أي كونه عابداً له ـ له فيها يدٌ واختيار، إذ بوسعه أن يَعْبُدَهُ ويكون له عابداً مُطيعاً، كما أنه كذلك بوسعه ألّا يعبده، بل يكون له عاصياً، بدل أن يكون عابداً.

وهذا هو السِرُّ في أن الله تعالى قد أعلن في بعض الآيات أَنَّ كلَّ مَنْ في السموات والأرض هم عبيدٌ لله تعالى بلا استثناء، ومن غير أن يكون لهم في هذا الأمر أي اختيار، كما قال تعالى:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم].

ولكن في آيات أخرى يأمر الناس بتقديم العبادة له ـ أي أن يكونوا عِباداً له ـ كما قال جلَّ شأنه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

والآن لنوضِّح مفهوم: (العبادة الكاملة الشاملة الخالصة لله تعالى):

---

(١) وضَّحنا في الفصل الأول من الكتاب الأول، مفهومَ كلمة الدين في اصطلاح كتاب الله المبين، كما سَنَتَطرَّقُ لبيان مفهوم كلمة الدين وإزالة ما أصابها من لَبْسٍ وغموض، في المطلب الأول من المبحث الأول من الفصل الثالث من الباب الثالث بإذن الله تعالى. (أي في الكتاب الحادي عشر من هذه الموسوعة).

تعريف العبادة الكاملة لله تعالى

إن العبادة المطلقة هي وحدها التي تليق بالله تبارك وتعالى، إذ لا يليق بالله الذي له الكمال المطلق ذاتاً وأسماءً وصفاتٍ وشؤوناً، إلّا كل ما هو كامل وتام ـ حسب الطاقة البشرية ـ والعبادة المطلقة، هي أن تكون كاملة وشاملة وخالصة، وأرى ـ حسب استقرائي لآيات كتاب الله الكريم ـ أن العبادة الكاملة الشاملة الخالصة لله، هي التي تحتوي على هذه العناصر الأربعة:

١ ـ الإيمانُ بالله وبكل ما يأمر الله تعالى أن يُؤْمَنَ به، والكفر بالطاغوت، وبكل ما يُضادُّ الإيمانَ.

٢ ـ أَخْذُ التصورات والقِيَم والموازين من الله تعالى، واستقائها من مَعِين دينه الصّافي وحده، ورَفْضِ كلِّ ما يتصادَمُ مع ما جاء في الوحيين المعصومين: الكتاب والسنّة.

٣ ـ تقديمُ شعائر التعبُّد لله تعالى وحده، والقيام بها طبقاً للسنة النبوية.

٤ ـ تنظيم إدارة جميع شؤون الحياة على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والدولة، حسب أحكام دين الله القيم وشريعته الحكيمة.

وهذا توضيحٌ مختصرٌ لهذه العناصر الأربعة:

١) أما الإيمانُ بالله تعالى، وبكل ما أمر الله أن يُؤْمَنَ به، فَلأَنَّ الإيمانَ بالله هو أساس ارتباط العبد بالله، وكيف يعبد الله تعالى، مَنْ لم يؤمن به ولم يستسلم له؟! وجَليٌّ أن الإيمانَ بالله يستلزم الإيمانَ بكل ما أمر الله تعالى بالإيمان به، ثم الإيمانُ بالله ما لم يَسْبِقْهُ الكفرُ بالطاغوت، وبكلِّ ما يُضادُّ الإيمانَ، لا يمكن أن يَتُمَّ أبداً، وكيف يدخل نورُ الإيمان قلباً لم يتطهر من ظلمات الكفر؟! ولهذا جُعِلَ النَفْيُ في كلمة التوحيد المباركة قبل الإثبات، أي قُدِّم نفي الآلهة والطواغيت، على إثبات ألوهية الله تعالى: (لا إلٰه إلّا الله) وكذلك قَدَّمَ الله تعالى الكفر بالطاغوت واجتنابه، على الإيمان بالله والإنابة إليه، كما قال تعالى:

أ - ﴿...فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ب - ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾ [الزمر].

٢) وأما استقاءُ التصوّرات والقِيَم والموازين من مَعِينِ دين الله الصّافي وحده، ورَفْضِ كلِّ ما يتصادمَ معه، فَلِأَنَّ العلم قبل العمل، والتبصُّرَ قبل التصرّف، والتفقّه قبل التحرك، ومن لم يمتلك تصورات صحيحة، لا يتأتى منه تصرفات سليمة، والتحلّي بالقيم الرَّفيعة، شرطٌ لا بُدَّ منه لمن يُريدُ أن يُقيم الدِّين على وجهه الصَّحيح، ومن دون معرفة الموازين، لا يمكن تمييزُ الحق من الباطل، ولا فَرْزُ المنكرِ من المعروف، والحرام من الحلال، والطالح من الصالح...ألخ، ولهذا خاطب الله العليم الحكيم نبيَّه الأمينَ ﷺ بقوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

٣) وأما تقديم شعائر التعبّد لله تعالى وحده، فَلِأَنَّ شعائر التعبُّد (أو العبادات المحضة، كما اصطلح عليها بعضُ العلماء)، هي أخصُّ وأبرزُ مَعالِم العبادة لله تعالى، وقد أمر الله تعالى بتقديمها له فَحَسْبُ، ونَهى عن إشراك غيره فيها، كما قال تعالى:

* ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر].

* ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن].

* ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر].

* ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت].

* ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة].

ثم يجب أن تُقامَ شعائرُ التعبُّد طبقاً لما بيَّنه رسولُ الله ﷺ في سنته، لأن تلك الشعائر تعتبر عبادةً خاصةً لله تعالى، أي هي تعاملٌ خاصٌ للعبد مع ربِّه ﷻ؛ لِذا فهي مجال حسّاسٌ جداً، وأقلُّ انحرافٍ فيها يجرُّ عواقب وخيمة، لِذا يجب الحَذَرُ الشديدُ، وهذا هو السّبب في أن رسول الله ﷺ قد وَضَعَ النقاطَ على الحروف فيها بِدِقّةٍ، وأَمَرَنا أن نَتَّبِعَه فيها ونقتفي أثره، حيث قال: «**وصلوا كما رأيتموني أصلي**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: ٧٢٤٦)، وقال هذا بعد أن صلَّى على المنبر أمام أنظار أصحابه ﷺ، وكذلك كان يقول وهو يؤدِّي مناسك الحج أمام أعين الصحابة: «**لتأخذوا مناسككم**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: ١٢٩٧).

٤) وأما تنظيم وإدارة جميع شؤون الحياة الفردية والأسرية والجماعية والدولية، حسب أحكام دين الله الحق وشريعته الحكيمة، فَلأَنَّ الله تعالى أوجب أعظم إيجابٍ وآكَدَهُ علينا نحن المسلمين، اتِّباعَ دينه والإلتزامَ بمنهجه وشريعته، وحرَّم علينا أشدَّ التحريم، اتِّباعَ غير صراطِه المستقيم، وسمَّى كلَّ الأنظمة وأنواعَ الحكم، غير منهاجه وحكمه: (حُكْمَ الجاهلية)، واعتبر التشريع من غير إذنه، وضعاً لِدينٍ آخر غير دينه الحق، وسمَّى المزاولين للتشريع الذي هو أهم خصائص الربوبية والألوهية، (شركاء)، واعتبر توحيده في الحكم والعبادة، هو دِينَهُ القيِّمَ فقط:

كما قال تعالى:

* ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية].

* ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام].

* ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ...﴾ [المائدة: ٤٨].

* ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ [المائدة].

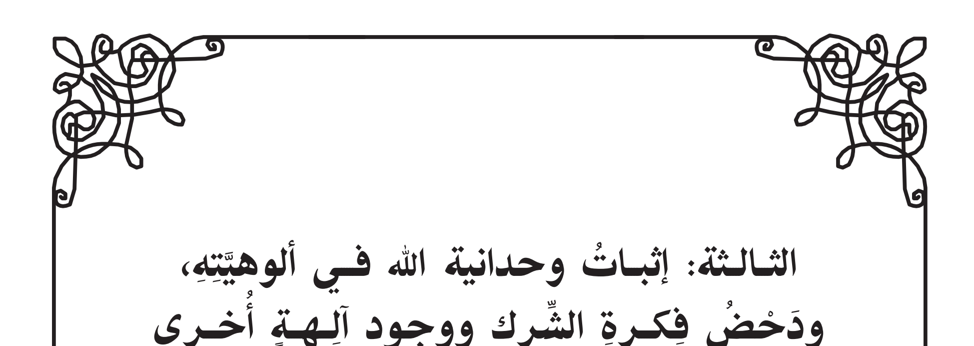
* ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١﴾ [الشورى].

* ﴿...إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ...﴾ [يوسف: ٤٠].

وجديرٌ بالذكر أننا خصَّصنا هذا الباب الثاني بفصوله الستة ـ اي الكتب الثاني إلى الثامن ـ للتفصيل في موضوع الإيمان، الذي هو كما قلنا أساس العبادة لله تعالى، كما خصَّصنا الباب الثالث بفصوله الثلاثة ـ أي الكتب: التاسع والعاشر والحادي عشر ـ لتوضيح كلٍّ من: (التصورات والقيم والموازين) و(إقامة شعائر التعبد لله تعالى) و(تنظيم وإدارة جميع شؤون الحياة بأحكام الشّريعة الحكيمة).

ولهذا اكتفينا هنا بالإشارة إلى تلك المواضيع، ولم ندخلْ في تفاصيلها.

والآن ننتقل إلى الفقرة الثالثة:



الثالثة: إثباتُ وحدانية الله في ألوهيَّتِه، ودَحْضُ فِكرةِ الشِّرك ووجود آلِهةٍ أُخرى

وقد أولى كتابُ الله العظيم هذا الموضوعَ عنايةً خاصةً، واستغرق مِساحةً واسعة من آياته البيِّنات، نكتفي منها بأمثلة أربعة، وهي الآيات التي أدرجناها في بداية هذا المبحث من رقم (٨ إلى ١١):

١ ـ الآيتان (٩١ ـ ٩٢) من (المؤمنون):

بدايةً ينفي سبحانه وتعالى عن نفسه اتّخاذَه الوَلَد، ووجودَ إلهٍ آخر معه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾، ثم يُقيم جلَّ شأنه برهانين ساطعين قاطعين، على نفي وجود إلهٍ شريك معه، حيث يقول:

١) ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾.

٢) ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾.

ومعنى الدليل الأول والمقصود منه، هو:

لو فُرِض أَنَّ هناك إلهاً آخر مع الله تعالى، لَلَزِمَ أن يكون خالِقاً، لأنَّ غير الخالق ليس له حق الألوهية، ثم لو كان هناك خالق آخر مع الله تعالى، له من المخلوقات والملك مثل ما لله العظيم، لأَدارَ ذلك الخالِقُ ـ المفترض ـ مملكة خلقه، بالكيفية التي يشاؤها، ومن ثَمَّ لظهر التضادُّ بين المشيئتين والمسلكين! وهذا هو المقصود بقوله تعالى: ﴿. . .إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ

إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾، ولكن بما أنّنا لا نشاهد إلّا آثار مشيئة إلهٍ واحِدٍ، وصراطه المستقيم، وسُننه الحكيمة، في تنظيم وإدارة الخلق جميعه، إذاً:

فهذا دليل على أنه لا يوجد إلهٌ غير الله تعالى الإله الحق الوحيد.

والغرض من الدليل الثاني، هو:

لو كان هناك (إله) آخر، أو آلهة أخرى، غير الله الخالق تبارك وتعالى، ففي تلك الحالة كان يتحتّم حدوثُ صراع ونزاع بينهما أو بينهم، وذلك لأنَّ الإله لا يرضى إلّا أن يكون قاهراً لغيره ومهيمناً على كل شيء، ولكن بما أنَّنا لا نَجِدُ ذلك، بل ولا نشعر بأدنى ظلّ له في الوجود، بل نَجِدُ الخَلْقَ كلَّه مُستسلِماً لإرادة الله تعالى، وخاضعاً لسننه التي وضعها فيه، إذن: فهذا دليل على أنه لا يوجد سوى الله الخالق، إلٰه آخر.

ثم يُعَقِّبُ الله تعالى على ما مرَّ ذكره بقوله: ﴿سُبۡحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون]، أي: تنزيهاً لله تعالى عمّا يقوله الجاهلون عنه، ويتصورونه، من وجود شريكٍ أو شركاء له، وهو يعلم الخفي والظاهر من خلقه، فلا يغيب عنه من أَحْوالِهِ شيء، وله العُلُوُّ والرِّفعة، عَمّا ينسبونه إليه من الأنداد والشركاء.

٢ ـ الآيتان (٢١ ـ ٢٢) من (الأنبياء):

وفي هاتين الآيتين يُوَجِّهُ الله سبحانه سؤالاً إنكارياً للذين يتخذون من دونه آلهةً مزعومةً موهومةً، فيقول: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ وهذا يعني: أن الإله الحق هو الذي يملك أمر الحياة والموت، ويقدر على بعث الناس ونشرهم بعد الموت للحساب والجزاء.

ثم يقول تعالى مُبَرْهِناً للتوحيد وإبطالاً للشرك: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾، أي: لو كان لغير الله تعالى ـ من الآلهة المزعومة ـ وجودٌ في السَّموات والأرض، لَعَمَّهُما الخَرابُ

والفسادُ من جرّاء تضادِّهم وتَناقض إراداتهم، ولكن لا نجد في السموات والأرض أيَّ أثرٍ للفوضى والإضطراب، بل هما على أحسن ما يُرامُ، من نظم وهُدوءٍ ووئام وانسجام، وعليه: فهذا برهان على أنَّهما إنَّما يُدبَّران بإرادة وتدبير (إله) واحد جلَّ شأنه.

ثم يقول تعالى مُعَقِّباً على ما مرّ: ﴿...فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يُنَزِّهُ سبحانه نَفسه عمّا يقوله الجهلة، ممّا لا يليق به، من نسبة الشريك إليه واصِفاً نفسه بكونه [﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾] ومن يكون ربّ العرش العظيم، ثم يُدبِّر من فوق عرشه أُمورَ جميع خلقِهِ، على أحسن ما يكون التدبير، فهو أعلى وأجلّ من أن يكون له نِدٌّ أو شريك أو شبيه، تبارك اسمه وتعالى جِدُّهُ ولا إله غيره.

٣ ـ الآية (٢٤) من (الأنبياء):

وفي هذه الآية يوجِّه الله سبحانه وتعالى سؤالاً إنكارياً غيابياً، إلى المشركين الذين يتخذون آلهةً مُدَّعاةً موهومةً من دون الله، فيقول: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾، ثم يأمر رسوله ﷺ أن يتحدّاهم بإقامة برهان على دعواهم الباطلة وزعمهم الكاذب: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ﴾، وذلك لأن الفرق بين الصدق والكَذِب هو الدليل والبرهان، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿...قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ثم بما أن البرهنة على القضايا الغيبية، لا بدَّ وأن تكون مستندة إلى الوحي، الطريق الوحيد الذي يعرف منه الإنسان شؤون الغيب، لِذا يقول تعالى: ﴿...هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: إنَّ هذا القرآن هو الذكر الرّباني والبرهان الإلهي الذي أُوتيناهُ أنا وأتباعي الذين معي، وليس فيه ما تدَّعونه، وكذلك هذا هو ذكر مَنْ قبلي ـ أي الكتب السابقة التي أوحاها الله تعالى إلى الأنبياء من قبلي ـ كذلك ليس فيه شيءٌ مما تفترونه!، لِذا: فادِّعاؤكم ليس له أساس صحيح، بل هو مجرَّد قولٍ مَبْنيٍّ على الظن والجهل، ولهذا يُعَقِّبُ سبحانه على ما مرّ ذكره، بقوله: ﴿... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾، وإنّما قال

[﴿أَكْثَرُهُمْ﴾] **لأن فيهم من يعرف الحق، ولكن لا يُقِرُّ بهِ كِبراً وعناداً، كما قال تعالى عن آل فرعون:** ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا...﴾ [النمل].

وهذه الجملة الأخيرة من آية (الأنبياء) دليلٌ على أنَّ من أعرض عن الحق وأهمله وبقي في جهله، لا يُعْذَرُ بجهله ذلك، لأنه جَهلٌ متعمَّدٌ.

٤ ـ الآيات (٥٩ إلى ٦٤) من (النمل):

وفي هذه الآيات يأمر الله الحكيم جلّ وعلا أولاً نَبيَّهُ الخاتم ﷺ أن يحمد الله ويُثْني عليه، ويُسلِّم على عباده المصطفين: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ والمقصود بهم الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، إذ هم خِيرَةُ البشريَّة وصَفْوَتُها، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ...﴾ [الحج: ٧٥].

ثم أن يوجِّه ـ النبيُّ الخاتم ﷺ ـ هذا السؤال الإنكاري الغيابيَّ إلى المشركين: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، والإستفهام الإنكاري يَحْمِلُ الجواب في طيّاته، إذ معنى الجملة هو: أَللهُ سبحانه وتعالى هو وحده الذي يستحق العبادة من عباده، لأنه هو وحده خالقهم وربهم ومالكهم، فَلِمَ يعبدون غَيْرَهُ إذن؟ أوَ لا يعلمون أن الله تعالى هو خيرٌ من تلك الآلهة المزعومة الموهومة؟!

والملاحَظُ أن كتاب الله الحكيم استعمل كلمة (ما) للتعبير عن معبوداتهم وشركائهم، بَدَل (مَن) إذ قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾وذلك لأن (ما) تشمل ذوي العقول وغير ذوي العقول، أو لإفادة أن آلهتهم التي يشركونهم في عبادة الله، من الطواغيت والكهنة والسَّدنة، إنما هم في حكم المخلوقات التي ليس لها شعور.

ثم يوجِّه سبحانه عدة أسئلة توبيخية إلى الكفّار والمشركين، ويُذَكِّر في

طيِّها بستِّ عشرة من نِعَمِهِ الباهرة في حياة البشر، ومن خلال سَرْد تلك النِّعَم، يُكرِّرُ سبحانه سؤال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ خمس مرّاتٍ، كلُّ ذلك ليعلم الكفارُ والمشركون: الفَرْقَ الشاسِعَ والْبَوْنَ البعيد ـ بل اللاّمُتَناهي ـ بين ربِّ العالمين خالقهم وربهم ومالكهم، وبين تلك الآلهة المزعومة التي يعبدونها والتي هي: إما أنّهم بَشَرٌ مثلهم، أو مخلوقاتٌ دونهم، أو موهومات يَتوهَّمونها ليس إلّا!

والله الذي لا إلٰه إلّا هو، إنَّ تلك الأسئلة الربّانية لَتَهُزُّ العَقْلَ والقَلْبَ هَزّاً، ما دام في العقل شيءٌ من شعور، وفي القلب بصيصٌ من نور!.

وهذه هي الأسئلة الخمسة التي تتضمَّن التذكير بالنعم السّت عشرة الجليَّة:

السؤال الأول: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ...﴾ [النمل: ٦٠]؟!

ويذكِّر هذا السؤال التوبيخي الأول، بهذه النِّعَمِ الربانية الأَربَعِ العظيمة:

١) خلق السموات.

٢) خلق الأرض.

٣) إنزال الماء (المطر والثلج والبرد) من السماء (أي السُّحُب).

٤) إنبات بساتين ذات منظر مُبهج مُفرح، والتي ليس في وسع الإنسان إنبات أشجارها، وإنما قُصارى ما يفعلُه الإنسانُ، هو الحَرْثُ والسَّقْيُ، وأمّا المُنْبِتُ والزّارِعُ، فهو الله تبارك وتعالى وحده.

ولا يستطيع بشرٌ أن يدَّعي بأن لَهُ يداً في خلق السموات والأرض، أو إنزال الماءِ العذْبِ المُصَفَّى ـ من خلال عملية التبخير ـ من مياه البحار المالحة، أو إنبات الحدائق البهيجة، والتي لا يُنْبِتُ أشجارَها سوى الخالق العليم الحكيم، من خلال سننه الحكيمة، حيث التفاعُلُ العجيبُ المُدْهِشُ

بين الماء والبذور والنَّوى وأشعة الشمس والهواء، والتعاون التام والإنسجام والتنسيق الكامل، بين كل هذه المخلوقات المتنوعة المتعدّدة، إلى أن يَتَحَقَّقَ الغَرَضُ، نتيجة كل ذلك، وَتَنْبُتُ الحدائِقُ والزروعُ والبساتين!

ولهذا يقول سبحانه مُعقِّباً: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟! أي: هل يمكن أن يُتَّخذ غيرُ الله إلهاً ومعبوداً؟! وكيف يمكن ويعقل، وليس ثمة خالق ورب سوى الله، إذاً: فيكف يُعبد ويُؤلَّه مَنْ ليس إلهاً؟!

ويختم سبحانه الآية بقوله: ﴿... بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: لا يوجد دليلٌ ومبرِّرٌ لعبادة غير الله تعالى، ولكنَّ الكفارَ والمشركين أناس يحيدون وَيَنْحَرِفون عن الطريق اتباعاً للهوى، ويمكن أن يكون [﴿يَعْدِلُونَ﴾] هنا بمعنى: يُسَوُّون، أي إنهم يُسَوُّون شركاءَهم وآلهتهم الموهومة بالله تعالى ظلماً وجهلاً[1].

السؤال الثاني: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا...﴾ [النمل: ٦١]؟!

وكذلك يذكِّرُ سبحانه وتعالى من خلال هذا السؤال التوبيخي الثاني، بأربع نِعَم جليلة أخرى، من نِعَمِهِ التي لا تعدُّ ولا تُحْصى، إلّا في علم الله تعالى، وهي:

٥) جَعْلُ الأرض هادِئَةً مستقرة ـ بالنسبة لساكنيها الذين على ظهرها ـ.

٦) إنْهارُ الأَنْهُرِ في ثناياها.

٧) جَعْلُ الجبال لها بمثابة الأوتاد التي تُثَبَّتُ بها الخَيْمَةُ، وتمنعها من الحركة والإضطراب.

٨) وَضْعُ حاجِزٍ (مانع) بين المائين المالح والعَذْب، كيلا يختلطا.

---

(١) وذلك لأن (عَدَلَ) قد يكون فِعلاً لازماً مثل: (عَدَلَ فلانٌ عن الطريق) أي: حاد، وقد يكون متعدِّياً، مثل: (عَدَلَ زيدٌ نفْسَه بعَمْرو) أي: سوّاها به، وساوى بينهما. المعجم الوسيط، ص ٥٨٨، (عَدَلَ يَعْدِلُ عَدْلاً وعُدولاً: مالَ، عَدَلَ عن الطريق: حادَ، وعَدَل يَعْدِلُ عَدْلاً وعَدالةً ومَعْدِلَةً: استقام).

والجواب على هذا السؤال الحاوي على هذه النعم الأربع كسابقه، هو جواب واحد فقط، وهو: (ألله تبارك وتعالى)، أي نقول في جواب: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا...﴾ الخ؟!، (ألله تعالى) وكيف لا؟ وهل غير الله الخالق جلَّ شأنه، يَجْرُؤ على القول بأنه هو الذي جعل الأرض ذات قرار وهدوء، بحيث لا تُسقِطُ عن ظَهْرِها ساكنيها، ولا تَقْذِفُ بـهم بعيداً، مع أن لها حركة دورية حول نفسها في كل أربع وعشرين ساعة أمام الشمس، مُحْدِثَةً بذلِك الليل والنهار المتعاقبين عليها، وكذلك لها حركة محورية حول الشمس، تُكْمِلُها في كل سنة كاملة مُحْدِثَةً بذلك الفصول الأربعة للسنة، كما وأن لها دورانات أخرى؟!

هذا وقد وصف الله تعالى أرضنا التي نعيش عليها، بكونها (مِهاداً): ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ [النبأ]، وبكونها (ذلولاً): ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا...﴾ [الملك: ١٥]، والمهاد هو المهد الذي يوضع فيه الطفل، أو هو الفراش، والذلول صفة للبعير الذي يُركب ويُحْمَل ويُناخُ، وهو في كل ذلك ساكن ومُطيع.

وكلمة (رواسي) التي عُبِّرت بها عن الجبال، هي جمع (راسية) وهي بدورها اسمٌ للسفينة التي ترسو وتستقرُّ في الميناء، أي إن الله تعالى شبّه الجبال بالسفن المستقرة الثابتة في الموانـي، وقد وصفها جلَّ شأنه في آية أخرى بكونها (أوتاداً)، كما قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ]، والأوتاد جمع (وَتد) وهو ما تُشَدُّ به الخَيْمَةُ ونحوها، أو تربط به الدابّة، وذكر كون الجبال أوتاداً للأرض، بعد ذكر كون الأرض مهاداً، يوضِّحُ بِجلاءٍ أن بين استقرار الأرض وصيرورتها مهاداً للبشر، وبين الجبال، رابطَةٌ وثيقة، وهذا ما صرّحت به الآية (١٠) من (لقمان)، حيث قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ و(تَمِيدَ) أي: تضطرب وتميل[1]، والمعنى:

(١) المعجم الوسيط، ص ٨٩٣.

ألقى الله تعالى في الأرض الجبال الراسخة الثابتة، كي لا تضطرب الأرض تحتكم ولا تميل وتتحرّك.

وكل هذا أصبح واضحاً جلياً في هذا العصر، بعد تقدّم عِلْم طبقات الأرض حيث يقول العلماء، ما معناه: بأن الجبال للأرض بمثابةَ الهيكل العَظْميِّ لجسم الإنسان.

وأنا أقول:

والأنهار ـ كذلك ـ للأرض بمثابة الشريانات والأوردة الدموية للجسم، والحاجِزُ الذي يمنع اختلاطَ مياهَ البحار والمحيطات المُرَّة المالحة، بمياه الأنهار والعيون والآبار العذبة الصافية، قد يكون المقصود به:

جَعْلُ الله تعالى مستوى الأرض التي تتواجد فيها المياهُ العَذْبَة، أعلى من مستوى الأرض التي تَلُفُّها مياهُ المحيطات.

وفي ختام تذكيره بهذه النعم الأربع، يكرِّرُ سبحانه وتعالى سؤالَهُ التوبيخيَّ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾؟! ثم يقول مُعَقِّباً: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إن الجهل والسَّفه هو وحده الدافع لكفر وشرك الكفار والمشركين عموماً، وأما بعضهم الذين لا ينقصهم العلم والمعرفة، فالجحود والتكبُّر والعِنادُ، هو سبب كفرهم وشركهم، ولهذا لم يعلّل سبحانه كفرَ جميعهم بالجهل، بل علّل به كفر أكثرهم فحسب!

السؤال الثالث: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ...﴾ [النمل: ٦٢]؟!

ويُذَكِّرُ سبحانه من خلال هذا السؤالِ الإنكاريِّ الثالِث، بِنِعْمَةٍ أخرى من نِعَمِهِ في حياة البشر، ولكنَّها من نوع آخر، وهي:

٩) إجابته لدُعاء المضطرِّ المستغيث بربِّه وقت الشِّدَّة، وإنجائه له وكشف الضرِّ عنه، وإبقائه إيّاهُ في الأرض.

و[﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾] هو الذي يقع في بلاءٍ وشدَّة وتَنْسَدُّ أمامه الطُّرُقُ جميعاً، ويشعر بأنه وصل إلى نهاية نَفَقٍ مُظْلِم، وأنه لا مَفَرَّ لَهُ من الهَلاك

والعَطَب، ثم في تلك الحالة الشديدة الـمُوئِسة، يلْجأ إلى ربِّه مستغيثاً به ومُلتمساً منه النجاة، فيجيبه ربه الكريم وينقذه فَينجو!

ويُكرِّر سبحانَه سؤالَه التوبيخيَّ للمرة الثالثة: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾؟! أي: هل يُعقلُ أن يعبد مع الله العظيم الذي هذه هي نِعَمُهُ وأياديه في حياتكم، إلهٌ آخر؟! ثم يُعَقِّبُ بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وقد يكون المقصود بذلك التذكّر القليل، تذكُّر بعض أهل الكفر والشرك الذين بعد وقوعهم في الشدّة من سجنٍ أو مرضٍ عُضال أو خطر مُحْدِقٍ... الخ، يلجؤون إلى الله تعالى ويستغيثون به، فيُغيثهم، ويكون ذلك سبب اهتدائهم وتوبتهم إلى الله.

وهذه الآية تدلّ بوضوح على أن استجابة الله تعالى لِلْمضطَرِّين عامة لجميع البشر، وليست خاصة بأهل الإيمان، مثلها مثل سائر نِعَم الله التي أنعم بها على الناس كافة، وهي من مقتضيات رحمته التي وسعت كُلَّ شيْءٍ في الدنيا، ولكن في الآخرة يختصُّ بها أهلَ الإيمان، كما قال تعالى: ﴿...وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وجديرٌ بالذكر أن آية النمل المذكورة، ليست الآية الوحيدة التي تدلّ على أن استجابة الله تعالى للمضطرِّين المستغيثين به عامَّةٌ للناس، بِغَضِّ النظر عن إيمانهم وكفرهم، بل هناك آيات أُخَرُ أيضاً، مثل:

* ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النحل].

* ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان].

* ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام].

والآيات واضحة الدلالة بظاهرها وسياقاتها، على أنَّها تتحدَّث عن الناس عموماً، أو عن أهل الكفر خاصة.

السؤال الرابع: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ...﴾ [النمل: ٦٣]؟!

ويُذَكِّرُ الله تعالى من خلال هذا السؤال بثلاث نعمٍ أخرى، وهي:

١٠ و١١) الدِّلالَةُ (إراءة الطريق) في ظلمات وشدائد البَرِّ، والبَحْر.

١٢) إرسالُ الرياح مُبَشِّرَةً للناس، قبل نزول الماءِ من السّماء.

المقصود بكلمة الهداية في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ هو الدلالة وإرائة الطريق، أي إن الكلمة استعملت هنا بمعناها اللّغوي البحْت.

وتتمثل دلالة الله الكريم للناس في ظلمات البرِّ والبحر، في الشمس والقمر والنجوم، لمن يسافر في البحر، والتلال والأنهار ومعالم الأرض الأخرى، علاوة عليها، للمسافرين في الصحاري والبراري والجبال.

وأما ظلمات البرِّ والبحر، فهي الحالات الضيِّقة والشديدة التي يقع فيها الناسُ، خلال أسفارهم وتنقُّلاتهم، والتي قد تؤدِّي بهم إلى شَفا الهلكة لولا معرفتهم بالطريق، بفعل ما نَصَبه الله تعالى من مَعالم سماوية وأرضية ليعرفوا بها الطريق.

ومن سنن الله تعالى أنه جعل الرياح مقدِّمة لنزول الماء من السماء، فيفرح الناسُ، بهبوب الرياح السابقة على نزول المطر والثلج والبرد، ويستبشرون بقدوم رحمة الله قبل مجيئها، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم].

وإنما سَمَّى الله تعالى الماءَ النازِلَ من السَّحاب (رحمةً) لأنه يُجَسِّد رَحْمَتَهُ في عالم المادة، إذ لولاه لما نَبَتَ زَرْعٌ، ولما ارتوى إنسانٌ ولا حيوان، ولاسْتَحالَتِ الطهارَةُ والنظافَةُ، وأنتنت الدنيا وما فيها! ولهذا قال

تعالى مشيراً إلى تلك الآثار العظيمة للماء النازل من السماء (أي الماء العذب): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان].

وفي ختام التذكير بهذه النِّعَم الثلاث، يكرِّر سبحانه سؤاله الإنكاري التوبيخي: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾؟! ثم يقول معقِّباً: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أجل، إن الله الذي له العلو المطلق، والكمال المطلق، كيف يُقارَنُ به بعضُ مخلوقاته التي توهَّمَتْ فيها الجهلة الربوبية والألوهية؟!

السؤال الخامس: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ...﴾ [النمل: ٦٤]؟!

وأخيراً يذكّر سبحانه في أثناء هذا السؤال الإنكاري التوبيخي الأخير بأربع نعمٍ أخرى، هي:

١٣و١٤) إنشاءُ الخَلْق وتكوينه بدايةً، ثم إعادتُهُ بعد فَنائِهِ ثانيةً.

١٥و١٦) إدْرارُ الرزق على الناس من السماء والأرض.

ومن الواضح أن هذه النعم الأربع أيضاً كسابقاتها، لا يَجُرؤ أحدٌ على الإدِّعاء بأنه له أدنى يدٍ في شيءٍ منها، ولهذا وجَّه الله الحكيم هذا السؤال ـ كَبقية الأسئلة ـ بأسلوب الإستفهام الإنكاريِّ، الذي لا يحتاج إلى الجواب، لوضوح الموضوع الذي يُتسَاءَلُ بشأنه.

والمقصود بِبَـدْءِ الخلق وإعادتِهِ في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ هو: إنشاءُ الخلق وإيجادُهُ، ثم إعادة إنشائه وتكوينِهِ ثانية، بعد أن يَفْنى ويَزُول، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ...﴾ [الروم: ٢٧].

وإذا كان المقصود بِبَدْءِ الخَلْق وإعادته في هذه الآية، هو الحياة الدنيا، ثم النشأة الأخرى في الآخرة، فهناك نوعان آخران من عملية الخلق

والإعادة يُجْرِيهما الله تعالى فينا وحوالينا، وأمّا الذي فينا، فهو موت ملايين الخلايا في جسدِ كلٍ مِنّا، ثم إعادة خلق خلايا أُخرى مكانها، على مدار السنة بل الشهر واليوم! وأما الذي حوالينا، فهو ما نشاهده من إنزال الماء من السماء وإنبات النبات والزرع والشجر به، ثم صيرورتها بعد إكمال دورتها الحياتية إلى حالة حُطامٍ هشيم، وهكذا دواليك على مدار السّنين.

هذا بالنسبة لِبَدءِ الله تعالى الخَلْقَ ثم إعادته.

وأمّا بالنسبة لِدَرِّه الرزق علينا من السماءِ والأرض، والذي أشار إليه في أكثر من آية، مثل:

* ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ . . .﴾ [سبأ: ٢٤].

* ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ . . .﴾ [يونس].

* ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ . . .﴾ [الأعراف: ٩٦].

فنقول:

إنَّ رزقَ الله وبركاته المادية السماوية ـ حسب علمنا الحالي ـ يتمثل في الماء النازل من السماء، والهواء، وأشعة الشمس، ورزقه الأرضيُّ يتمثل في أنواع النباتات والزروع والأشجار، وأنواع الحيوانات الأرضية والمائية والهوائية، وأنواع المعادن، وما ادَّخره الله تعالى لنا في جوف الأرض، من كنوز وذخائر، كما قال تعالى بهذا الصّدد: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت].

ثم للمرة الخامسة والأخيرة ـ في هذا السياق ـ يكرِّر سبحانه سؤال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾؟! ويختم الموضوعَ كُلَّه بقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن ما مرّ ذِكْرُهُ من النِّعَم العظيمة الجليلة، هي براهين

ربوبية الله تعالى، ومن ثَمَّ استِحْقاقُهُ للعبادة لكونه الإله الحق الوحيد، وأنتم أيها الكفار! كذلك أقيموا البرهانَ على وجود إلهٍ آخر، أو آلهةٍ أخرى مع الله تعالى، إن كنتم صادقين في زعمكم وادّعائكم، وإلّا فالسكوت أجدر وأولى!

هذه هي بعضُ البراهين الدّامِغَة االساطعة والحُجَجُ النيِّرة الواضحة التي استُدِلَّ بها في كتابُ الله المبين، لإثبات وحدانية الله تعالى في ألوهيته، ودَحْضِ فكرة الشرك والإدِّعاء بأن هناك إلهاً آخر، أو آلِهةً أخرى، غير الله الخالقِ الرب المالك جلّ شأنه وتبارك اسمه.

وأمّا الآن فإلى الفقرة الرابعة:



الرابعة: إنزال الله الملائكة بوحيه على الأنبياء، لتبليغ الناس توحيد الله والتقوى منه

ونكتفي للإستشهاد على هذه الحقيقة بالآيتين (٢-٣) من (النحل)، إذ يقول تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ [النحل].

ونقتبس من نور هاتين الآيتين الكريمتين، هذه الأضواء الخمسة الآتية، فيما نحن بصدد بحثه:

أولاً: إنزالُ الله وحيَهُ على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، عن طريق الملائكة:

كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾، وهذا يفهم منه بوضوح أنَّ:

١ ـ كلَّ الأنبياء والرسل الكرام جاءهم الوحيُ من الله تعالى بواسطة الملائكة.

٢ ـ لا تنزل الملائكة الكرام بوحي الله وشرعه، إلّا على الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام.

٣ ـ النبوة هِبَةٌ إلهية، وليست شيئاً كسبياً، ويصطفي العليم الحكيم لها خِيرَةَ عبادِهِ وصفوة البشرية، وهم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام،

كـمـا قـال تـعـالـى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ...﴾ [الـحـج: ٧٥]، وقـال: ﴿...ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ...﴾ [الأنـعـام: ١٢٤].

ثـانيـاً: تَسْـمِيَـةُ الله تـعـالـى الـوحـيَ روحـاً، تـعـنـي أَنـه روحُ حيـاةِ البشرية وقِوامُها:

كما قـال تعـالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾.

أجل، إنَّ وحيَ الله وشَرْعَه المبارك، هو لحِياةِ البشر بِمَثابَةِ الروح لِلْجَسَدِ، وكما أنه لا حياة للجسد بدون الروح، كذلك لا حياةَ حقيقيةً ومستقيمةً للبشر، إلّا بالسَّير وفق منهج الله والإستنارة بنوره وهداه، كما قـال تـعـالـى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾ [التكوير].

ثـالـثـاً: حكمـةُ نـزول الـوحـي عـلـى الأنـبـيـاء، هـي إنـذارُ الـنـاس بتوحيد الله وأمرهم بالتقـوى:

كما قال تعـالى: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

والإنذار إعـلامٌ وتنبـيه مع تخويف[1]، وحصر كلام الله ـ كما يدل عليه السياق وظاهر الآية ـ حكمة وغاية نزول الوحي على الأنبياء المصطفين عليهم الصلاة والسلام، في إنذار الناس بصدد توحيد الله في ألوهيَّتِهِ، دليل واضح على عُلُوِّ مقام توحيد الله وعبادته.

والمقصود بالتقوى في قوله تعالى: [﴿فَٱتَّقُونِ﴾] هو تحقيق الناس توحيد الله تعالى في أنفسهم، بتجريد العبادة له وتمحيص الطاعة له، وهذا يدل على أن رأس التقوى وأسـاسَهُ: توحيدُ الله تعالـى، وتقديمُ العبادَةِ الخالِصَةِ والطاعَةِ الكامِلَةِ له.

---

(١) المعجم الوسيط، ص ٩١٢.

رابعـاً: هناك ارتباط جـدٌّ وثيـق بين توحيد الله تعالى، وكون الخلق مخلوقـاً بحـق وحِكْمَـةٍ:

وذلك لأن الله تعالى أردف قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾. **بقوله**: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

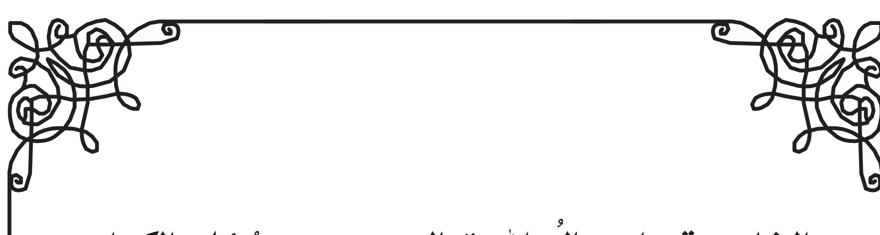
وهذا تعليلٌ لِما سَبَقَ قولُه، ويكون المعنى هكذا: ـ والله تعالى هو العليم الحكيم ـ إنّما أنزل الله تعالى وَحْيَهُ بواسطة ملائكته على أنبيائه لِيُنْذِروا الناسَ بأنه لا إلٰه غير الله تعالى، كي يَتَّقُوه بتقديم العبادة له، لأنه خلق السموات والأرض بالحقِّ، وليس بالباطل واللَّعِب، وسيكون هناك بعث ونشور وحساب وجزاء، ويمكن أن يُصاغَ هذا المعنى في تعبير آخر، هو:

بما أن الله تعالى خلق السموات والأرض بالحَقِّ والحكمة، لِذا أنزل وحيه.

خامساً: إنَّ شَأْنَ الله تعالى ومقامَه، أعلى وأَعْظَمُ من أن يُشرَك به شيءٌ:

كما قال تعالى: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وواضِحٌ أنَّ عُلُوَّ الله تعالى ورِفْعَةَ مقامِهِ، بلا نهايةٍ، كما أن سائر أسمائه الحسنى وصفاته العُلى لا حدَّ لَها ولا نهاية، والمقصود بالشرك هنا في قوله: [﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾] هو الإشراك بالله في ألوهيته وعبادته، وذلك بدلالة السياق أولاً، وثانياً لأنَّ الشرك بالله في ألوهيته، هو الشرك الغالبُ في المشركين قديماً وحديثاً، كما سنفصِّل القول فيه في الباب الرابع، بإذن الله عند الحديث عن الشرك والمشركين، وأنواع الشرك، وأصناف المشركين.

والآن إلى الفقرة الخامسة:



الخامسة: إِرسالُ الله تعالى جميعَ رُسُلِهِ الكرام، لبيانِ توحيدِ الله للناس وإبلاغِهم به

وهذه الحقيقة العظيمة تدلّ عليها آيات كثيرة جداً في كتاب الله المبين، ولكن نكتفي بالإشارة إلى أمثلة منها، وهي الآيات التي أدرجناها سابقاً من رقم (١٣ إلى ٢١)، وهذه إيضاحات موجزة لها، حسب التسلسل الذي أُدْرِجَتْ به الآيات:

١ ـ الآية (٢٥) من (الأنبياء):

يخاطب الله العظيم جلّ وعلا في هذه الآية المباركة، نبيَّه الكريم قائلاً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

وهذا إعلامٌ وبيانٌ دونه الشمس في الجَلاءِ، من الله العليم الخبير لِنَبيِّه الخاتم ﷺ، بأن الله تعالى لم يُرسِلْ قبل (محمد) خاتم النبيِّين وسيِّد المرسلين، أحداً من رُسُلِهِ الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إلى الأمم والشعوب السابقة، من لدن أبينا آدم، أول أنبياءِ الله عليه الصلاة والسلام إلى عيسى عليه السلام آخر أنبياءِ الله ورسله، قبل خاتمهم وسيِّدهم صلى الله تعالى عليهم وسلَّم جميعاً وعليه خصوصاً، إلّا وأوحى إليه أن يبلِّغ توحيدَه، وأن يدعوَ الناس إلى عبادته وطاعته بإِخلاص.

وذلك لأن الله تعالى إنّما خلق الجنَّ والإنس لعبادته، كما قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، لِذا كانت الوظيفة الأساسية التي كلَّف الله بها رُسُلَه وأنبياءَهُ الكرام عليهم الصلاة والسلام، هي: أَنَّ يُبيِّنوا للناس والجنِّ، الحِكْمَةَ التي خلقهم الله تعالى لها، والواجب الذي أوجبه عليهم، وللعبادة لله تعالى، شرطان أساسيان لا تقبل إلّا بهما معاً:

أ ـ كونُها خالصةً لله تعالى.

ب ـ وكونُها موافِقةً لشريعة الله.

ويدل على الأول قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]، وقوله: ﴿. . . فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر]، ووضَّحْنا مفهوم هاتين الجملتين المباركتين في السابق.

كما ويدلّ على الثاني قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة]، إذْ مجيء هذه الآية بعد قول العباد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ يعني أنه لا بُدَّ لمن يريد عبادَةَ الله تعالى حقاً، من سلوك صراطه المستقيم، المتمثل في كتابه وسنة نبيِّه ﷺ.

٢ ـ الآية (٣٦) من (النَّحل):

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

ونقتبس هذه الأضواء الأربعة من نور هذه الآية الكريمة:

أولاً: يدل قوله تعالى: [﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾] على أنَّ الله تعالى قد أرسل على مَرِّ التاريخ البشريِّ، في كلِّ شَعْبٍ ومجموعة من الناس، رسولاً من رسله الكرام الحاملين لـمَشْعَلِ الهداية الربانية.

لِذا يجبُ ألّا يغترَّ أحدٌ ببعض الكتب التاريخية التي كتبت وتُكتبُ في هذا العصر، بالإستناد إلى بعض الكتابات والآثار والرُّقَيْمات التي عُثِرَ عليها

في مواقع أثـرية، والتي تتناول حياة الشعوب والأمم الغابرة كالسومريين والأكديين وغيرهم[1]، حيث تُصَوِّرُ واقِعَ تلك المجتمعات، وكأنَّـهم لم يعرفوا الله تعالى أصلاً، ولم يأتهم أيُّ نَبـيٍّ أو رسولٍ بدعوة التوحيد، مع أن الله تعالى أكدّ أنه لم تَخْلُ أُمَّـةٌ من نذير، كما قال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر].

وهنا أودُّ أن نَنْتَبِه إلى نقطتيـن:

أ ـ ان تلك الرُّقَيْمات والآثار التي اعتُمِدَ عليها، لا تُعَبِّرُ بصورة كاملة عن واقع تلك الأمم والشعوب، لأنَّها ليست كُلّ ما تركته تلك الأمم والشعوب من آثار، بل هي ما عُثِر عليه حتى الآن فحسب، وهذا إذا كانت قد تُرْجِمَتْ من لغاتـها الأصلية بأمانة، وفهمت فهماً صحيحاً.

ب ـ لا شك أن للسلطة السياسية تأثيراً كبيراً على كتابةِ التواريخ، إذْ كثيراً ما تُلَوِّنها باللَّون الذي تريده! وخصوصاً في تلك الفترات التي لم تكن القراءة والكتابة ـ مثلما نرى الآن ـ منتشرةً بين عامة الناس، بل كانت عملاً خاصاً يُزاوِلُهُ بعضُ الأشخاص الذين تُعَيِّنهم السلطة وتُعْنى بهم، وكانت السلطة السياسية والطبقة الحاكمة التي يُعَبِّرُ عنها كتابُ الله بـ(الملأ، الذين استكبروا، المسرفين، المترفين) هي التي تتزعَّمُ جبهة معارضة الأنبياء عليهم السلام، من جرّاء تخوُّفها منهم على مصالحها، التي لم تضمنها لنفسها، إلّا بالظلم والتجبُّر والتفرعُنِ الذي لا يُقِـرّهُ شرعُ الله بحالٍ.

لذا فلا يُتَوَقَّعُ من تلك الآثار والكتابات، إلّا أن تَحْمِلَ طابعَ الدِّين الذي كانت تلك السلطات الطاغوتية تَدِينُ به، وهو الشرك والوثنية، وذلك لأنه بِقَدَر ما يُضيِّقُ التوحيدُ الخِناقَ على الظلمة والطواغيت، بِسَلْبه منهم الإمتيازات غير الشرعيَّة، وتسويته إياهم بسائر الناس، كما هم كذلك في الواقع، فإن فكرة الشِّرك ـ على النقيض من التوحيد ـ تُفْسِحُ لهم المجالَ

(١) وأُتيحت لي الفرصة في هذا السجن الأمريكي، أن أقرأ كثيراً من تلك التواريخ.

وتمهِّدُ أمامهم الطريقَ، لادِّعاءِ الربوبية والألوهية على الناس، واستعبادِهم وإذلالهم بعد استخفافِهم إيّاهم.

ثـانيـاً: ويـدلّ قـولـه تعـالـى: [﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾] على أنَّ لُبَّ دعوة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجوهَرها، كان أمراً بعبادة الله تعالى وحده، ورفضاً لعبادة الطاغوت.

وقد ذكرنا سابقاً أن المفسرِّين، وفي مقدِّمتهم (أبو جعفر الطبري) رحمه الله، فسَّروا كلمة (الطاغوت) بـ(كل معبود سوى الله تعالى) ولكنِّي رجَّحْتُ الرأي القائل بأن الطاغوت يُقْصَدُ به: (الرؤساء والكبراء الكفرة المتحكِّمون على رقاب المجتمعات) واستدلت لصحة هذا الرأي هناك، ولا أُعيد ما قلته هناك[1]، ولكنِّي أُضيفُ إليه هذه النقول الثلاثة التي أوردها البخاريُّ في صحيحه لِلغَرَضِ نفسه[2]:

قال جابر (أي جابر بن عبد الله ﷺ) كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها: في جُهَيْنَة واحِدٌ، وفي أَسْلَم واحِدٌ، وفي كلِّ حيّ واحِدٌ، كُهّان يُنْزِلُ عليهم الشيطانُ.

وقال عمر ﷺ: الجبت: السحرُ، والطاغوتُ: الشيطان.

وقال عِكرمة: الجِبْتُ بلسان الحبشة: الشيطان، والطاغوت: الكاهِن.

ثـالثاً: ويدل قوله تعـالى: [﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾] على أنَّ الناس كانوا دَوْماً ولا يزال، ينقسمون أمام دعوة الأنبياء الربانية التوحيدية إلى قسمين: مهتدين، وضالِّين، أي مُستجيبين لدعوتهم وقابلين لهداية الله، ومعارضين لدعوتهم، ورافضين لهداية الله تبارك وتعالى.

---

(١) قال الجوهري: والطاغوت: الكاهِنُ، والشيطان، وكلُّ رأسٍ في الضلال، أنظر: (فتح القدير) للشوكاني، ج١، ص٣٥٧.

(٢) (صحيح البخاري)، كتاب تفسير القرآن، ١٠- باب (وَإِن كُنتُم مَّرضى أَو عَلى سَفَرٍ).

وقد بيَّن لنا كتاب الله الحكيم في آيات أخرى، أن المهتدين كانوا (ويكونوا) غالباً، من الفقراء والمستضعفين (المضطهدين)، ولكن الضالين كانوا (ويكونون) غالباً، من الملأ المستكبرين المسرفين والمترفين.

وكلمة (الملأ) التي يستعملها كتابُ الله كثيراً، كعنوان لأعداء الرسل عليهم الصلاة والسلام، تعني باصطلاح عصرنا: أصحابَ السلطة السياسية والثروة الإقتصادية[1].

وهذه أمثلة من الآيات التي تُحَدِّثْنا عن كُلّ من أعداء الرسل المستكبرين، وأتباعهم المستضعفين:

١ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود].

٢ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

٣ ـ ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف].

٤ ـ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأعراف].

هذا وسنفصل القول في هذا الموضوع في الفصل الخامس من هذا الباب ـ أي الكتاب السادس من هذه الموسوعة ـ عند الحديث عن الإيمان بالرسل، وكذلك في مواضع من البابين الثالث والرابع.

---

(١) قال راغب الأصفهاني: المَلأُ: جماعة يجتمعون فَيَمْلَؤُنَ العيون رِواءً ومَنْظراً والنفوس بَهاءً وجلالاً. (مفردات ألفاظ القرآن) ص ٧٧٦.

رابعـاً: ويدلُّ قوله تعـالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ على أن سُنَّةَ الله الحكيم جلّ وعلا، بنصر الرسل الكرام وأتباعهم، على أعدائِهم الطواغيت والجبابرة والمستكبرين والمسرفين، سنة ثابتة وجارية، وذلك لأنه أمره تعالى للبشر والسَّير في الأرض ـ سواء كان سيراً جسدياً أو فكرياً ـ والتأمل في آثار المُكَذِّبين وعواقبهم الوخيمة، يقصد به تنبيهُ الكفارِ المعادين لدينه ودعوته التوحيدية وتحذيرهم، من أن يسلكوا مسالك أولئك السابقين الهالكين، وتَتَحقَّقُ فيهم سنة الله الماضية فيهم!

كما قال عَزَّ مِنْ قائلٍ في سورة الحشر:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾.

إذ من المعلوم أن فائدة الإعتبار والإتعاظ بالآخرين، هي أن يكون الإنسان بمنجىً من عاقبتهم السيئة، بسبب بعده عن طريقهم ومسلكهم الذي أَوْدى بهم.

٣ ـ الآيـات (٥٩ ـ ٦٥ ـ ٧٣ ـ ٨٥) من (الأعـراف):

وفي هذه الآيات يقول ويُردِّدُ كلٌّ من: (نوح وهود وصالح وشُعيب) عليهم الصلاة والسلام، وفي بداية دعوتهم، لأقوامهم التي أرسلهم الله تعالى إليها قولاً واحداً، وهو: ﴿...يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ...﴾.

وهذا القول المبارك الحكيم، هو أمرٌ بعبادة الله تعالى وتوحيده، ونفيٌ للشرك ووجود معبودٍ آخر سوى الله العظيم، ولا يوجد قَوْلٌ أَعْظَمَ وأَحْكَمَ من هذا.

٤ ـ الآيات (٨٣ إلى ٨٧) من (الصافّات):

ونأخذ من هذه الآيات جملة حقائق، فيما نحن بصدد البحث فيه:

١ ـ أنبياء الله ورسله الكرام من آدمهم إلى خاتـمهم عليهم الصلاة والسلام، كانوا جميعـاً على خـطٍ واحدٍ مستقيم، ويُصدِّق اللاّحِقُ منهم السابق، إذْ يصف الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بكونه من (شيعة) نوح عليه الصلاة والسلام، أي جماعته وأتباعه، مع أنه توجد بينهما فاصلة زمنية تُعَدُّ بقـرون! ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات]، ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ [الصافات]، إذاً: لَيس المقصود بكون (إبراهيم) من جماعة نوح وأتباعه عليهما السلام، سوى سَيْر (إبراهيم) على نفس الخطّ والمنهج التوحيدي الرَّبانـيِّ، الذي كان (نوح) يسير عليه.

٢ ـ إنَّ القلب السَّليم هو القلب المنوَّر بنور التوحيد الخالص، والخالي من ظلمة الكفر والشرك، بدليل أن الله بعد أن وصف خليله بقوله: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ ذَكَرَ موقِفَـهُ الرافِضْ للشرك والأمر بالتوحيد، ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الصافات].

٣ ـ ليس للشركِ واتِّخاذِ غيـر الله تعالى إلهاً، أَساسٌ سوى الكَذِبِ والإفتراء وقَلْبِ الحقائق: [﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الصافات].

٤ ـ والإنسان لا يُبتلى بالشرك، إلّا إذا سـاءَ ظَـنُّه بربِّه، ولَـمْ يَقْـدِرْهُ قَـدْرَهُ: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات].

٥ ـ الآيـة (١٣٣) من (البقـرة):

وفي هذه الآية يخبـر الله الخبيـر أنَّ نبيَّـه (يعقوب) عليه السلام سأل بَنيْـهِ، وهو على فراش الموت قائلاً: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي﴾؟!، ويـجيـبه أولاده بقـولـهـم: ﴿نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ ولا شـك أن يعقوب عليه السلام ما كان شـاكّاً في عقيدة بَنيْـهِ الذين ربّاهم على التوحيد الخالص، وإنّما أراد التأكيـدَ عليهم، وهم قد أجابوه بـما يُثْـلِجُ صَدْرَه، ويُقِـرُّ عَيْـنَهُ، ولهذا رضِيَهُ منهـم، ولـم يُعلِّقْ على جوابـهم بشيء.

٥ ـ الآيتـان (٤٩ ـ ٥٠) من (يوسـف):

وفي هاتين الآيتين يخاطب نَبـيُّ الله (يوسف) عَلَيْهِ السَّلَامُ بلُطْفٍ، رفيقَيْه السَّجينين، وبعد أن يوجِّه إليهما سؤالاً تقريرياً، حول كون الله الواحد القهّار جلّ وعلا خيراً، أم الأرباب المتفرِّقة؟: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾؟! يقول لهما صادِعاً بالحق الصريح ـ وذلك بعد التمهيدات التي ذكرت في الآيات السابقة في السياق ـ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ وهـذا نفيٌ منه للشرك ووجود أربابٍ وآلِهَةٍ، غير الله الواحد القهّار جلّ وعلا، ثم يقول إثبـاتاً للتوحيد بعد دَحْضِ الشِّرك وتزييفه: ﴿... إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

٦ ـ الآيتان (١٣، ١٤) من (طـه):

وفي هاتين الآيتيـن يخاطبُ الله العظيمُ كليمَهُ موسى عليه الصلاة والسلام، في أَوَّلِ ما يُوحي إليه، وَيَهَبُهُ رُتْبَـةَ النبوة والرسالة، فيخبـره بأنه اختاره واصطفاه، ثـم يأمرُهُ بالإستماع لِما سيوحيه إليه، فيقول: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طـه]، فيعرّف الله تعـالى به نفسه، ثم يبيِّن وحدانيَّتَهُ في أُلوهيَّتِـهِ، وبعد ذلك يأمره بالعبادة له عموماً، وبالصلاة التي هي أعلى أنواعها خصـوصاً.

٧ ـ الآيتـان (٦٣ ـ ٦٤) من (الزخرف):

وفي هاتيـن الآيتين اللَّتَيْن تتحدّثان عن بعض مواقف عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام، آخر رسل الله الكرام، قبل خاتمهم وسيِّدهم (محمد) ﷺ، يخاطِبُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قومَهُ الذين أرسل إليهم، أنه قد جاءَهم بالحكمة، ولكي يبيِّن لهم بعض القضايا التي اختلفوا فيها (أي بنوا إسرائيل) بعد تحريفهم للتوراة وانحرافهم عنها، ويأمرهم ـ كسائر الرسل ـ بتقوى الله

تعـالى وإطاعتـه هو: ﴿. . . فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، ثـم يَصْدَعُ بالتوحيد الناصع قائلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾، والملاحَظُ أن هذه الجملة الأخيرة، وردت على لسان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالإضافة إلى سورة الزخرف، في كل من: [آل عمران: ٥١]، و[مريم: ٣٦]، وكذلك في [المائدة: ١١٧]، ولكن بدون (هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ).

وفي هذه الجملة يُعْلِنُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ربوبية الله تعالى له ولهم، ثم يأمرهم بعبادته هو وحده، ثم يُقَـرِّرُ أنَّ عبادَة الله تعالى وحده، هو الصراط المستقيم لا غَيْر.

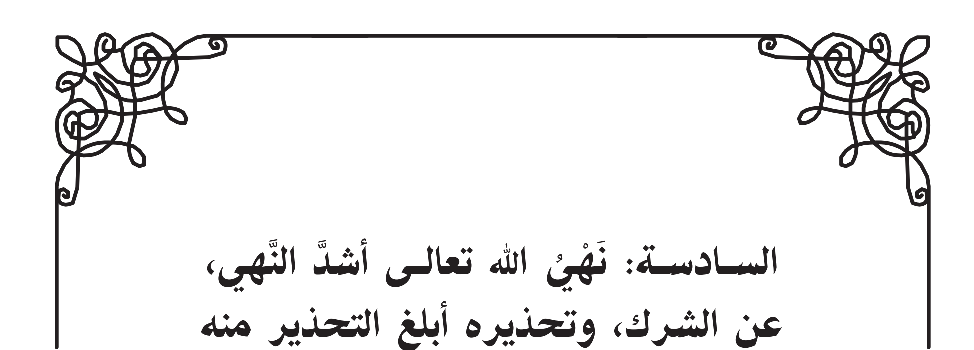
٨ ـ الآيـة (٤٥) من (الزخرف):

وفي هذه الآية يخاطب الله العظيم رسوله الكريم بقوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ والظاهر أن المقصود بـهذه الآية، تقريرُ توحيدِ الله تعالى، وأَنَّه لم يرسل الله رسولاً إلّا بالتوحيد الخالص، وأن يُعبد الله تعالى ولا يَشْـرَك به شيءٌ، أو أَحَدٌ في عبادتـه، وأن قضـية التوحيد في دين الله الحق الذي أرسـل به رُسُـلَه وأنبيـاءَهُ عليهم الصلاة والسلام، من الجلاء والوضوح، إلى درجـة لو أن نَبِـيَّ الله الخـاتم، تَسَـنَّى له اللِّقاءُ بكل رسـل الله الكرام عليه وعليهـم الصلاة والسلام، ثم سـأَلَهم بذلك الصَّدد، لأجابـوه كلُّهم جوابـاً واحداً، وهو: أن الله تعالى لم يـأمر في كل شـرائعه التي أرسـل بـها رُسُـلَه، إلّا بالتوحيد وعبادة الله تعالى وحده.

وهكذا تجلَّت لنا قضيةُ التوحيد الأساسية في دين الله على لسان رسل الله وأنبيائه الكرام عليهم الصلاة والسلام، كالشمس في الظهيـرة، إذْ كلٌّ من: نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ـ وكذلك غيرهم من رسل الله وأنبيـائه ـ أعلنوا وأكدّوا توحيد الله تعالى لأقوامهم وللمرتبطين بهم، كأساس ومنطلقٍ لدعوتهم الربانية ورسالات الله التي أرسلهم بـها إلى الناس كل الناس.

وأما خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ﷺ الذي أَرْسَلَهُ الله تعالى رحمة للعالمين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، وأنزل عليه كتاباً وَصَفَهُ الله تعالى بقوله: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ...﴾ [المائدة: ٤٨]، فَحَدِّثْ ولا حَرَجَ في تأكيده على توحيد الله، وعدم الإشراك به في عبادته، وحِرْصِهِ الشديد على ذلك، وصنوف المعاناة التي قاساها، من أجل توطيد دعائمه وترسيخ جذوره.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



السادسة: نَهْيُ الله تعالى أشدَّ النَّهي، عن الشرك، وتحذيره أبلغ التحذير منه

وللإستشهاد لهذه الحقيقة، نكتفي بهذه الآيات الأربع، كأمثلةٍ فقط:

١ ـ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص].

٢ ـ ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء].

٣ ـ ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل].

٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة].

وهاك بإيجاز كيفية دلالة هذه الآيات، على رفض الشرك بالله والنهي عنه والتحذير منه:

١ ـ الآية (٨٨) من (القصص):

هذه الآية المباركة تتركب من خمسة أجزاء، كلُّ جزءٍ منها يَحتوي على حقيقة عظيمةٍ، في مجال وجوب توحيد الله في عبادته، والإبتعاد عن الشرك، وهي:

أولاً: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾ الخطابُ مع رسول الله ﷺ، وقد نهاه

ربُّ العالمين عن أن يدعو مع الله إلهاً آخر، والدعاء هو أخصّ أنواع العبادة، لذا فمن دعى غير الله تعالى واستغاث به، سواء مع الله أو من دونه، فهو قد أشرك بالله وعامل ذلك المدعو معاملة (إلهٍ)!

ولهذا قَرَنَ الله العليم على لسان عباده المؤمنين، بين العبادة والإستغاثة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة]، ومعلومٌ أن الدُّعاءَ والإستغاثة بالله جزءٌ من العبادة، والعبادة تشتمل عليها، ولكن ذكرت في آية الفاتحة خصوصاً وعُطِفَتْ على العبادة، تنبيهاً على أهميتها، وهذا من باب ذكر الخاص بعد العام.

وسنتحدَّث عن الدعاء وغيره من شعائر التعبُّد، في المبحث الثاني من الفصل الثاني من الباب الثالث ـ أي الكتاب العاشر من هذه الموسوعة ـ بتوفيق الله.

إذاً: هذه الجملة الأولى من الآية، فيها نهي عن أكثر أنواع الشرك شيوعاً، ألا وهو دعاءُ غير الله، وكذلك فيها الحكم على داعي غير الله تعالى، بأنه اتخذ غير الله إلهاً!

ثانياً: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذه الجملة تعليلٌ للجملة السابقة وتدليلٌ عليها، والمعنى: طالما أنه لا يوجد إلهٌ غير الله تبارك وتعالى، فلا تَدْعُ غيرَهُ، وهذه الجملة وسابقتها برهان قرآني قاطِعٌ وساطِعٌ على أَنَّ دُعاءَ غير الله والإستعانة بغيره، شركٌ واتخاذٌ لغير الله إلهاً.

ثالثاً: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ وهذه الجملة أيضاً مرتبطة بالجملتين السالفتين، والمعنى: لا تَدْعُ مع الله إلهاً آخر، لأنه لا إلٰه غير الله تعالى، بدليل أن غيرَ الله من الناس والخلق، بل الأشياءِ سَيَهْلِكُ وَيَفْنى، ولا يبقى غير وجه الله، وبما أن الإله لا يمكن أن يعتريه الهلاك والفناء، فلا إله غير الله تبارك وتعالى.

وهذا كقول (إبراهيم) عليه الصلاة والسلام: ﴿...فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، وذلك لأنَّ الوجود والبقاء هو أساسُ كل المنافع، والفناء والزَّوال سبب كل المضار، لِذا فمن لم يَقْدِرْ على تضمين

أساس المنافع لنفسه ودفع سبب المضار عنها، كيف يَقْدِرُ على إيصال النفع لغيره أو دفع الضرِّ عنه؟!

رابعـاً: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: إنَّ الله تعالى هو وحده المُتَفرِّد بالحكم والهيمنة، لِذا فعبادة من لا يملك شيئاً من الحكم والسلطان ودعاؤه، عبثٌ وسفهٌ.

خامسـاً: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وإلى الله تعالى وحده ترجعون بعد إتمام جولة حياتكم الدنيا، وهو الذي سيُسائلكم ويُحاسبكم على حياتكم هذه، لِذا فلا تعبدوا غيره، كي لا تُعَرِّضوا أَنْفُسَكم لعِقابِهِ وعذابه، علاوةً على الحِرْمان من رضوانه وثوابه، وهذا كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

٢ ـ الآيـة (٢١٣) من (الشـعراء):

في هذه الآية يوجِّـهُ ربُّ العـزّة سبحانه إنذاراً شديداً لخاتم الأنبياء وأقرب الناس إلى الله وأحَبِّهم إليه ﷺ، ناهياً إياه عن دُعاءِ غَيْر الله لِئَلاّ يكون من المُعَذَّبيـن! ومن الواضح أن رسول الله ﷺ كان أبعدَ الناس عن الشرك، قلِيلهِ وكثيـرِهِ، كيف، وهو أول المسلمين: ﴿...وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، وإمـامُ الـموحِّـديـن: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ [الأحزاب: ٢١]، ولكنَّ الغَرَضَ من هذا الإنذار والتحذير الشـديد ـ كما أرى والله هو العليم الحكيم ـ هو تفهيمُ الناس أن أَمْـرَ الشـرك وعبادة غيـر الله بالدعاء وغيـره، خطيـرٌ جداً، ولا يُتسـامَحُ فيه حتى مع أفضل الخلق وسيد الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، وكذلك تَنْبيـهُهُمْ على أنَّ أمر الشـرك والوقوع فيه، حسّـاسٌ إلى درجة أَنَّ حتـى خاتم الأنبياء ﷺ بحاجة إلى التذكيـر به والتحذيـر منه!

٣ ـ الآيـة (٥١) من (النَّحل):

وفي هذه الآية المباركة يُعلِنُ الله تبارك وتعالى عن نفسه، أنه نهى عن

اتخاذ إلهين اثنين، ثم يَحْصُر الإلهية في نفسه: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، ثُم يأمر بالرهبة منه هو وحده دون سواه: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾.

ويفهم من هذه الآية أن الرهبة[1] ـ وهي مخافة مع تحرّز واضطراب ـ لا تَجوز من غير الله، ثم يستنتج من هذا أن الخشية والخوف الشديد، أحد مكوِّنات التألُّه والتعبُّد لله تعالى، كما أن أشدّ الحُبِّ أيضاً مكوِّن آخر من مكوِّناته، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ...﴾ [البقرة: ١٦٥].

وبناءً عليه:

فَمَنْ رَهَبَ غيرَ الله تعالى، أو أحبَّه، مثل رَهْبَتِهِ من الله وحبِّه له، فهو أشرك بالله تعالى مرتين! أعاذنا الله بِلُطْفِهِ وفَضْلِه من الشرك كلِّه جليِّه وخَفيِّهِ.

٤ ـ الآيـة (٢١) من (البقـرة):

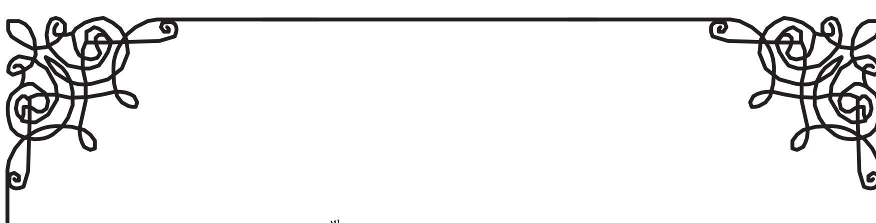
وهذه الآية التي يأمر الله سبحانه فيها الناس كلَّهم بعبادته، يُفهم منها فيما نحن بصدده، أمران:

أولاً: أن العبادة هي حق الله تعالى على الناس لأنه خالقهم وربُّهم، فمن لا حَظَّ له في الخالقية والربوبية، لا حقَّ لَهُ مُطْلقاً في العبادة.

ثانياً: أنَّ من لم يوحِّدِ الله تعالى بتقديم العبادة الخالصة له وحده، فهو لم يُحقِّق التقوى في نفسه تجاه ربِّه (أي لم يجعل نفسه في وقاية مِنْ غَضَبِه وعِقابِه)، وذلك لأن الله تعالى جعل التقوى الثمرة التي تُثْمِرُها شَجَرَةُ العبادة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة].



(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٣٦٦.



السابعة: عدم صحة التوحيد إلاّ باجتناب الشرك، هو كعدم صحة الإيمان إلاّ بعد رفض الكفر

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ...﴾ [الزمر: ١٧].

أجل فالتَّخْلية من الشرك لازمة لمن أراد أن يَتَحلَّى بالتوحيد، إذ من المحال أن يدخل التوحيدُ قلباً لم يتطهر بعد من رجس الشرك، كما أن طهارة القلب من الكفر، شرط لازم لاستقرار الإيمان فيه، كما قال تعالى: ﴿...فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ...﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقد ذكرنا من قبل أن الطاغوت ـ حسب فهمنا ـ هو كل مَنْ يدَّعي الربوبية والألوهية على الناس سواء بلسان المقال، كما قال فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات]، وقال: ﴿...يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي...﴾ [القصص: ٣٨]، أو بلسان الواقع والحال، كما هو دَيْدَنُ الزعماء والحكام الظلمة المُستبدّين، الذين يمارسون على الناس الربوبية والألوهية فعلاً، وان لم يصرِّحوا بذلك قولاً.

ثم من المعلوم أن الطواغيت المُتَفَرْعنين على الشعوب، هم الذين يروِّجون الشرك وعبادَةَ الأصنام، لإبعاد الناس عن التوحيد الذي يوُقِظُ فيهم الشُّعورَ بكرامتهم وحريتهم وآدميَّتهم، ويجعلهم يرفضون الإستعباد لبشر مثلهم، والدليل على أن الطواغيت يروِّجون الشِّرْكَ وعبادَةَ الأصنام، هو أن

فرعون بالرغم من ادّعائه الربوبية والألوهية، كانت له مجموعة أصنام يُلهِّي بها المجتمعَ المصري المُسْتَعْبَد، كما هو ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ...﴾ [الأعراف: ١٢٧].

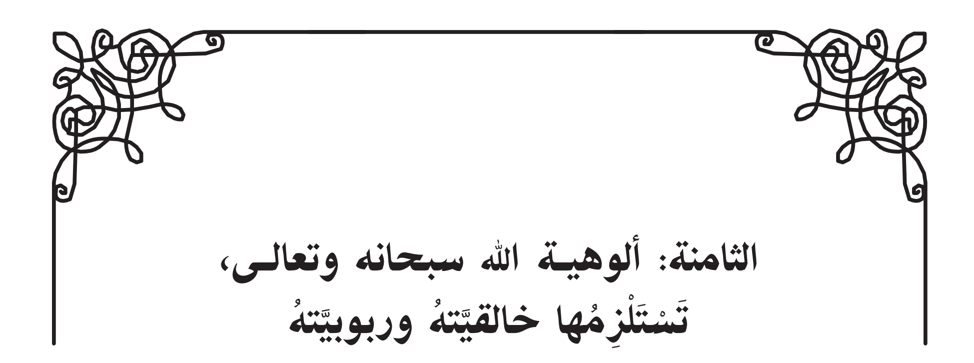
والآية التي استشهدنا بها على أن توحيد الله ـ أي عبادته بإخلاص وبعيداً عن الشرك ـ لا يتحقق إلّا بِرَفْض الشرك والإبتعاد عنه، تُتْحِفنا فيما نحن بصدده، الحقائق الثلاث الآتية:

١) قدَّم الله تعالى الإجتناب عن الطاغوت وعبادَتِها، على الإنابة إلى الله لِيُعْلِمَنا أن مَنْ لم يجتنب الشرك ـ أي عبادة غير الله ـ لا يَتَسَنَّى له توحيدُ الله والإنابة إليه، وجَليٌّ أنَّ الإجتنابَ والإبتعاد عن الشيء أبلَغُ من عَدَم فِعلِه، لأن الإجتناب يُفيد عَدَم المقاربَة، مضافاً إليها عدم الإقتراف.

٢) وقد عُبِّر عن التوحيد الذي هو ضِدُّ عبادة الطاغوت بالإنابة: ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الإنابَةَ هي رجوع الإنسان إلى ربِّه قلباً وباطناً، ومن الجَليِّ أن القالب والظاهر تابعٌ للقلب والباطن، ولعلَّ الحكمة في هذا التعبير هي التنبيه على أن التوحيد وإخلاص العبادة لله، إنَّما ينبع من صميم القلب، ثم تنعكس أنواره وآثاره على الظاهر.

٣) ويُفْهَمُ من قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ أن الإنسان المبتعد عن عبادة الطاغوت والمنيب إلى الله تعالى، سَيُسعِده الله تعالى ويُتْحِفُهُ في الدنيا والآخرة، بكل ما يَسُرُّ به ويفرح، وذلك لأن كلمة [﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾] المعرَّفة بالألف واللّام، تَشْمُلُ وتستغرق جِنس البشارة بكل أنواعها، كما وأن كلمة (لهم) تدلّ على المُلْكيَّةِ والإحتيازِ والإختصاص.

وبما أننا سنتطرّق إلى موضوع الشرك في فقرات لاحقة، نكتفي هنا بهذا القدر، وقد نبَّهنا سابقاً على أننا سنبحث موضوع الشرك بالتفصيل عند الحديث عن المشركين، أحد أصناف أهل الكفر الخمسة، في الباب الرابع ـ أي الكتاب الثاني عشر ـ بإذن الله.



الثامنة: ألوهيـة الله سبحانه وتعالـى، تَسْتَلْزِمُها خالقيَّتهُ وربوبيَّتهُ

وقد ذكر كتاب الله المبُين هذه الحقيقة في آيات كثيرة، ولكن نكتفي منها هنا بمثالين فقط، وهما: الآية (٣) من (فاطر)، والآيتان (٦١ و٦٢) من (غافر).

١ ـ الآيـة (٣) من (فاطـر):

خاطب الله الكريمُ جلَّ شأنه في هذه الآية المباركة بني آدم كُلَّهم، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾ [فاطر].

وتتكون هذه الآية من أربعةٍ مقاطع:

أولاً: خطاب الله للبشر وأمره إياهم أن يتذكّروا نِعَمَهُ عليهم ولا يَنْسَوْها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾.

وهنا من باب تَذَكُّر نِعَمِ الله التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، أقول:

إن نِعَمَ الله تعالى علينا مع كثرتها وَوَفْرَتها، وزَّعها الباريءُ الحكيم ورتَّبها بمنتهى الحكمة، حيث نرى أن الأشياءَ كلَّما كانت الحاجة إليها أشدَّ، كان مقدارُها أكثر، وكذلك كلّما كان الإنسانُ أقلَّ صَبْراً عنها، كان نَيْلُها أيْسَرَ وأسهل:

فالهواء ـ مثلاً ـ بما أن البَشَر كلَّهم يحتاجونه ـ وكذلك الحيوان والنَّبات ـ أشدَّ الإحتياج، جعله الله الحكيم أكثر الأشياء، ثم بما أنه لا يُصبَرُ عنه إلّا زمناً قليلاً، جعله الله تعالى أيْسَرَ الأشياء منالاً، بسبب توفّره في كل مكان على وجه الأرض!

ثم يأتي من بعد الهواءِ، الماءُ ـ أي الماء العذب ـ إذْ جعله الله تعالى متوفراً في أكثر الأماكن، ولكن ليس في كلِّها، لأن الإنسان لا يحتاجه في كل آنٍ مثل الهواء، ثم إنَّ تواجده في كل مكان يُعَوِّق الحياةَ.

ثم قِسْ على هذا المِنْوال: (التراب) و(الحديد) وسائر المعادن، وكذلك (النِّفط) و(الغاز).. ثم أنواع النباتات والزروع والثمار، ثم أنواع الحيوانات الأرضية والمائية والهوائية..

كُلُّها تنطبق عليها القاعدة السابقة!

ثانياً: سؤالُ الله تعالى البَشَر ـ والذي يُقْصَدُ به التقرير ـ: هل أنَّ غير الله العظيم يوجَدُ خالِقٌ آخَرُ يرزقهم من السماء والأرض؟: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ...﴾؟ والجواب واضح لا يَحْتاجُ إليه، إذ لا يوجد غير الله تبارك وتعالى خالق ورب آخر، كي يرزق مخلوقاته ومربوباته!

ثالثاً: الإعلانُ عن وحدانية الله في ألوهيَّته: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ما دام لا يوجد خالق آخر غير الله تعالى، يرزق الناس من جِهَتَيْهم العُلْيا والسُفلى، إذاً: يجب ألّا يعبد إلّا هو، لأنَّ الذي يَسْتحق العبادة هو الله الخالق الرازق فقط، وبناءً عليه: فكلُّ معبود غير الله تعالى، إنما يُعْبَدُ ظُلْماً وزُوْراً، لأنه ليس بـ(إلهٍ)، وعبادة مَنْ وما ليس بـ(إلهٍ) ظلمٌ وزُورٌ، ظلم بالنسبة لعابديه، وزُورٌ (كذب) بالنسبة له هو.

رابعاً: توبيخُ مَنْ يُقدِّمون العِبادَةَ لغير الله الخالق الرازق: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾، أي: طالما أنَّه لا يوجد غير الله تعالى خالق رازق، فكيف أو إلى

أين تُصْرَفون وتُحَرَّفون؟! واستعمال [﴿تُؤْفَكُونَ﴾] بالبناء للمجهول بدل المعلوم، إشارة إلى أن أولئك المشركين، كأنهم فقدوا اختيارهم وإرادتهم ويُساقون رَغْماً عنهم إلى حيث يُراد بهم!

٢ ـ الآيتـان (٦١ ـ ٦٢) من (غافر):

وفي هاتين الآيتين يُبَيِّنُ الله تعالى، أولاً: أنه هو الذي جعل لنا ظاهرتي الليل والنهار، لنسكن ونستريح في الليل، ونُبْصِرَ في النهار ـ كي نتمكن من طلب الرزق ـ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ. . .﴾ [غافر].

ثم يُعلن جلّ وعلا أنه ذو فضل ـ وكرم ولطف ـ على كلِّ الناس، ولكنّ الناسَ أكْثَرَهُم غير شاكرين ـ بل يكفرون نِعَمَهُ ـ: ﴿. . . إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١]، وفضل الله يتجلّى فيما لا يُعَدُّ من نِعَمِه الظاهرة والباطنة على البشر، وأعظَمُها وَأَجَلُّها بعد نعمة الحياة والوجود، هو نعمة الهداية والوحي.

ثم يقول سبحانه معرِّفاً بنفسه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ. . .﴾ أي: إن الذي تفضَّل عليكم بتلكُم النعم، هو وحده ربكم الذي لا ربَّ سواه، وهو خالقكم وخالق كل شيء، ولا يوجد إِلهٌ سواه أبداً، لأنَّ الخالق الرب هو وحده الذي له الألوهية، وحق العبادة على الناس.

وفي الختام يوبِّخُ المشركين العابدين لغيره، بقوله ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟!

بناءً عليه:

فألوهيـة الله تبـارك وتعالى لازمة له، لكونِهِ خالِقـاً وربّـاً ومالكـاً ورازقـاً، لِذا فغير الله تعالى لا حَقَّ له في الألوهيـة، لأنه لا حظَّ له في الخالقيـة والربوبيـة والمالكية والرازقيـة.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



التاسعة: وجوب العبادة لله تعالى وحده على رغم أنوف الكفّار، مهما كانت الظروف والأحوال

ونكتفي من الآيات الكثيرة الدالَّة على هذه الحقيقة ـ كذلك ـ بمثالين، وهما: الآية (١٤) من (غافر)، والآيات (٥٦ إلى ٦٠) من (العنكبوت).

١ ـ الآية (١٤) من (غافر):

يأمر الله تعالى في هذه الآية أهلَ الإيمان، بأن يدعوه هو وحده مُجَرِّدين ومُمَحِّضين له الطاعة والإنقياد: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ...﴾ [غافر: ١٤].

ثم يُضيفُ إلى أمره سبحانه، قَولَهُ: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وهذا تَنْبيهٌ لأهل الإِيمان بأنَّ الكفّارَ سَيُغيظُهُمْ قيامُ أهل الإِيمان بعبادة ربِّهم، ولكن ينبغي لهم ألّا يلتفتوا إليهم أصلاً، إذ عبادةُ العِبادِ لربِّهم هي حق الله عليهم، وفي تأدية حق الله والقيام بواجبه، لا يُلْتَفتُ إلى غيره، ولا ينظرُ إلى رضاه أو غضبه.

والمقصود بِالدين في هذه الآية، هو الخضوعُ والإنقيادُ والطاعةُ، إذ قد ذكرنا سابقاً ـ في الفصل الأول من الباب الأول ـ أن كلمة (الدِّين) في كتاب الله استعملت بأربعة معانٍ، هي[1]:

(١) ويتحدّد معنى الدين وأي من معانيه الأربعة هو المقصود، حسب دلالة السياق.

الطاعة، الجزاء، منهج ونظام الحياة، الإسلام.

وقد استشهدنا لهذه المعاني هناك بالآيات المباركات، ولا داعي لتكرارها هنا.

إذاً:

أَجَلْ، لَقَدْ أمر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية، بتوحيد الله في الدعاء والطاعة، وهما ركنا العبادة الأساسيان، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بعد أمره أهل الإيمان بالدعاء والإنقياد الخالِصَيْن، تَنْبيهٌ على أنه لا يجوز أن يتذرَّع أحدٌ بترك العبادة لله بضغوطات الكفّار ومضايقاتهم ومعاداتهم، بل يجب أن يعبد الله تعالى وحده في كلا مجالي الشعائر ـ والتي الدعاء أبرزها ـ والشرائع المعبَّر عنها بالدين في الآية الكريمة، على رغم أنوف الكفار ومهما كانت النتائج.

٢ ـ الآيات (٥٦ إلى ٦١) من (العنكبوت):

وفي هذه الآيات يخاطب الله تعالى أهلَ العبادة والإيمان، ويأمرهم بعبادته ويحثُّهم عليها، أياً كانت الظروف والأحوال، ونوضِّح دلالة الآيات ومفهومها في البنود السبعة الآتية:

أولاً: بدايةً يُنادي ربُّ العالمين أَهْلَ الإيمان ويُخاطِبُهم بأحَبِّ الألقاب إليه، وهما: العبادة والإيمان: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ. . .﴾ وذلك تذكيراً لهم بما يقتضيه منهم، كُلٌّ من العبادة والإيمان.

ثانياً: ثم يُخْبِرُهم الله تعالى بأنَّ أَرْضَه واسعةٌ، ويأمرهم بأن يعبدوه هو وحده: ﴿. . . إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وهذا إشارة إلى الهجرة وترك الأوطان، إذا ما سُدَّتْ بوجههم طُرُقُ العبادة وأبوابُها، ولم يُسْمَحُ لهم بممارسة دينهم وعبادة ربِّهم، إذ المؤمن الحق والعابد الحق لله، حُرٌّ ولا يستعبده شيء، ولا يَسْمَحُ أن يمنعه مانعٌ عن عبادة ربِّه.

ثالثـاً ورابعـاً: ثم يذكِّرهم الله تبارك وتعالى حقيقـةَ حَتْميَّةِ موت كل إنسان، ثم رجوعهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت]، وذلك لأن الذي يستذل الناس، بالإضافة إلى اللصوق بالأرض والوطن والقوم والعشيرة، هو الخوف من الموت، لِذا يُذَكِّرهم الله الحكيم، بأن الموتَ مفروض على الكل، وهو شيء لا مفرَّ منه، وبما أن المرجع بعد الموت إلى الله تعالى، إذن فليختر الإنسانُ الموتَ الذي يشرِّفُهُ عند لقاءِ ربِّه العظيم سبحانه، إذ طَعْمُ الموت في كل الأحوال واحد، كما قال المتنَبِّيّ:

إذا غـامَـرْتَ فـي شـرفٍ مَـروم	فَـلا تَـقْـنَـعْ بـمـا دون الـنـجـوم
فَطَعْمُ الموت في أمرٍ حقيـرٍ	كطعم الموت في أمرٍ عظيم
ويَرى الجبناءُ أن العَجْزَ عقلٌ	وتلك خديعة الطبع اللئيم

خامسـاً: ثم يُبيِّنُ سبحانه العاقبة المحمودة في الآخرة لأهل الإيمان، والتي تتمثَّل في الجنّة والقصور العوالي، التي تجري من تحتها الأنـهار: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي إن تلك الجنة الخالدة التي وعدَها الله أهلَ الإيمان والعمل الصالح، هي نِعْمَ الأجرُ والمثوبةُ، بحيث لا يُتصَوَّر أحسنَ وأفضلَ منها.

سادسـاً: ويَصِفُ سبحانه أولئك المؤمنين الذين يَحْظَوْنَ بثواب الله العظيم في الآخرة، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [العنكبوت]، وذلك تشجيعاً لأهل الإيمان أن يتحلّوا بهاتين الصفتين (الصبر) و(التوكل على الله) وذلك لأن العبادة عموماً، والهجرة وترك الديار والأموال خصوصاً، لن تَتيَسَّرَ إلّا للصابرين المتوكلين على الله.

سـابعاً: ثم يذكر سبحانه في الختام، مسألة الرزق وأنـها مكفولَةٌ من الله تعالى ليس لِلنّاس فحسب ـ فكيف بأهل الإيمان! ـ بل لكل الدواب!: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت]، إذن: فلا يَخَفْ أهلُ الإيمان من الفقر والجوع،

فينكصوا عن الهجرة في سبيل الله تعالى، ويُعَقِّبُ سُبْحانَهُ على ذلك، بقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، أي: إِنَّ الله تعالى سميع يسمع دعاءكم إِيَاهُ وسؤالكم، وهو عليم بحاجاتكم وأحوالكم حتى وإِنْ لم تسألوها.

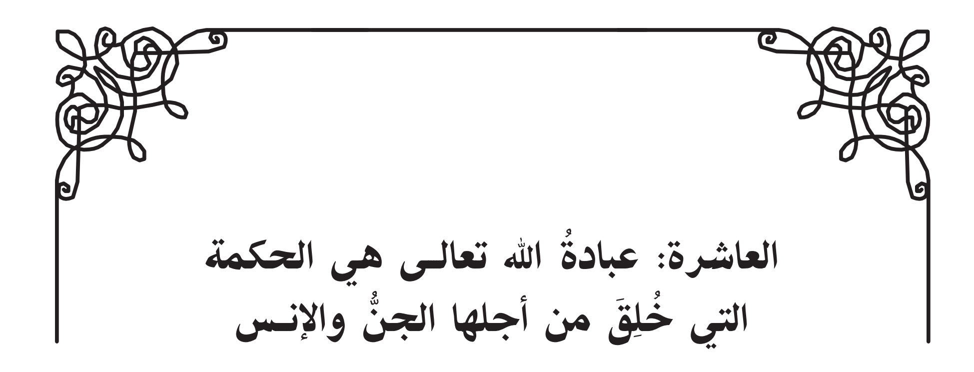
وهكذا يأمر سبحانه عباده المؤمنين بعبادته وحده، ويُشجِّعهم عليها ويُزِيْحُ عن طريقهم كُلَّ الحُجُب والحواجز الواقعية والوهمية، التي قد تَسُدُّ أمامَهمْ أبوابَ العبادة الخالِصَةِ لله تعالى، من:

التعلُّق بالديار والأَمْوال، والخوف من الموت، والخوف من الفقر والجوع، وعلاوةً على ذلك يُطْمِعُهُمْ في رحمته، وجزيل ثوابه، الذي أعدّه لهم في دار لقائِهِ.

وبناءً عليه:

فعبادة الله تعالى ـ عبادة خالصة لائقة به سبحانه ـ واجبة على الناس مهما كانت الظروف والأحوال، وعلى رغم أنوف أهل الكفر وبغضهم وكراهيتهم ومكائدهم.





العاشرة: عبادةُ الله تعالى هي الحكمة التي خُلِقَ من أجلها الجنُّ والإنس

كما قال الله تبارك وتعالى مصرِّحاً بهذه الحقيقة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

ونوضِّح مفهوم هذه الآية المباركة في البنود الخمسة الآتية:

أولاً: إن الله تعالى حكيمٌ ولم يخلق شيئاً عبثاً، وإن خَفِيَتْ حكمةُ وجوده عنّا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص]، هذا بالنسبة للخلق عامة، وقال بالنسبة للإنسان بصورة خاصة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون]، ومن الجليِّ أنه إذا لم يُخْلَقْ شيءٌ من الخلق باطلاً وَعَبثاً، فبالأَحْرى ألّا يكون خَلْقُ الإنسان عبثاً، كيف وهو خليفة الله في أرضه، وحاملُ أمانته، ومخلوقه العجيب الذي خلقه في أحسن تقويم، وأكرمه غاية التكريم، كما وضَّحنا كلَّ هذا في الفصل الثالث من الباب الأول.

ثانياً: وقد حَصَرَ الله الحكيم جلَّ شأنه حِكْمَةَ خلق الإنس والجِنِّ، في قيامهم بعبادة الله تبارك وتعالى، إذ قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ يدلّ على أن الله تعالى لم يخلق الجِنَّ والإِنْسَ لشيءٍ، سوى القيام بعبادَته سبحانه، وبما أنّنا بَيَـنّا في السابق مفهوم العبادة، فلا نعيده هنا.

ثالثــاً: والإنس عموماً أرفَعُ رُتْبةً من الجن، لِأَدلَّةٍ كثيرة لا مجال لذكرها الآن، أحدُها أن الله تعالى لم يُرسِلْ رُسُلَهُ إلّا من البشر، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج]، والجن تابعون للأنبياء والرسل المبعوثين من الناس، ولكن حكمة ـ أو إحدى حِكَم ـ تقديم ذكر الجن على الإنس في الآية هي: أنَّ الجنَّ أقدم وجوداً وأسبق خلقاً من الإنس، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الحجر].

رابعــاً: ومن البديهيِّ أن الله سبحانه وتعالى أعلى وأعظم شأناً من أن يحتاج إلى غيره في شيء، إذ لا وجودَ لغيره إلّا مخلوقاته التي هو أعطاها الوجود وهداها: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه]، ولكنّه أوجب عبادته على الجن والإنس:

١ ـ لأن الله الخالق الذي هو ربُّ كل شيء ومالكه ومُدبِّره، له الحق المطلق على عباده، أن يؤمنوا به ويشكروه ويعبدوه، كما قال: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧﴾ [النساء].

٢ ـ والله سبحانه بيَّن لنا أنه خَلَق الإنسانَ للإبتلاء والإختبار: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ...﴾ [الملك: ٢]، ومادّةُ ذلك الإبتلاء ومجالُه، هو القيامُ بالعبادة لله تعالى وفق ما بَيَّنَهُ في وحيه، إذاً: فالله تعالى فرض العبادة على الجن والإنس، لِيَنْجَحوا في اختبار الله تعالى لهم، ويفوزوا بِرِضْوانه وجِنانِهِ.

٣ ـ ثم إن الله تعالى هو خالق كل شيء ومالكه، وللخالق المالك المطلق، مطلق الحق في التصرف في خلقه وملكه، ولكن هذا لا يعني أن الله تعالى يَتَصرَّف في خلقه وملكه، بما هو خلاف الحق والحكمة والعدل! سبحانه وتعالى، إذ هو الحقُّ الحكيمُ الغنيُّ الكريمُ، وأخبرنا أنه على صراطٍ مستقيم: ﴿... إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦]، وكذلك أخبرنا أنه له الحجة التامة على خلقه: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ...﴾ [الأنعام:

١٤٩]، وأنه لا يظلم الناس شيئاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس].

وعليه:

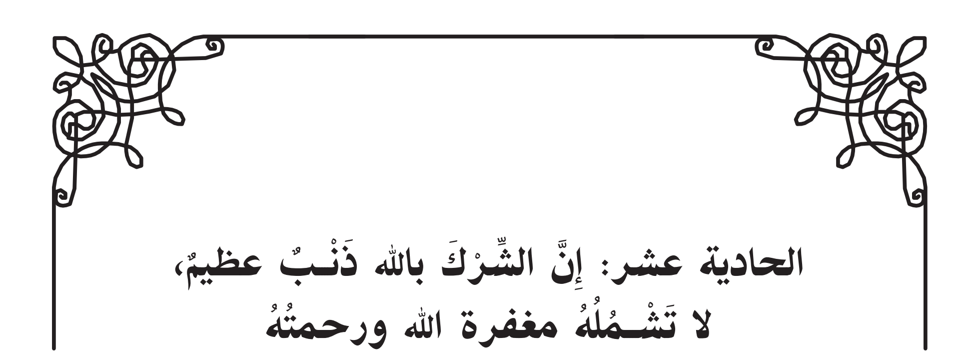
فقولُه تعالى: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء]، يجب أن يفهم في هذا الإطار، كي نَتَجَنَّبَ سوء الظن بربِّنا العظيم، وسوءَ الأدب معه جَلَّ وعلا، فربُّنا العليُّ العظيمُ لا يُسْأَل عمّا يفعل، لأنه:

خالِقُ كلِّ شيءٍ ومالكُه أولاً، وثانياً: لا يفعل إلّا ما هو موافق لِحِكمتِهِ ورحمتِهِ وعدله، وسائر أسمائه الحسنى وصفاته العُلى.

وغير الله تعالى يُسأل لأنه ينطلق في تصرُّفاته ـ إلّا من رحم ربِّي ـ من الظلم والجهل والعجلة والضعف.. وغيرها من الأوصاف الذميمة التي لا يَسْلَمُ من شَرِّها أحدٌ، إلّا بتوفيق من الله تعالى والإعتصام به والإهتداء بهداه.

خامساً: والمنتفع بالعبادة والمتضرِّر بتركها هو الإنسان ـ والجنِّي ـ فحسب، إذْ شأن الله ـ كما قلنا ـ أعلى وأعظم وأجلّ من أن ينتفع بطاعة الناس، أو أن يتضرَّر بمعصيتهم، كما قال تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت]، وقال: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء].





الحادية عشر: إنَّ الشِّرْكَ بالله ذَنْبٌ عظيمٌ، لا تَشْمُلُهُ مغفرة الله ورحمتُهُ

وتَدلُّ على هذه الحقيقة آيات كثيرة، نكتفي منها بالآيات الآتية، كأمثلة فقط:

١ ـ ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر].

٢ ـ ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام].

٣ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء].

٤ ـ ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج].

٥ ـ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر].

وهذا توضيح مختصر لكيفية دلالة هذه الآيات، على كون الشرك ذنباً عظيماً، غير مشمولٍ بمغفرة الله تعالى وعفوه ورحمته:

١ ـ الآيـات (٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٦) من (الزّمر):

في هذه الآيات يأمر الله تعالى نَبِيَّـهُ أن يسأل المشركين، مُسْتَنكِراً عليهم ومسمِّياً إياهم بالجاهلين، كيف يأمرونه بعبادة غير الله: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾، وهذا يعني: أنَّ سوى الجهلة السفهاء لا يعبدون غير الله تعالى، ولا يَتَبَنَّوْن الشِّرك بالله.

ثم يخبر جلَّ شأنه رسولَه الكريم، أنه قد أوحى إليه وإلى الأنبيـاء من قبله، بأن كلَّ مَن يشرك بالله تعالى ـ والمقصود هنا الأنبياء كلهم، ومن ضمنهم خاتمهم وسيِّدهم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعليهم أجمعين ـ فَسَيَبْطُلُ عَمَلُه ويُصْبِحُ هباءً منثوراً من جرّاءِ الشرك: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾، فالشـرك إذن ذَنبٌ ماحِقٌ للحسنات والطاعات جميعاً، ويجعلُها كلَّها في مهبِّ الرِّياحِ.

ومن الجَلِيِّ أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد عصمهم الله الكريم الحكيم من الشرك، بل ممّا هو دون الشرك من المعاصي، ولكن هذا تنبيهٌ لأهل الإيـمان، كي يُدْرِكوا خطورة الشرك الذي لا يُتَسامَح فيه، حتى مع صَفوةِ البشرية (أنبياء الله الكرام) عليهم الصلاة والسلام.

ثم يأمر سبحانه نَبِيَّه بعبادة الله وحده، وأن يكون من الشاكرين: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ وهذا يعني: أنَّ العابِدَ لله يعتبر شاكراً له، وبخلافه غير العابد يعتبر كفوراً، والذي يُشرك بالله في عبادته لا يُعتبر عابداً لله تعالى، لأن العبادة التي يُشْرَكُ فيها غيرُ الله هي باطلةٌ ومردودةٌ على صاحبها: ﴿. . . لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

٢ ـ الآيـة (٨٨) من (الأنعـام):

وفي هذه الآية المباركة، بعد أن يذكر الله تعالى أسماءَ ثمانية عشر من أَنبيائِهِ ورسله، وهم: (إبراهيم، إسحاق، يعقوب، نوح، داود، سليمان، أيوب، يوسف، موسى، هارون، زكريّا، يحيى، عيسى، إلياس، إسماعيل، اليسع، يونس، لوط) عليهم الصلاة والسلام، والذين ذكرهم الله في الآيات

(٨٣ إلى ٨٦) في نفس السّورة، يقول سبحانه وتعالى مشيراً إلى دينهم التوحيديِّ الذي عاشوا وماتوا عليه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ...﴾ ثم يقول تعالى مُنبِّهاً على خطورة الشرك، وكونه سبباً لحبوط الأعمال والطاعات كلِّها: ﴿...وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

فالشرك بالله في أُلوهيَّته مُحْبِطٌ للأعمال الصّالحة كلِّها، وقَبْلَها للإيمان، فهو كسيلٍ جارفٍ لا يَدَعُ شيئاً إلّا ويَجْرُفُهُ ويَقْتَلِعُه من جذوره ولا يُبْقي عليه! ومن الواضح أن الله تعالى إذا لم يتسامح في الشرك مع أنبيائه ورسله الذين هم أحبُّ الناس إليه وأرسخُهُم إيماناً وأكثرُهم طاعةً، فهو بِالأَحْرى والأولى أن لا يَتَسامح فيه مع غيرهم.

٣ ـ الآية (٤٨) من (النساء):

ويُعلن الله العظيم في هذه الآية أنه لا يغفر الشركَ أبداً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ ولكن الذنوب الأخرى عدا الشرك، ـ أي: التي لم يُتَبْ مِنْها ـ فهي تحت حكم المشيئة الربانية الحكيمة، قد يغفرها الله تعالى وقد لا يغفرها: ﴿...وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ ومن المعلوم أن المقصود بـ[﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾] هو الذنوب التي لا تبلغ حَدَّ الشرك، وأما التي تعتبر شركاً أو كفراً أو نفاقاً، فهي ليست دون الشرك، فلا تشملها المغفرة المقيَّدة بالمشيئة، بل هي مُستثناة، وسنبيِّن مفاهيمَ الشِّركِ والكفر والنفاق، بالتفصيل في الباب الرابع بإذن الله تعالى.

ثم يقول تعالى مبيِّنا شَناعَة الشرك وعِظَمَ جُرْمِهِ: ﴿...وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، والإفتراء هو الكذب المُخْتَلَقُ الذي لا أصل له، وهو افتعالٌ من (الفَرْي) وهو القطع يقال: فَرِيَ الجِلْدَ فَرياً، أي قَطَعَهُ[(١)]، وأي كذب وافتراء أعظم من ادّعاء الشريك لله الأحد الصمد، جلَّ شأنه!

---

(١) المصباح المنير، ص ٢٤٤.

هذا وقد تكرّرت هذه الآية في سورة (النساء) باختلاف يسير، إذْ عَقَّبها سبحانه بقوله: ﴿...وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، وعليه: فالشرك غير معفوّ عنه أبداً، وهو افتراءٌ عظيمٌ وضلالٌ بعيد.

٤ ـ الآيـة (٣١) من (الحـج):

وفي هذه الآية الكريمة يُصوِّر الله الحكيم حالَ المُشرِك بالله وَوَخامَةَ عاقبَتِهِ، بِصورة تَقْشعرّ منها الجلُودُ: ﴿...وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فيقول جَلَّ وعزَّ: المشرك بالله تعالى كأنه بشركِهِ سقط من السَّماء ثم أخذته الجوارح بِسُرعة فذهبت به حيث تريد، أو أَسْقَطَتْهُ الرِّيحُ وَجَرفَتْهُ إلى مكان بعيد، كقَعْرِ بئر أو غيرها!!

والقَصْدُ من هذا التشبيه والتصوير، هو: بيان أنَّ الشرك بالله تعالى ضلال عظيم وسقوط مُرَوِّع وتسَفُّلٌ عجيب لا مثيل له.

وبَيِّنٌ أنَّ ذنباً كهذا، لا يشملُهُ العفو الإلهي وغُفرانُه.

٥ ـ الآيـة (٢٩) من (الزّمر):

وفي هذه الآية يصوِّر الله الحكيم حال كلّ من المُشْرِك والموحِّد، في صورتين معبِّرتين، إذْ يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وهذا مثل للمشركين، إذ المشرك بالله، حالُهُ كحالِ رَجُلٍ (خادم) له مالِكون مُتَنازعون فيه، مختلفوا المشارب ومتضاربوا المصالح، وسيِّئوا الأخلاق، كلٌّ يجذبه إلى طَرَفِهِ، ويوجِّهُهُ الوجهةَ التي تَحْلو لَهُ.

ولا شك أن مثل ذلك الخادم التي تتجاذبه أيدي أسياده ومالكيه المُخْتَلفين، يكون بأسوءِ حال، ويكون دَوْماً قَلِقاً مُضطرباً حيرانَ! إذ لا يدري أين يَتَّجِهُ، وأيَّ مالكيه يُرضي، بتنفيذ أوامره!

ثم يقول تعالى مبيِّناً حال الإنسان الموحِّد المستقيم على جادة الإيمان

والتوحيد: [﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾] أي ضرب الله مثلاً لحال الموحِّد العابد لربِّه مُشبِّهاً إياه برجلٍ (خادم) خالصٍ لرجل وحده لا شَرِكَةَ فيه لغيره، فهو يَخْدِمُه وحده، وينفِّذ أوامره، ويتجه الوجهة التي يرسمها له.

ومن الواضح أن مثل هذا الإنسان، يكون ثابتاً مُستقرّاً مطمئن البال، لأن له وجهةً معلومةً ووظيفة مفهومة، واختلافُ حالي ذَيْنِكَ الرجلين، لا يخفى على أحد، ولهذا يقول سبحانه مُعقِّباً على ما مرَّ ذكره: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟! أي: هل يستوي حالاهما؟! وهذا استفهام إنكاري، ثم يقول تعالى: ﴿... ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]، أي: إن الله تعالى هو وحده الجدير بكل المحامد ـ وبالتالي المنزَّه عن كل النقائص والعيوب، والتي منها الشرك ـ ولكنَّ المشركين أُتُوا من قبل الجهل، وجَهْلُهم هو الذي يَقِفُ وراء شركهم وكفرهم الذي صاروا بسببه بأسوَءِ حالةٍ وأَزْراها!

ولم يَقُلْ سبحانه أن المشركين كلَّهم لا يعلمون، بل قال: [﴿أَكْثَرُهُمْ﴾] لأنَّ منهم من يعرف سخافة الشرك وتفاهته، ولكن لا تنسجم مصالِحُهُ وأهواؤه إلّا مع الشرك والكفر الذي يُهيّىءُ له الأرضية الجيِّدة لتحقيق مآربه الخبيثة، وقد قال الشاعر:

ومَنْ جَعَلَ الغُرابَ له دليلاً يَمُرُّ به عَلَىٰ جِيف الكلاب

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الثانية عشر: حِكْمَةُ جعل الإسلام (لا إله إلاّ الله) شعاره الأعظم، هي: تَضَمُّن توحيد الألوهية لِكلِّ أنواع التوحيد الأخرى

اهتمَّ دينُ الله الحق (الإسلام) بكلمة التوحيد المباركة (لا إله إلّا الله) اهتماماً عظيماً، حيث كرّر ذكرها سبحانه وتعالى في كتابه في أكثر من آية، منها:

١ ـ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة].

٢ ـ ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٣ ـ ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران].

٤ ـ ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾ [النساء: ٨٧].

٥ ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات].

٦ ـ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ...﴾ [محمد: ١٩].

٧ ـ ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [التغابن].

وهذه الكلمة المباركة جعلها الرسولُ ﷺ مفتاحَ الدخول في الإسلام وجعلها أوَّلَ ركنٍ من أركانه الخمسة، كما جاء في الحديث المشهور بحديث جبريل ـ وكذلك في أحاديث أخرى ـ إذ قال في جواب سؤال جبريل: (أَخْبِرنِي عَنِ الإسْلَام): «**أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً**

رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا» (أَخْرَجَهُ مُسْلِم في (صحيحه) برقم: (١)، عن عمر بن الخطاب ﷺ.

وكذلك جعلها رسولُ الله ﷺ في الأَذان، والإقامة، والتشهد في الصلاة، وخُطْبَةُ الجمعة، وخطبة العيدين (رمضان والأضحى)، والإستسقاء، وخطبة الخِطْبَة (أي طلب المرأة من أهلها)... وكل هذا ثابت في السنة النَّبوية.

وأرفقها رسولُ الله بـ(أشهد أنَّ محمداً رسول الله)، لأن الإِيمانَ بالرسول ﷺ هو الطريقُ الوحيدُ لمعرفة التوحيد وكيفية الإِيمان به.

وقد فسَّر أكثرُ المفسِّرين كلاً من:

١) (كلمة طيبة) في سورة (إبراهيم) ـ ٢٤ ـ.

٢) (الكلم الطيِّب) في سورة (فاطر) ـ ١٠ ـ .

٣) (كلمة التقوى) في سورة (الفتح) ـ ٢٦ ـ.

٤) (الحُسنى) في سورة (الليل) ـ ٦ و ٩ ـ.

بكلمة التوحيد (لا إلٰه إلا الله)[١].

ويمكننا تلخيصُ أسباب وحِكَمِ اهتمام الإسلام بهذه الكلمة المباركة والتأكيد عليها، في ثلاثة أشياء:

أولاً: إن هذه الكلمة تُعبِّر أحسنَ تعبيرٍ عن توحيد الله تعالى في ألوهيَّتِهِ (أي اتخاذ الله تعالى وحده إلهاً ومعبوداً)، وتوحيد الله في ألوهيته يَتَضمَّنُ كلَّ أنواع التوحيد الأخرى ويَسْتَلْزِمُها، وهي:

أ ـ توحيد الله في خالقيَّته، والإِيمان بأنه هو وحده خالِقُ كل شيء.

(١) أنظر: المصباح المنير في تهذيب تفسير (إبن كثير) ص ٧٠١ و١١٢٦، و١٢٩٢، وانظر (تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان) عبدالرحمٰن بن ناصر السعدي، ص ٩٢٧.

ب ـ توحيد الله في ربوبيته، والإيمان بأنه هو وحده ربُّ كل شيء.

ج ـ توحيد الله في مالكيته، والإيمان بأنه وحده المالِكُ الحقُّ لكل شيء

د ـ توحيد الله في أسمائه وصفاته، والإيمان بأنه منفردٌ بكل الأسماءِ الحسنى، وبجميع الصفات العُلى.

وذلك لأن الإله الحق (وهو الله تعالى وحده) إنّما استحق العبادة على عباده (من الملائكة والجن والإنس) وأوجَبَها عليهم، لأنه خالقهم وربُّهم ومالكهم، وله كل الأسماء الحُسنى والصفات العُلى[1]، ونكتفي هنا للإستشهاد لهذه الحقيقة، بهذه الآية المباركة:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦)﴾ [الزمر].

إذ رتَّب سبحانه ألوهيَّته واستحقاقَهُ للعبادة من دون شريك، على كلٍّ من:

أ) خالقيته ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

ب) وربوبيَّته ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

ج) ومالكيته ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾.

ومن ثم قال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

وبناءً عليه:

فَمَنْ عَبدَ الله تعالى موحِّداً إياه ومُخْلِصاً له في عبادته، فهو قد آمن بالله تعالى خالقاً وربّاً ومالكاً الذي له جميع الأسماء الحُسنى والصفات

---

(١) وليست الأسماء الحُسنى والصفات العلى، سوى عناوين خالقية الله وربوبيَّته ومالكيته، ولولا خَلْقُهُ المُجَلِّي لخالقيَّته ومالكيته وربوبيَّته، وأمره (وحيه) المُجَلِّي لربوبيَّته، وتدبيره، لما اطَّلَعْنا على أسمائه وصفاته.

العُلى، سابقاً وقبل عبادته إيّاه، إذ الذي دفعه إلى اتخاذه إلهاً وتقديم العبادة له وحده، هو ذلك الإيمان، لِذا صَحَّ ما قلناه بأن الموحِّد لله في ألوهيته هو موحِّدٌ له في خالقيته وربوبيته ومالكيته وأسمائه الحُسنى وصفاته العُلى، وبالتالي فكلمة التوحيد المباركة، تَتَضمَّنُ كلَّ أنواع التوحيد الأخرى، عندما تقال حقاً وصِدْقاً.

ثانياً: إن كلاً من خالقية الله وربوبيته ومالكيته، ثابتة لله تعالى وليس للناس فيها اختيار، بل أحبّوا أم كرهوا، هم مخلوقون لله ومربوبون ومملوكون، ولا يغيِّر اعتقادُهم أو عَدَمُهُ من الواقع شيئاً، ولكن قضية الألوهية ـ في حياة الناس ـ ليست هكذا، بل من شاءَ أن يعبد الله تعالى ويتَّخذه إلـهاً ويَعْبُدَهُ، فَعَل، ومن ثمَّ اعتُبِـرَ عابِداً لله، وكان الله تعالى إلـهَهُ ومعبودَه، ومن لم يشأ، بأن لم يعبد الله أصلاً، أو عبده ولكن أشرك به غيرَه، لم يَفْعَلْ، ومن ثمَّ لم يُعْتَبَرْ عابداً لله تعالى، ولم يكن الله معبودَهُ وإلـهَهُ!

وواضح أننا لا نقصد بكلامنا هذا، بأن كُفْرَ الناس وشِركَهم، يَسْلُبُ صِفَةَ الألوهية من الله تعالى، كلاّ فَشَأْنُ المخلوقين أقلُّ وأصغَرُ من هذا، والله تعالى سواء عبده الناس أم لا، هو الإله الحق الذي لا إله غيره، وإذا لم يَحْظَ حُفْنَةٌ من أشقياء الجن والإنس، بعبادة الله واتِّخاذه إلـهاً، فالملائكة الذين لا يعلم عَدَدَهُمْ سوى الله تعالى، كما قال: ﴿...وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ...﴾ [المدثر: ٣١]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ [الفتح]، وكذلك مؤمنوا الإنس والجن، يعبدونه، بل الدوابُّ والطَّيرُ كلُّها تسجد له وتسبح بحمده، بل السموات السبع والأرض ومن فيهن، بَلْ كلُّ شيءٍ يُسَبِّح بحمده، بكيفية لا نفقهها، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج].

٢ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور].

٣ ـ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء].

وعليه: فألوهية الله تعالى ثابتة في الواقع ونفس الأمر بالنسبة للوجود بأسره، باستثناء حُفْنَةٍ من الكفرة والمشركين، الذين يُعْتَبرون شيئاً شاذاً عن قاعدة الوجود العامة، وهم كصوتٍ نَشازٍ في كورس المخلوقات.

وبِناءً على ما تقدَّم ذكرُه:

حكمةٌ أخرى من اختيار الإسلام كلمة (لا إلٰه إلّا الله) شِعارَهُ الأعظم هي: أنَّ البَشَر أُعطوا الحرِّيةَ والإختيارَ باتِّخاذِ الله تعالى إلهاً ومعبوداً لهم، أو عَدَمِهِ، وقول (لا إلٰه إلّا الله) صِدْقاً وحقاً، تعبيرٌ عن إعلان العبادة لله واتِّخاذِه إلهاً ومعبوداً وحيداً في حياتهم الدنيوية، كما أنه هو خالقهم وربُّهم ومالِكُهم الوحيدُ جلَّ وعلا.

ثالثاً: وحكمةٌ أخرى هي: أَنَّ هذه الكلمة المباركة: (لا إلٰه إلّا الله) كما تُثْبِتُ وحدانيةَ الله في ألوهيَّته، كذلك تَنْفي عنه الشِّركَ بأنواعه، ولهذا سمَّى العُلماءُ كَلِمَةَ التوحيد بـ(كلمة النَّفْي والإِثبات) أي نفي الشرك وإثبات التوحيد، وقُدِّمَ فيها النَّفْيُ على الإثبات، لأن التَّخْلية تَسْبِقُ التَّحْليةَ، وما لم يتطهَّر القَلْبُ من الكفر والشرك، لا يَسْتقِرُّ فيه الإِيمانُ والتوحيدُ، كما بيَّناهُ سابِقاً.

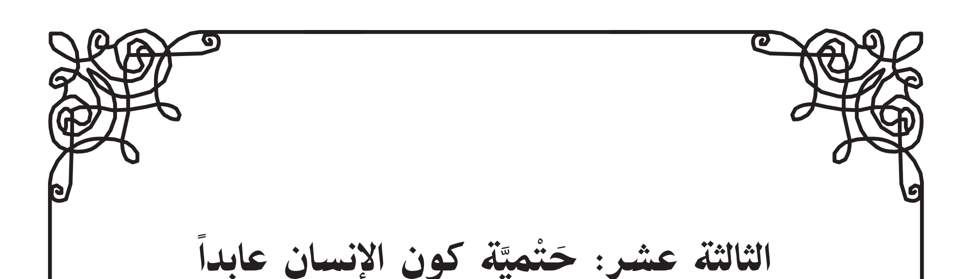
ونفي شرك الألوهية، يستلزمُ ويتضمَّنُ نفي أنواع الشرك الأخرى، كما يستلزمُ توحيد الألوهية، أنواعَ التوحيد الأخرى، وذلك لأنَّ المشرك لا يُشْرِكُ شيْئاً بالله تعالى في عبادته، من إنسان أو ملائكة أو جن أو شمس وقمر ونجم...الخ، إلّا لما يعتقد فيه جهلاً شيئاً من الخالقيَّة والربوبيَّة والمالكيَّة، أو الإتصاف بشيء من صفات وشؤون الخالق الرب جلَّ وعلا، وعلى سبيل المثال: أنظر إلى موقف (عاد) تجاه نبي الله الحكيم (هود) عليه الصلاة والسلام، كيف يجيبونه على دعوته التوحيدية، مُتَّهِمين إياه بأَنَّ

آلهتهم (أي: أصنامُهم) هي التي أصابته بِسوُءٍ ـ أي في عَقْلِهِ ـ: ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ...﴾ [هود].

لِذا فعندما يقول المرءُ مُعْتَقِداً صادِقاً: (لا إلٰه إلا الله) فهو في الوقت الذي ينفي وجودَ إلهٍ آخر غير الله تبارك وتعالى، كذلك ينفي وجودَ خالقٍ وربٍ ومالكٍ غيره أيضاً.

هذا وكما نبَّهنا عليه في السابق، سنفصِّل القولَ في قضية الشرك والمشركين في الباب الرابع ـ أي الكتاب الثاني عشر من هذه الموسوعة ـ بإذن الله، ولهذا نكتفي هنا بهذا الإجمال.





الثالثة عشر: حَتْميَّة كون الإنسان عابداً إمّا لله تعالى، أو للشَّيطان، بصورة ما

ومـمّا يـدلُّ على هذه الحقيقـة، هو الآيات الآتية:

١ ـ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ۝٦٢﴾ [يس].

٢ ـ ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ۝١٢١﴾ [الأنعام].

٣ ـ ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۝٤١ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۝٤٢ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [مريم].

وكيفيـة دلالة هذه الآيات على عنوان الفقـرة، هي كالآتي:

١ ـ الآيـات (٦٠ ـ ٦١ ـ ٦٢) من (يـس):

ونقتبس من أنـوار هـذه الآيات، الأضواء السِّتَّة الآتية:

أولاً: المقصود ببنـي آدم المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ﴾! هـم أهـل الكـفـر خـاصـة، ولا يـشـمـل الخطاب أهلَ الإيـمان، لأنَّ أهلَ الإيـمان لا يعبدون الشيطان، بل الشيطان

لا سيطرة له عليهم أصلاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل].

ودليلٌ آخر على أن المقصود ببني آدم في الآية، هم الكفار فقط، هو أن الله تعالى تحدَّث في الآيات التي قبل هذه الآية عن مصير كل من أهل الإيمان وأهل الكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ . . .﴾ [يس].

ثانياً: بما أن الله تعالى لم يذكر عبادة الشيطان والنَّهي عنها، إلّا في هذه الآية، ثم يوبِّخ الكُفّارَ يوم القيامة على أنه قد عَهِدَ إليهم وأنذَرهم ألّا يعبدوا الشيطانَ، فالمقصود بعبادة الشيطان إذن: هو اتِّباعُ وساوسِهِ وإطاعتُهُ، وقد حَذَّر الله البَشَرَ في أكثر من آية، من اتِّباع الشيطان والإنخداع بوساوسه، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر].

ثالثاً: إن قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ بعد قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ﴾ يدلُّ بوضوح على أن عبادَةَ الشيطان ـ المتمثلة في اتباع وساوسه ـ هي البديلُ العتيدُ لعبادة الله تعالى، أي: مَن لم يعبد الله، فهو يعبد الشيطانَ، لا مَحالَةَ بصورةٍ أو بأُخرى.

رابعاً: وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ﴾، يَدلُّ بوضوح على أنَّ دينَ الله القيِّم وصراطَه المستقيم بحذافيره، يتلخَّصُ في عبادة الله تعالى، أي: إنَّ الإلتزام بالشريعة وأحكامها، سواءٌ على الصعيد الفرديِّ أو الأُسَريِّ أو الجماعيِّ أو الدَّولي، يعتبر عبادةً لله تعالى، لأن أصل معنى العبادة هو الطاعة والخضوع والإنقياد، ومن البيِّن أنه لا يمكن إطاعة الله تعالى والخضوع والإنقياد له، على الوجه المرضيِّ

له، إلّا من خلال اتباع شريعته وتطبيق أحكامها.

خامساً: ويفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أن كلّ مَنْ ضَلَّ عن صراط الله المستقيم، فهو تابعٌ للشيطان ومطيعٌ لَهُ وعابِدٌ.

وكلمة [﴿جِبِلًّا﴾] والتي قرئت (جُبْلاً) و(جُبُلاًّ) أيضاً، أي: خلقاً ومجموعاً كثيراً[1].

سادساً: ويَدلُّ قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾؟! على أن العقل السَّليم والتفكير المستقيم، يؤدِّي بالإنسان إلى عبادة الله تعالى، والتزام دينه، وعدم اتباع الشيطان، والإنخداع بوساوسه.

وكذلك يدلُّ على أن الناسَ، كما يحاسَبون يوم القيامة على إهمالهم الوحي (النَّقْل) وعدم اتِّباعه، كذلك يُحاسَبون على عدم استخدام (العقل) بصورة صحيحة، ولهذا وبَّخهم الله ـ أي: الكفارَ ـ على إهمالهم لكليهما، وأيضاً هذا هو السبب في تحسُّر الكفار في جهنّم، على عدم استعمال السّمع والعقل بصورة مُجْدِية: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك]، ويُعَقِّبُ الله تعالى على قولهم ذلك، بقوله: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك].

٢ ـ الآية (١٢١) من (الأنعام):

وفي هذه الآية يَنْهى الله الحكيم جلَّ شأنه أهلَ الإيمان عن الأكل مِمّا لم يُذكر اسم الله عليه، من لحوم الحيوانات ويُسَمِّيه فِسْقاً: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ والمقصود بـ [﴿مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾]

هو: الحيوان الذي ذُبِحَ على غير اسم الله تعالى، ورفع عليه غير اسم الله العظيم، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿...وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ

(١) قال الراغب في تفسير هذه الكلمة: أي جماعة تشبيهاً بالجَبَلِ في العِظَمِ، (مفردات ألفاظ القرآن) ص ١٨٥.

ٱللَّهِۖ . . .﴾ [البقرة: ١٧٣]. وهذا نَصٌّ في الموضوع، [ولكن يدخل في مفهوم: (مما لم يذكر اسم الله عليه)، متروكُ التسمية مِمّا ذُبِحَ لله، كالضّحايا والهدايا، أو لِلَّحم والأكل، إذا كان الذابح متعمداً ترك التسمية، عند كثير من العلماء، ويخرج من هذا العموم: الناسي بالنصوص الأخرى الدالَّة على رفع الحرج عنه][1].

ثم يحذِّرهم بأن الشياطين ـ أي من الجِنَّ ـ : سَيُوَسْوِسُون إلى أوليائهم من الكفار والمشركين ليجادلوكم بشأنِ الأكل من الميتة، أو المذبوح على غير اسم الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ أي: لِيُقْنِعوكم بالأكل من لحم ما ذكر.

ثم يُعلِنُ سبحانه وتعالى بوضوح وجلاءٍ لأهل الإيمان، بأنهم إذا ما خُدِعوا بجدال الكفار والمشركين الباطل الناشيء من وسوسة الشياطين، وأكلوا مِمّا حرَّمه الله تعالى، طاعةً للكفّار واتّباعاً لدينهم الكفريِّ الشركيِّ الباطل، فهم يُصْبِحون مثلهم: كفاراً مشركين: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام].

إذاً:

فَمَنِ اتَّبع أقوالَ الكفّار والمشركين الناتجة عن وساوس الشياطين، وتَخلَّى عن طاعة الله، فهو يصيرُ في عِدادِ أهل الكفر والشرك، ولا يبقى له رَبْطٌ بدين الله الحق، وكيف يبقى مرتبطاً بدين الله تعالى، من أصبح عبداً مطيعاً للشيطان؟!

٣ ـ الآيات (٤١ إلى ٤٤) من (مريم):

وفي هذه الآيات يَقُصُّ الله العظيم الخبير جلَّ وعلا على نبيِّه ﷺ وعلينا طرفاً من حوار إبراهيم الخليل عليه السلام مع أبيه الضالّ الكافر (آزر)،

---

(١) ما بين القوسين مأخوذ نصاً من (تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنّان) ص ٢٧١.

حيث يحاور إبراهيم عليه السلام أباهُ بغاية الرِّفْقِ والهدوء والشفقة، حول بطلان عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تضرُّ ولا تنفع شيئاً، ويُخبره بأن الله تعالى قد وَهَبَه عِلْماً لا يملكه هو ـ ويقصد به الوحيَ ـ، لِذا فَلْيَسْمَع منه ويتَّبِعْهُ، كي يَدُلَّهُ على الصراط المستقيم، ثم يقول له: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم]، ويفهم من هذه الآيات وخاصة الأخيرة منها، أنَّ:

كل عابدٍ ومُطيع ـ طاعة مطلقة ـ لغير الله تعالى، أياً كان مَعْبودُه ومُطاعُهُ، هو عابِدٌ ومُطيعٌ للشيطان، وذلك لأن:

(آزر) أبا إبراهيم، لم يعبدْ في الظاهر إلّا الأصنام، كما يدُلُّ عليه قول إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾؟! وهذه الأوصاف لا تنطبق إلّا على الأصنام، وكذلك تدل عليه كل الآيات الأخرى التي تتحدَّث عن مناظرة وحوار إبراهيم مع أبيه وقومه، في كل من: (الأنعام والأنبياء والشعراء والصّافات).

والسبب في ذلك هو أن كُلَّ مَنْ عَبَدَ غيرَ الله تعالى، سواءٌ كان الشيطان نفسه أو غيره من المخلوقات، من طاغوتٍ وصَنَمٍ وهوىً وشمسٍ وقمر وبقر... الخ، فبتأثير الشيطان وتزيينه يعبد ما يعبد، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النحل].

هذا وربّما يَستغرِبُ بعضُ الناس عبارة: (من لم يعبد الله فهو يعبد الشيطان بصورة من الصور) ويستعظم ذلك!

ولكن من أدرك أنَّ معنى العبادة ـ كما بيّناه في السابق بأدلَّته ـ هو الطاعة والخضوعُ لأيِّ كان، يَذْهَبُ استغرابُه واستعظامُهُ، وذلك لأن الإنسان لا بُدَّ له من أن يخضَع لِجِهَةٍ ما، ويُطيعَها ويستسلمَ لها، فإذا لم يطع الله تعالى، ولم يستسلم لأمره ونهيه وشرعه، فهو يتوجَّه إلى جهة أخرى، يتوقَّعُ منها جَلْبَ المنافع ودَفْعَ المضارِّ، سواء كانت تلك الجِهَةُ لها وجود

محسوس في الواقع، كالطواغيت المتحكِّمين على رقاب الناس، أو كانت وهماً من الأوهام.

وسبب ذلك هو أن الله تعالى جَبَلَ الناسَ على عبادة ربِّهم، كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ...﴾ [الروم: ٣٠]، ولهذا فعندما ينحرف منهم مَنْ ينحرِفُ عن جادة العبادة والدينونة لله تعالى، يشعر بفراغ في أعماق وجوده، فَيَسْعى إلى مَلْأهِ، مثله في ذلك مثل الجائع الذي يضطَّره الجوعُ الشديد، أن يأكل أيَّ شيءٍ يُصادِفُهُ، والظامىءِ الذي يدفعه الظَّمَأُ الشديد، أن يُقْنِعَ نَفْسَهُ بِشُرْبِ أي سائلٍ يَكْسِرُ سَوْرَةَ عطشه!

ولهذا نرى الكفّار يعبدون أنواعاً كثيرة من المخلوقات، حتى في هذا العصر الذي شهد فيه البَشَرُ تطوراً عظيماً في العلم والفكر وطراز الحياة، فهناك عبّاد البشر، كالنَّصْرانيين الذين يعبدون عيسى عليه السلام ويؤلِّهونه جهاراً[1]، وهناك عبّاد البقر في الهند وغيرها، وهناك عبّاد الأوثان والهياكل كالبوذيين وغيرهم في الصين واليابان وغيرهما من البلدان الكافرة، بل هناك من يعبدون الفئران والحيات، وغيرها من الحيوانات!

ولكن لا شكَّ أن عبّاد الأهواء، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ...﴾ [الجاثية: ٢٣]، وعبّاد الشهوات والمال والمتاع، وخصوصاً عبّاد الطواغيت المتألِّهين، يُشَكِّلون الأكثرية الساحقة من الكفار والمشركين، ولهذا اعتبر الله الحكيم جلّ وعلا، عامَّةَ الكفّار عبّاداً وأولياء للطواغيت، كما قال: ﴿... وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ونُذَكِّر مرةً أخرى بمفهوم العبادة، فنقول:

(١) فعلى سبيل المثال أنقل هذا النَّصَّ مِمّا يسمّونه بـ(الكتاب المقدّس): (إنَّ يسوع هو الله، وهو وحده المستحق لكل العبادة): أنظر:(التفسير التطبيقي للعهد الجديد)، ص٧٨٣، ط:١٩٩٦.

إن العبادة تَعْني: الطاعةَ والخضوعَ والإنقياد المطلق لشيءٍ مّا، والتعلّق المطلق بشيءٍ مّا، أياً كان ذلك الشيء: معنوياً أو مادياً، وموجوداً أو موهوماً، وليس مفهوم العبادة منحصراً في الركوع والسجود والدعاء والإستغاثة والذَّبْح، بل ليست هذه الأشياءُ إلّا بعض شعائر ومَعالم العبادة ومظاهرها، وبغير هذا المفهوم ـ والذي قد بيّناه من قبل بأدلَّتِهِ من كتاب الله، وأثبتنا أنه هو المفهوم الحقيقي الصحيح لكلمة العبادة ـ كيف يمكننا تفسير قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ...﴾ [الفرقان: ٤٣]، و﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ...﴾ [الجاثية: ٢٣]، فهل يمكن أن يسجد الإنسان ويَرْكع لنفسه ـ أي لهواه ـ أو أن يدعوَها ويستغيثَ بها وَيذْبَح لها..إلخ؟! كلاّ، بل المقصود باتّخاذ الإنسان الكافر هواه إلهاً ومعبوداً، هو: أن يُطِيعَها ويَخْضَع لها وينقادَ لما تأمره به، كما قال الشاعر:

ومن أباح النفس ما تهواه   فإنّما إلهُهُ هواه

وكذلك بدون هذا الفهم الصّحيح لكلمة العبادة، لا يمكننا فهم حديث رسول الله ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَم، وَعَبْدُ الْقَطِيفَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ**» (أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ رقم: (٢٧٣٠)، وَابْنُ مَاجَهْ رقم: (٤١٣٥) عَن أَبِي هُرَيْرَةَ).

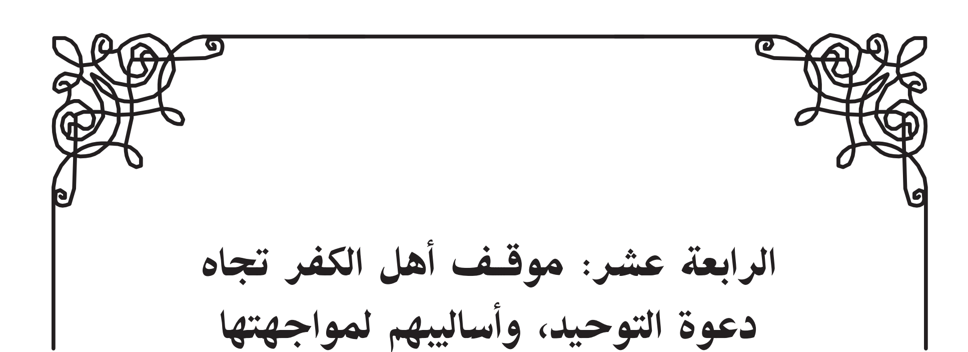
وكذلك بدون هذا الفهم لا يمكننا فهم قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون].

إذ حسب هذه السورة ـ والّتي يُخاطِبُ الله فيها الكفّارَ كلَّهم بلا استثناء، بدلالة الأَلِف واللاّم ـ كُلُّ الكفار بكافة أنواعهم وأصنافهم عابدون لغير الله تعالى، ولهم دينٌ غير دين الله الحق، ومن الواضح أنّنا لا نرى الركوع والسجود والدعاء..الخ، من كل الكافرين، ولكن نراهم كلَّهم خاضعين ومطيعين ومنقادين لغير الله تعالى، سواء كان ذلك الغير: طاغوتاً أو هوىً أو متاعاً أو صَنَماً أو وهماً..ألخ، وعليه: فالشيءُ الذي يُمَثِّل النُّقْطَةَ

المُشْتَرَكة بينهم جميعاً، هو خضوعُهم وانقيادُهم لغيـر الله تعالى، وتعلُّقهم به واستسلامهم له، ومن ثم فذلك هو المقصود بـ(عبادة) هم، وكذلك هو المقصود بـ(دين) هم، اللَّذَيْنِ أمر الله تعالى رسوله ـ وأمته من ورائِهِ ـ إعلانَ برائته منهما، بأوضح عبارة وأبلغها وآكدها.

أجَلْ، لِكلّ من أهل الإِيـمان وأهل الكفر، عبادَتُهُ الخاصَّةُ ومعبودُه الخاص، ودينُه الخاص.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الرابعة عشر: موقـف أهل الكفر تجاه دعوة التوحيد، وأساليبهم لمواجهتها

وبعد التدبُّر في هذه الآيات المباركات نَطَّلِعُ على موقف أهل الكفر عموماً تجاه دعوة التوحيد، وأساليبهم في مواجهتها:

١ ـ ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص].

٢ ـ ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ [ص].

٣ ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات].

٤ ـ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ...﴾ [الزمر: ٤٥].

٥ ـ ﴿...وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

٦ ـ ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات].

٧ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون].

٨ ـ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف].

٩ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت].

١٠ ـ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء].

ويمكننا سَرْدُ مواقِفِ الكفّار، من دعوة التوحيد المباركة، وأساليبهم التي يتّبعونها ويستخدمونها لمواجهتها ـ توخّياً للإيجاز ـ، تحت العناوين الثمانية الآتية:

١ ـ التَعَجُّبُ والإستغراب:

كما في الآية (٥) من (ص)، وآيات أخرى كثيرة أيضاً، ومن الواضح أنَّ دعوة التوحيد المنسجمة مع العقل والمأنوسة للفطرة، لا تُثيرُ الدَّهشة والعَجَب، ولكن كما أنَّ المريضَ الذي يُفسِدُ المَرَضُ (وخاصة الحُمّى) مِزاجَهُ، يجِدُ الماء العَذْبَ مُرّاً في فَمِهِ، وربّما استَعْذَب ما يضرُّهُ ويزيده مرضاً من الطعام والشراب، كذلك الكافِرُ الفاسِدُ مِزاجُ رُوحِهِ، يستوحِشُ من الحق ويستأنس بالباطل، الذي يرفضه العقل والعلم، ويتصادم مع الفطرة السّليمة.

٢ ـ الكيد والتدبير:

كما في الآية (٦) من (ص)، وإنّما دوماً يتصدّى (الملأ) المستكبرون للدعوة الربانية المتجسِّدة في التوحيد، ويُحرِّضون المجتمع ضِدَّ حملة راية التوحيد، لأن دعوة التوحيد تقطع الطريق بِحَزم وشدَّة أمامهم، ولا يُفسِحُ لهم المجال للتألُّه والتَّفَرْعُنِ على الناس، إذ حسب دعوة التوحيد، ليس هناك إلّا رب واحد، وإلهٌ واحد، والبقية كلُّهم سواء في المَرْبوبيَّة والعبودية.

٣ ـ الإستكبار:

كما في الآية (٣٥) من (الصافات)، وهذا أيضاً من مواقف الطواغيت المتألِّهين، لأنَّ الذي يتكبَّر على العبودية لله، هو الطاغوت المُتَفَرْعِنُ الذي يريد التألّه على الناس، إذاً: كيف يخضع للإله الحقِّ، ويَفْقِدَ ذريعةَ التألّه؟!

٤ ـ إشمئزاز القلب:

كما في الآية (٤٥) من (الزمر)، وكيف يفرح القلب المريض الذي أفسد مِزاجَه الكُفْرُ والعصيانُ، بالتوحيد وذكر الله الذي هو غِذاءٌ فقط للقلب السّليم؟!

٥ ـ النفور والجفول:

كما في الآية (٤٦) من (الإسراء)، والعلَّة هي نفسها التي ذكرناها من قبل: مرض القلب وفساد المزاج.

٦ ـ السّعي لتشويه سمعة داعي التوحيد:

كما في الآية (٣٦) من (الصافات) و(٢٣ و٢٤) من (المؤمنون) و(٦٥ و٦٦) من (الأعراف)، حيث اتَّهم كُفّارُ العرب النبيَّ الأميَّ ﷺ بالشاعرية والجنون! واتهم قومُ نوحٍ نوحاً عليه السلام بأنه يريد التزعُّمَ والترؤس عليهم! كما واتَّهم قومُ عادٍ نبيَّ الله هوداً عليه السلام بالسَّفاهة والكذب!

وهذه التهم وأمثالها، هي نفسها التي يُرْمى بِها العاملون للإسلام اليوم، من قبل أعداءِ الإسلام الحاقدين.

٧ ـ التشويش على الدَّعوة:

كما في الآية (٢٦) من (فصِّلت)، والتشويش على الدَّعوة ـ بعد تشويه سمعة الداعي ـ أسلوب آخر من أساليب أعداء دين الله الحق ودعوته

التوحيدية، وهناك وسائل كثيرة يستعملها أعداءُ الإسلام والتوحيد لتحقيق الغَرَض المذكور، تختلف وتَتَنوَّعُ، تبعاً لاختلاف الأحوال والظروف.

أجل إنَّ المقصود بقول الكفار: ﴿...لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، هو الحيلولة بين الناس وسماعهم كلام الله الحق، وذلك بفعل اللّغط والصِّياح عند قراءته، لِئَلاّ يَنْسَمِعَ صَوْتُهُ!

ولكن لا شك أن كيفية إحداث اللَّغط واللَّغو للحيلولة دون الناس وسَماع صوت كتاب الله وفهمه، والإطّلاع على حقائقه وأنواره، تختلف من ظرفٍ إلى آخر.

٨ ـ التهديد والإرعاب:

كما في الآية (٢٩) من (الشعراء)، وهذه هي الوسيلة الأخيرة التي يلجأ إليها أعداءُ دين الله الحق ودعوته التوحيدية، عندما يرون أن الأساليب والوسائل السابقة لم تُسْعِفهم ولم تُوْقِفِ الدعوة!

وكما قلنا قبل قليل:

هذه المواقِفُ والأساليبُ لأعداءِ التوحيد، هي نَفْسُها في كل العصور يُكرِّرها الطواغيتُ والمُرْتَمون في أحضان الشيطان، والمنخرطون في سلك حزبه الخاسر، بنفس جوهرها، مع إضفاءِ شيءٍ من التغيير الظاهري الذي يقتضيه كل عصر!





الخامسة عشر: تَأْليهُ الله تعالى وعبادتُه، شيءٌ مركوز في الفطرة البشرية، ولكن معرفة كيفيتها، متوقفة على الوحي

أجَل إن الإنسان كما أَنَّ إدراكَهُ لخالقية الله وربوبيَّتِهِ ومالكيَّتِهِ وشعوره بها، حقيقة اعْتُجِنَتْ بطينة فِطْرَتِهِ، كذلك شعورُهُ بألوهيَّتِهِ تعالى وعبوديَّته له، ثم إحساسُهُ بضرورة التعبّد له، بل اشتياقه لذلك، شيءٌ فطري جِبِلّيٌّ.

ونكتفي في هذا المجال بالإستشهاد بالآيات الآتية:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم].

وتَهَبُنا هذه الآياتُ الحقائِقَ السِّتَّ الآتية، فيما نحن بصدد البحث فيه:

١ ـ **يدلّ قوله تعالى:** ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ﴾ على أنه يجِبُ على الإنسان أن يَتَّبِعَ دين الله وشريعَته، اتِّباعاً خالصاً صافياً لا شَوْبَ فيه، أي يجِب أن يَتَعبّد لله تعالى بالإلتزام التام بدينه، والسَّير الدقيق على صراطه كما أنزلَهُ الله تعالى، وبيَّنه نَبيُّه الخاتَمُ ورسولُه الأعظم (محمد) صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ولا يَخْلُطَ به شيئاً من هواه أو هوى غيره، لأنَّ الّذي

يُشَوِّه الوجه المشرق لدين الله الحق، ويَذْهَبُ بِبَهائِهِ وَرَوْنَقِهِ الربّانيِّ، ويُفسِحُ المجال للطّعن فيه والنَّيل منه، هو خَلْطُ غَيْرِهِ به، ومن درس تأريخ اليهودية والنصرانية، وماذا جرَّ عليهما التحريفُ وخَلْطُ ما هو غريب عن الدين الربّاني به، يُدْرِك مدى خطورة هذا الأمر وأبعاده.

وكيفية دلالة الجملة القرآنية السّابقة على ما ذكرنا، هي:

أَنَّ (إقامة الوجه للدين) يُقْصَدُ بها أَنْ يجعل الإنسانُ دِيْنَ الله مِرآةً وميزاناً لإيمانه وتصوّراته وأعماله وتصرّفاته، وأن يكون مستقيماً عليهِ، من غير عِوَجٍ وَمَيْل، وكلمة (حنيفاً) تأكيد لها، لأن الحنيف هو الذي يترك الباطل كليًة، ويميل إلى الحق، ويتوجّه إليه بقلبه وقالبه[1].

ومن المعلوم أنَّ الذي يَلْبِسُ شيئاً من تصوّراته وأفكاره أو تصوّرات وأفكار غيره بدين الله، لا يُحْسَبُ لا مستقيماً ولا حنيفاً، كما أوجبه عليه ربّ العالمين!

٢ ـ **ويدلّ قوله تعالى**: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ والذي هو تفسير للجملة السابقة أو (بَدَلٌ) عنها، أنَّ دينَ الله الحَقَّ، موافِقٌ بل مطابق للفطرة البشرية، أي إن كل ما تقتضيه الفطْرَةُ السّليمةُ، يَسْتَجِيبُ لها الدين، وكلُّ ما أوجبه الدين، تَتَقَبَّلَهُ الفِطْرةُ وتَرْتاحُ له، وذلك لأنَّ الله فسَّر الدين بـ(الفطرة)، أو جعل (الفطرة) بدلاً عن (الدين) والمعنى سواء في الحالين.

وواضح أن توحيد الله تعالى وتقديمَ العبادة له من غير شريك، هو قُطْبُ مَدارِ الدِّين، وروحه التي تسري في جميع أجزائه، إذاً:

فالعبادة لله تعالى وتأليهه، جزءٌ من فطرة الإنسان وحقيقةٌ مَفْطور عليها.

٣ ـ **ويدلّ قوله تعالى**: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ...﴾ أنَّ الفطرة التي فطر الله عليها الناسَ من لدن أبينا آدم عليه السلام، إنّما هي فطرة ثابتة لم تتغيَّرْ

---

(١) المعجم الوسيط، ص ٢٠٣.

ولا تتغيَّر، والمقصود بثبات الفطرة البشرية وَعَدَمُ تبدُّلها وتغيُّرها، هو ثبات جوهرها من حيث أشواقها ونوازعها وغرائزها، وليس المقصود عدم تغيّر صورة الحياة وعدم تطوّرها، إذْ هذا حاصل وواقع لا يُنْكَر، أجل إنَّ الحياة البشرية تتغيَّر وتتطوّر باستمرار، وتتبدَّل صُوَر المجتمعات دَوْماً، ولكن الإنسان كإنسان، سَيَظَلُّ هو كما خلقه الله تعالى، من حيث جوهَرُهُ البشري وأشواقُه ونوازِعُه وغَرائِزُه الروحية والنفسية والجسمية.

٤ ـ **ويدلُّ قوله تعالى**: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ تعقيباً على ما مرَّ ذكره، أنَّ علامة الدِّين الصَّحيح المستقيم، هي: مطابقته لفطرة الإنسان واستجابته لمتطلَّباتها، وذلك لأنَّ الله تعالى بعد أن أعلن مطابقة الفطرة للدين القَيِّم الذي أمرنا بالإستقامة عليه، وأخبرنا بأن الفطرة البشرية ثابتة، قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، ومعنى هذا: أنَّ الدِّينَ (المنهج) الصحيح المستقيم للحياة، هو فقط ذلك الذي يتطابق مع الفطرة البشرية، وليس ذلك سوى دين الله الحق، المتمثِّل بعد بِعْثة خاتم النبيِّين (محمَّد) في الإسلام، المتجسِّد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وبِقَدَرِ ما يتصادَمُ الدينُ الربّانيُّ ـ أي في أصله ـ مع فطرة الإنسان السَّويَّة، يشهد على نفسه بحدوث التحريف فيه، كاليهودية والنّصرانية اللَّتَيْن أخبرنا الله العليم الخبير، بأنه قد حصل فيهما تحريف وتغيير، كما أشرنا إليه في الفصل الأول من الباب الأول، وسَنُفَصِّل فيه القول في الباب الرابع ـ أي: الكتاب الثاني عشر ـ، عند حديثنا عن اليهود والنّصارى، كأحد أصناف أهل الكفر الخمسة، بإذن الله تعالى، والدين ـ أي الربّانيُّ الأصل ـ عندما يحدث فيه التحريف والتغيير، ومن ثمَّ يتصادم مع الفطرة السّوية، من حيث العقل والقلب والغرائز، وجلب المصالح ودفع المفاسد..الخ، يَنْبَذُه الناسُ ويُبْعِدُونَهُ عن أنفسهم عاجلاً أو آجلاً، لأن الدين المحرَّف يُصبح حجر عثرة في طريق حياة الناس، ويصير مصدر ضرر وشر وفسادٍ لهم، وهذا بيِّن جداً في تاريخ النصرانية خصوصاً ـ، وأما الذي يَظَلُّ محفوظاً ولا تَمُسُّهُ يدُ التحريف والتغيير، كما هي الحال بالنسبة للإسلام الذي أعلن الله حفظ كتابه (الذي هو متنه وأصله) بنفسه، حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر]، فهو يبقى ويظلّ ثابتاً على حاله، ومُحقِّقاً للغرض الذي أنزل له، وهو هداية الإنسان وتنظيم حياته الفردية والأسرية والجماعية، بالصورة التي تُسْعِدُ الإنسانَ فرداً ومجتمعاً في دنياه وأخراه، وتجعله جديراً برضوان الله وحسن ثوابه.

والآن توضيحاً لما قلناه وإثباتاً، سَنُدْرِجُ أهمَّ الأشواق والنوازع والغرائز الفطرية التي تشترِك فيها البشرية، ونستشهد لكل منها بِنصّ واضحٌ وصريح أو أكثر، من كتاب الله الحكيم، كي يتبيَّن بجلاءٍ ـ لمن لا يعلم أو عنده شيء من الرَّيب ـ أَنَّ دينَ الله الحق المحفوظ من التحريف والتغيير، يُلَبِّي كلَّ ما في فطرة الإنسان، من دواع ونوازع:

١) نزعة التعبّد لله تعالى:

أ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة].

ب ـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة].

٢) نزعة التعلّم والإطّلاع:

أ ـ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ...﴾ [العنكبوت: ٢٠].

ب ـ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه].

٣) الشوق إلى العدل والقسط:

أ ـ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ...﴾ [الحديد: ٢٥].

ب ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ...﴾ [النساء: ١٣٥].

ج ـ ﴿...وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ...﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٤) الإشتياق للجمال والزينة:

أ ـ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ...﴾ [الأعراف: ٣٢].

ب ـ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل].

٥) غريزة الأكل والشرب:

أ ـ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ . . .﴾ [الأعراف: ٣١].

ب ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ . . .﴾ [المؤمنون: ٥١].

٦) غريزة التَسَتّر ولبس الثياب:

ـ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ . . .﴾ [الأعراف: ٢٦].

٧) الغريزة الجنسية:

أ ـ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ . . .﴾ [الروم: ٢١].

ب ـ ﴿. . . هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ . . .﴾ [البقرة: ١٨٧].

٨) غريزة الحب وامتداد النسل:

أ ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ . . .﴾ [النحل: ٧٢].

ب ـ ﴿. . . رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

٩) غريزة التَملُّك:

أ ـ ﴿. . . وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ۝٣٢﴾ [النساء].

ب ـ ﴿. . . فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ . . .﴾ [البقرة: ٢٧٩].

١٠) نزعة الشعور بالشخصية والكرامة:

أ ـ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين].

ب ـ ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء].

١١) غريزة الدفاع عن الذات فرداً ومجتمعاً:

أ ـ ﴿... فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ...﴾ [البقرة: ١٩٤].

ب ـ ﴿... لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

١٢) نزعة حُبِّ الصِّيت والذِّكر الحَسَن في الناس:

أ ـ ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء].

ب ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم].

١٣) غريزة حُبِّ الشهوات:

ـ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ...﴾ [آل عمران: ١٤].

١٤) نزعة حُبِّ الحرية والإختيار:

أ ـ ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان].

ب ـ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ...﴾ [الكهف: ٢٩].

١٥) الشّوق إلى القدوة المُثْلى:

أ ـ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ...﴾ [الأنعام: ٩٠].

ب ـ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ [الأحزاب: ٢١].

١٦) التطّلع إلى الإمامة والقيادة في الخير:

ـ ﴿. . . وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

١٧) الشوق إلى رضوان الله والحياة الهنيَّة الخالدة:

أ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة].

ب ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر].

وهذا الموضوع واسع الأطراف في كتاب الله، ولكن نكتفي منه بهذا القدر، ونكرِّرُ ما قلناه سابقاً: انَّ ديناً يُقِرُّ بكل النوازع الفطرية في الطبيعة البشرية، ثم ليس يَسْمحُ بها فَحَسْبُ، بَلْ ويأمر بإشباعها وتنفيذ طلباتها في الحدود التي رسمها لها بِدقة وتوازن، سَيظَلُّ ثابتاً وراسخاً ولا يُزَعْزِعُهُ شيءٌ عن مكانه، طالما بقي الإنسان إنساناً.

٥ و ٦ ـ **ويدلّ قوله تعالى:** ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم]، على أن الشرك بالله تعالى نَقيضٌ للفطرة السَّليمة، عكس الإنابة إلى الله تعالى وإقامة الصلاة اللَّتَيْن تَقْتَضيهما الفطرة اقتضاءً، وذلك لأن الله تعالى رتَّب النَّهيَ عن الشرك بالله، والأمرَ بالإنابة إليه، وإقامَةَ الصلاة، على إقامة الوجه للدين المطابق للفطرة، إذاً: فهذه الأشياء أيضاً من مقتضيات الفطرة السليمة.

ثم ان تعريف الله تعالى المشركين بكونهم: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾، يفهم منه أن تجزئة الدين والتفرّق فيه، فِرقاً وأحزاباً متناحرة متنازعة، كل يقنَعُ بما هو عليه ويعتبره الحق المطلق، ويرفض ما عند الآخرين، كذلك مخالِفٌ للفطرة السليمة، بعكس الأخوَّة والوحدة والتعاون والتنسيق.

وقال رسول الله ﷺ في مجال تطابق دين الله الحق والفطرة البشرية

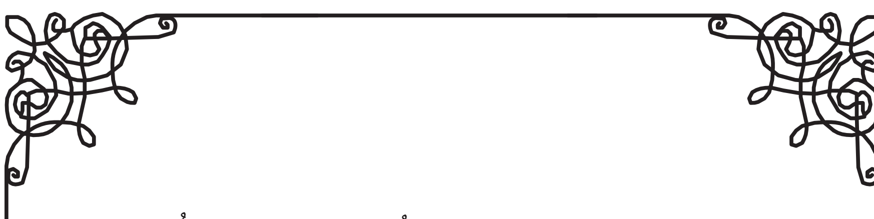
السَّليمة: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟» (أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ برقم: (٤٧٧٥)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٦٥٨) بلفظٍ قريب منه، عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ).

وبناءً عليه:

فالتعبّد لله تعالى وتوحيده، مِمّا فَطَر الله تعالى عليه البَشَرَ، وإذا خُلِّي بين الإنسان وفطرته، ولم تؤثّر فيها المؤثّرات الخارجية، فلا تختار ولا تُحَبِّذُ غير عبادة الله تبارك وتعالى وتوحيده فيها، ولكن كيفية العبادة والتألُّه لله تعالى، تتوقف معرفتها على الوحي، ولا تُعْرَفُ إلّا عن طريقِهِ، وذلك كما أنَّ شوق الإنسان للعلم والمعرفة والإطّلاع، وان كان شيئاً فِطرياً ومركوزاً في الطبيعة البشرية، لكنَّه لا يُغْني عن التعلُّم والسَّعي لكسب المعرفة مِنْ مَظانِّها[1]، كذلك فطرية التعبّدِ لله تعالى والظمأ إلى توحيده، ليست بديلاً عن هداية الله أولاً، ثم التعليم والتربية ثانياً.



(١) مَظِنَّة الشيء: مَوْضِعُهُ ومأْلَفُهُ الذي يُظَنُّ كونه فيه. ج: مظان. المعجم الوسيط، ص٥٧٨.



السادسة عشر: لا يمكن الفوزُ بلقاءِ الله ونَيْلُ رضوانه، إلاّ بالعمل الصالح والعبادة الخالصة

كما قال الله تعالى مُخاطباً رسوله المبعوث رحمة للعالمين ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

يأمر الله تبارك وتعالى في هذه الآية، خاتم النبيّين وسيِّد المرسلين محمداً ﷺ أن يُعلن للناس كلِّهم، ثلاثَ حقائق عظيمة:

١ ـ أنه هو بشر مثل سائر الناس، ولا يَمْتازُ عليهم من الناحية البشرية بشيء: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

ومَن يَطَّلعُ على غُلوِّ أهل الكتاب في تعظيم أنبيائهم، وخاصة النّصارى حيث ألَّهوا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، بل جَعلوه نفس الله تعالى وابْنَهُ[1]!! يدرك حكمة تأكيد كتاب الله المستمر على بشرية خاتم النبيين وسيِّد الأولين والآخرين (محمَّد) ﷺ.

وكذلك يُدرِكُ حكمةَ نهي رسول الله ﷺ وتحذيره الشديد من الإفراط

(١) فعلى سبيل المثال يقول مؤلِّفوا كتاب (التفسير التطبيقي للعهد الجديد): (ويجب علينا مثل المؤمنين في (كولوسي) أن نؤمن بأُلوهية يسوع المسيح، أي أنَّ يسوع المسيح هو الله، وإلّا يُصبح إيمانُنا إيماناً أجوف بلا هدف ولا معنى، وهذا هو الحق الرئيسي في المسيحية) ص(٧٠٠)، ط سنة ١٩٩٦، شرح رسالة بولس إلى مؤمني كولوسي.

في مَدْحِهِ والثناءِ عليه، كما قال في أحد أحاديثه: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ» (أَخْرَجَهُ أَحْمَد برقم: (١٥٤)، وَالبُخَارِيُّ برقم: (٣٢٦١)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٦٢٣٩) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ رضي الله عنهما)، وقال ذلك عندما مدحه رجلٌ وأراد الإفراط، فأوقفه النبي الحكيم عند حدِّه، بهذا القول الرَّصين السَّديد.

٢ ـ وأنه ليس للناس إلهٌ سوى إلهٍ واحدٍ، وهو الإله الأحد الصّمد الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفواً أَحَد، جلّ شأنه: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، والإله هو المعبود، إذاً: لا يصّح أن يُتَّخَذَ غيرُ الله الإله الحق الوحيد، معبوداً في أي جانبٍ من جوانب العبادة الشاملة، للعقل والقلب واللسان والجسد، والفرد والأسرة، والمجتمع والدولة.

٣ ـ وأنَّ من يأمل أن يفوزَ بلقاء الله سبحانه وتعالى ورحمته ورضوانه يَجِبُ أنْ يحقّق في نفسه شيئين:

أ ـ العمل الصالح.

ب ـ عدم إشراكه أحداً في عبادة ربِّه، بأن يعبد ربَّهُ عبادة خالصة لا شائبة فيها: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾.

والعمل الصالح لا يحصل إلّا بتوفّر شرطين:

١ ـ موافقة الشرع (الإتّباع).

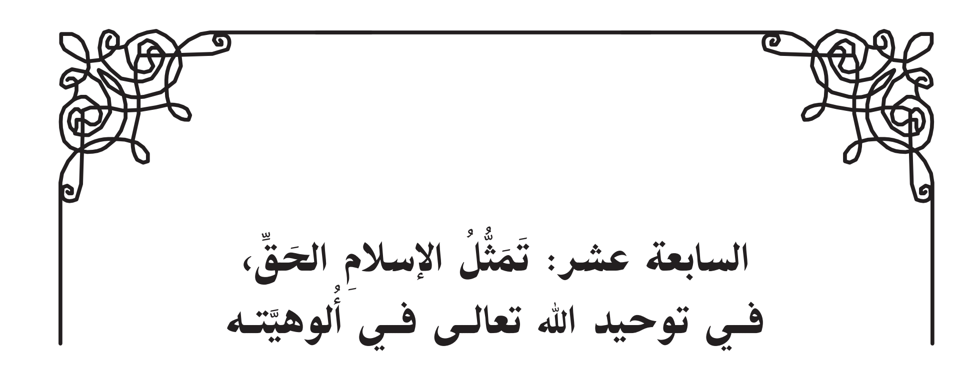
٢ ـ تجريد النّية لله (الإخلاص).

ومن الواضح ان مفهوم العمل الصالح يشتمل على العبادة الخالصة، بل هو نفسها في الحقيقة، ولكن هذا ذكرٌ للخاصّ بعد العام، لإبرازه وزيادة الإهتمام به، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ [البقرة]، إذْ من البيِّن أَنَّ مفهوم [﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾] يشمل [﴿وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾] ولكن إبرازاً لمكانتهما من بين الملائكة، ذُكِرا خصوصاً بعد العموم.

ويـمكننا القول أيضاً: أن المقصود بالعمل الصالح، هو التصرّفات والـمعاملات الجارية بين الناس بعضهم مع بعض، والمقصود بالعبادة، هو ما يقوم به العبد بينه وبين ربِّـه، وذلك طبقاً للقاعدة القائلة:

إن الكلمات والمصطلحات القرآنية التي لـها مفاهيم شـاملة ومعانـي جامعة، مثل (الدين، والإسلام، والعبادة، والإِيـمان، والتقوى، والبِّـر، والعمل الصالح) عندما تنفرد في السياق، تشمل مفاهيمها وتتسع معانيهـا إلى أن تتضمَّن بعضها البعض، ولكن عند ورودها مقترنـة بعضها مع بعض، يـختصّ كل منها بـمفهوم مُحَـدَّدٍ.





السابعة عشر: تَمَثُّلُ الإسلامِ الحَقِّ، في توحيد الله تعالى فـي أُلوهيَّتـه

كما قال الله العزيز الرحيم جـلَّ وعلا مُخاطباً خاتـم الأنبياء ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء].

إذْ يأمر الله تعالى في هذه الآية رسولَ الله النَّبـيَّ الأُميَّ ﷺ أن يُعلِنَ للناس ويُعْلِمهُمْ، بأنَّ الله تعالى أوحى إليه أن الناس ليس لهم سوى الله (إله) آخر، فالإله الحق هو إلـهٌ واحدٌ أحدٌ فحسب، وهو الخالق الرب الـمالك تبارك اسـمُهُ وتعالى جِـدُّهُ، ثم يقول رسول الله مُسْتَفْهِماً مخاطبيه وهم الناس كلهم: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟! والـمقصود بـهذا الإستفهام هو الأمر، أي: فصيـروا مسلمين بتوحيد الله والعبادة له، من دون إشراك غيـره فيها.

نعم، إنـما يُصبِح الإنسانُ مُسْلماً، فقط، عندما يتخذ الله تبارك وتعالى إلهاً له، وذلك بعبادته عبادة شاملة كاملة خالصة، كما بيّنّا مفهومَها سابقاً، وكذلك يصبح المجتمع مجتمعاً مُسْلِماً حقاً، فقط، عندما يتخذ الله تعالى إلـهاً ومعبوداً ويعبده العبادة اللاّئقة به، والتـي بيَّنها لنـا بنفسه في كتابه الحكيم، وتولّى تطبيقَها وتَجسيدَها في عالم الواقع كما يُحبُّه ويرضاه، نبيُّـه الكريـم ﷺ من خلال سُـنَّتِهِ، ولـهذا أكّد علينا سبحانه اتباع نبيِّـه الخاتم والإقتداء به، واعِـداً إيّـانا مقابـل ذلك:

١) الفوز برضـوانه وثوابـه.

٢) وحبِّـه لنا ومغفـرته لذنوبنـا.

كمـا قال تعـالى:

١ ـ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

٢ ـ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

وذلك لأن رسول الله ﷺ كـان أعلـم النـاس بـالله، وأخشاهـم منـه[١]، واتقاهم له، وأعبدهم له، وأقربهم منه، وأكرمهم عنده، إذاً:

فمن اتبع رسول الله ﷺ حقاً، واقتـدى به صِـدقاً، فهو يتحلَّى بـمقدار ما حقّـقَ في نفسـه من الإتباع والإقتـداء، بـما تحلَّى به رسول الله ﷺ، كُلٌّ بِحَسَـبِهِ.

ولكن من المعلوم ان رسول الله ﷺ كان في القِمّـةِ من كل الجوانب، وهذا لا يتيسَّر لأحدٍ غيـره، ولكن ان كان الوصول إلـى القمة بعيد الـمنال، فالتشـبّه والإقتراب مُتيسَّـرٌ لـمن أراده، وبَـذَلَ الجهد وسـعى له سـعيه، بإذن الله وتوفيقـه.



(١) كما قال ﷺ: «**أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له**» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ برقم: (١١٠٨)، عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ).



الثامنة عشر: العبادة الحقيقية لله تعالى تُحلِّي الإنسان بجميع الفضائل وتُخَلِّصُهُ من كل الرَّذائل

وتدلّ على هذه الحقيقة آيات كثيرة، منها الآيات (٦٣ إلى ٧٧) من (الفرقان) والتي يَمْدَحُ الله تبارك وتعالى فيها عبادَه الموسومين بـ(عباد الرحمٰن) وينعتهم بأوصاف هي أصول الفضائل، وكذلك ينفي عنهم خصالاً هي أمهات الرذائل، وهذا يدلّ بوضوح على أن العبادة الصّحيحة تجعل الإنسان مُتَّصفاً بالصفات الحميدة، ومُتَخلِّياً عن الخصال الذَّميمة، ويكون التحلِّي والتخلِّي بحسب نوعية العبادة ودرجتها.

والآن نَسْرُدُ ما مدح الله تعالى به عبادَه المَرْضيِّين من النعوت، حسب ترتيب ورودها في الآيات الكريمة المشار إليها آنفاً:

١ ـ المشي بسكينة ووقار: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾.

٢ ـ موادَعَةُ الجاهلين وعدم التَنَزُّلِ إلى مستواهم: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾.

٣ ـ إحياءُ اللّيل بالعبادة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾.

٤ ـ الخوف من عذاب جهنّم، والتضرَّع إلى الله بَصَرْفِهِ عنهم:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾﴾.

٥و ٦ ـ إنفاق المال بحكمة واعتدال، وتَجنُّبِ الإسراف والبخل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾﴾.

٧ ـ توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

٨ ـ عدم قتل النَّفس الـمُحرَّمِ قتلها إلّا بحق الشرع: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾.

٩ ـ عدم ارتكاب الزِّنى: ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ .

١٠ ـ التوبة إلى الله بعد اقتراف الذنب، وتجديد الإيمان، وفعل الصالحات: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾.

١١ ـ حفظ التوبة وقدْرِها قَدْرَها، وتوثيق الصِّلة بالله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾﴾.

١٢ ـ عدم حضور ومشاركة مجالس الإثم والكذب: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾.

١٣ ـ المرور باللّغو (فعلاً كان أو قولاً) بوقار وعدم مُشاركته: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾.

١٤ ـ التفاعل الإيجابيُّ عند التذكير بآيات الله الأمرية والخلقية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾﴾.

١٥ ـ دُعاءُ الله تعالى بجعل الأهل والأولاد مبعث سرور بسبب كونهم طائعين لله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾.

١٦ ـ دُعاء الله تعالى بجعلهم مؤهَّلين لإمامة ورِيادَةِ أهل التقوى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

وعند التأمل في هذه النعوت والأوصاف، نَجِدُ أَنَّها جَمعت أصول الفضائل فعلاً، وأمهات الرذائل تَركاً، وهاك البيان باختصار:

١و٢) فأمّا المشيُ بسكينة ورَزانة، وعدم التنـزّل إلى مستوى الجَهلة ومشاركتهم، فيتجلَّى فيهما خُلُقُ عبادِ الرحمٰن الرفيع بالنهار، وفي مجال تعاملهم مع الناس فعلاً وقولاً، أمّا فعلهم، فحركة ومَشيٌ برزانة ووقار، وأما قولهم، فأدبٌ وسَلامٌ حتى مع الجاهلين وسيّئي الخلق، فما بالك بغيـرهم!

٣و٤) وأما دَيْدَنُهُم باللَّيل وكيفية تعاملهم مع ربِّهم، فَتَتَمثَّلُ في كثرة السجود والقيام (أي الصّلاةِ)، ثم طلب الرحمة والمغفرة والعياذ بالله من عذاب جهنَّم وارتعاد الفرائص خوفاً منه، وهذا يعني أنهم مع اجتهادهم في الطاعة، ليس يكونون بِمَنْأىٰ عن الغرور فَحَسْبُ، بل ويزدادون وَجَلاً وخشية من الله تعالى، وخوفاً من عقابه العادل.

٥و٦) وأما في مجال الكسب والمال، فَيَتَحَلَّوْن بالتوسُّط والإعتدال، ويتجنَّبون رَذيلتي الإسراف والبخـل.

وهذا يفهم منه أنـهم:

أولاً: ليسوا عجزة كسالى في مجال الكسب وتأمين المعيشة، بدليل أنهم يملكون ما ينفقونه! والفقيـرُ العاجز يُنْفَـقُ عليه ولا يُنْفِـقُ!

وثـانياً: أنَّهم ذووا بصيـرة وخبـرة بالحياة والنـاس، وليسوا أهل غفلـة وسذاجة!

٧) وأما في مجال العقيدة والإيـمان، فهم أهل التوحيد الخالص البعيد كل البعد عن الشرك، ولا يعرفون غير الله إلهاً، بَلْـهَ أن يعبدوهُ!.

٨و٩) وأما في مجال استعمال قواهم الغضبية والشهوانية، فهم ضابطون لأنفسهم ويتجنَّبون القتل بغيـر الحق، وكذلك يتجنَّبون الزنـى.

وهذا يعني أنهم يستعملون قوتهم الغضبيَّة في الدائرة التي أوجب الشرعُ أو أباحَ استعمالها فيها، كالقصاص والدفاع عن النفس والعِرْض والمال، والجهاد في سبيل الله، وكذلك يُشْبِعون قوَّتهم الجنسيَّة في الدائرة

التي أباحها الشرع لهم، إذاً: فهم لا يَتَّصِفون بالعدوان والفساد من جانب، ومن جانبٍ آخر فهم بعيدون كذلك من الجُبْنِ والخُمول، بل هم شُجْعانٌ عفيفون!

١٠و١١) وعندما تَزِلُّ بهم القَدَمُ ويقعون في خطأٍ ما، أياً كان نوعُهُ وقَدْرُهُ، فهم لا يتمادون فيه من جانب، وكذلك لا ييأسون من جرّائه من رحمة الله ومغفرته من جانبٍ آخر، بل يرجعون إلى ربِّهم فوراً، ويُصلحون ما أَفْسدُوه بالإيمان والعملِ الصالح، ثم يحفظون توبتهم تلك ويَقْدِرونها قَدْرَها، ويعلمون في جَنْب من أخطأوا سابقاً، وإلى باب من رجعوا الآن!

١٢و١٣) وفي مجال كيفية التعامل مع المجالس والأمكنة التي تُرْتَكَبُ فيها الآثام والكذب، أو على الأقل ينشغل أهلُها باللَّغو فعلاً أو قولاً[١]، أجل في هذا المجال يتّبع عبادُ الرحمٰن، هاتين القاعدتين:

الأولى: عدم حضور ومُشاركة المجالس الإثمية بحالٍ من الأحوال.

الثانية: المرور بالمجالس اللَّغوية برزانة واحترام.

وهذا يعني أن مجالس الإثم لا يجوز حتى المرور بها، ولكن مجالس اللّغو أمرها أهون.

ولعلّ حكمة ذكر تجنّب مجالس الزّور واللّغو بعد ذكر التوبة، هي: أن التائب إلى الله، قد تكوَّنتْ له في زمن جهالته وغيِّه، عاداتٌ سَيِّئةٌ وارتباطاتٌ مع رفقاءِ سوء، لِذا يجب عليه الحذر والحيطة في الإختلاط بهم والإنخراط في سلكهم ثانية.

١٤) وأمّا تعاملهم مع آيات الله المتلوة والمنظورة، فيتمثَّل في إرهاف السَّمْع وتدقيق النظر لفهمها والإتِّعاظ بها، وإدراك أسرارها وحِكَمِها، التي أودعها فيها من له الخلق والأمر سبحانه.

---

(١) ١) لأنّ كلمة اللَّغو مَأخوذة من (اللَّغا) وهو صوت العصافير، ويقصد به ما لا فائدة فيه فعلاً أو قولاً، كما قال الراغب الأصفهاني، (مفردات ألفاظ القرآن) ص ٧٤٢.

١٥) وفي مجال الأهل والأولاد، فهم (بعد بذل جهدهم في تربيتهم وإصلاحهم) يسألون الله تعالى لهم، أن يجعلهم بسبب صلاحهم، مَبْعَثَ سعادة وسرور ورفعة لهم في الدنيا والآخرة، وإنّما ذكرت هذه الخصلة هنا ـ أي بعد ذكر كل الأوصاف السابقة ـ لأن من لم يكن صالحاً في نفسه، لا يتسنَّى له إصلاح غيره، أهلاً أو غيرهم.

١٦) **وأخيراً**: يدعو عباد الرحمٰن ربَّهم بعد تَحقُّقهم بالأوصاف العظيمة التي مَرَّ ذكرها، أن يُوفِّقهُمْ ويؤَهِّلَهُمْ لإمامة المتقين، وإنَّما جعلت هذه الخصلة في آخر الأوصاف الحميدة التي يتحلّى بها عباد الرحمٰن، لأن الإنسان لا يكون جديراً بريادة أهل الإيمان وإمامتهم، إلّا بعد أن يجمع في نفسه خِصالَ الخير، ويُصْلِح نَفْسَهُ وأَهْلَهُ.

وفي ختام عدِّ هذه الأوصاف التي تُثْمِرُها عبادة الله وتوحيده في عباده الصالحين الموسومين بـ: (عباد الرحمٰن)، يُعلِنُ سبحانه أن أصحاب تلك الأوصاف سَيُوهَبون ثوابَ الله الجزيل المتمثّل في قصور الجنة العوالي، وهناك يُرَحَّبُ بهم من قبل الملائكة الكرام، بل ومن قبل رب العالمين أيضاً: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان].

ثم يأمر الله تعالى في نهاية المطاف نبيَّه الأمين ﷺ، أن يقول للكفّار والمشركين: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان]، أي: ان ربِّي لا يكترثُ ولا يبالي بكم، إن لم تدعوه وتعبدوه، وبما أنكم بدل العبادة والدعاء قد كذَّبتم، فسوف يكون عقاب الله وعذابه حسب عَدْله، لازماً لكم لزوماً غير مُنْفَكٍّ!

وعليه:

فعبادة الله تعالى (ودعاؤه أَخَصُّ أنواع العبادة) هي التي تجعل الإنسان ذا قدر وأهمية عند الله تعالى، لأنها تُثْمِرُ فيه الفضائل كُلَّها وتُجَنِّبُها الرذائل، لِذا فَمَنْ لم يعبد ربَّه، يسقط عن عينه ولا يكترث به، هذا أولاً، وثانياً: عدم عبادة الله تعالى كما يرضاه، يعتبر كفراً وتكذيباً!



التاسعة عشر: العبادة الخالصة الكاملة، هي التي تُؤَهِّل أهل الإِيـمان للإستخلاف في الأرض

كما قـال الله تبارك وتعالى بـهذا الصـدد:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور].

كما نرى وعد الله الكريم الحكيم أهلَ الإِيـمان والعمل الصالح، ثلاثـة وعود جليلة، واشترط عليهم في مقابلها شرطاً واحداً، أما الوعود الثلاثة فهي:

١ ـ الإستخلاف في الأرض: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: يجعلهم خلفـاءه الآمرين والنـاهين فيها.

٢ ـ التمكيـن لدينهـم الذي اختاره لهـم: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ **أي: يجعل دينهم (الإسلام) مهيمناً على شؤون الحياة.**

٣ ـ إِبدال الخـوف بـالأَمْـن: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ أي: يُغَيِّـر حالَهم من الخوف والقلـق على مستقبلهم ومستقبل دينهم، إلى حالة يستتبُّ فيها الأمن، ويَنْعَمـون فيها بالطمأنينة والإِسـتقرار.

هذا بالنسـبة للوعود، وأما الشرط فهو:

عبادة الله تعالى من غيـر إشراك شيء في عبادته، أي عبادة خالصة كاملة شاملة: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

وقد بيّنا في السابق مفهومَ العبادة، ومفهوم الشرك فلا نعيده، ولكن أودُّ أن أُلقي بعضَ الضوء على كلمة [﴿شَيْئًا﴾] الواردة في جملة: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، فأقـول:

قد ورد مثل هذا التعبيـر أي عدم إشراكِ شيء بالله تعالـى، في أكثر من آيـة، وجَليٌّ أن مفهومَ كلمة (شيء) أعم وأشـمل من مفهوم كلمة (أحد) الواردة بلفظها أو معناها في بعض الآيات، مثل قوله تعالـى: ﴿... وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ سورة الكهف، والحكمة في استعمال كلمة [﴿شَيْـًٔا﴾] في مجال نفي الشرك أو النهي عنه، هي:

أن الشرك بالله تعالى في عبادته ليس محصوراً في شيء دون شيء[1]، بل أي شيء عُومِلَ معاملة معبودٍ و(إلـهٍ) في أي مجال من مجالات العبادة، من حبّ مُطلق، أو تعظيـم مطلق، أو خشية مطلقـة، أو طاعة مطلقة، وكذلك: دعاءٍ، أو استغاثة، أو ركوع، أو سجود، أو ذبح، أو نذر.. فهو قد عُبِدَ من دون الله تعالى أو معـه، ومن ثَمَّ جُعِلَ شريكاً له في العبادة.

ثـم إن استعمال الكلمة المذكورة في سياق الحديث عن أهل الإيـمان والإسلام، يفهم منه أن أَهْلَ الإيـمان إن لم يحذروا ويحتاطوا لأمر دينهم، لرُبَّما يَتَلوَّثون بالشرك، سواءٌ كان الشركاء الموهومون:

أ ـ **من الأشـخاص**: كالطواغيت (أصحاب القصـور) الذين يشرِّعون للناس القوانين المخالفـة لدين الله، ويحلّون لهم الحرام ويُحرِّمون عليهم الحلال، ويأمرونهم بالمنكر وينهونـهم عن المعروف، أو الأموات (أصحاب القبور) الذين يتخذهم الجهلـة أولياءَهم من دون الله، وينسبون إليـهم صـفاتٍ وأفعـالاً لا تـليق بغيـر الله،

(١) وكلمة (شيء) مفهومها عامٌ لا أعمَّ منه، لأنه يتناول القديم والحديث، والجوهر والعرض، والمحسوس وغير المحسوس... الخ.

كمعرفة الغَيْب وشفاءِ المرضى، ويقدِّمون لهم بعض شعائر التعبّد، كالدعاء والإستغاثة والسجود والركوع والنذر والذبح والطواف.

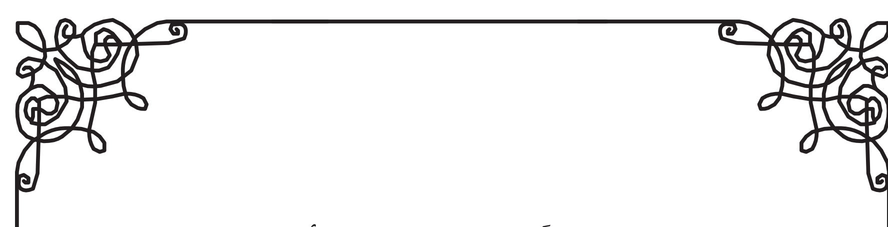
ب ـ **أو من الأشياء**: كالثروة والممتلكات والشهوات والأصنام والهياكل. . .الخ.

وخلاصة القول:

أن أيَّ شيء يُصبح هو المحور ومثار الإهتمام الأكبر في حياة الإنسان، سواء كان ذلك الشيءُ مادّياً كالثروة، أو معنوياً كالجاه والهوى، فهو قد صار إلهاً ومعبوداً له، وانْ صلّى وصام وزعم أنه مُسْلمٌ.

هذا ويمكن أن يُفسَّر قوله تعالى: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ غرضاً للإستخلاف وليس شرْطاً، أي: إن الله تعالى يحقق لكم تلك الوعود لتعبدوه عبادة خالصة بعيدة عن كل أنواع الشرك، إذْ هذا هو الحكمة والغاية التي خلق الله تعالى لها الجِنَّ والإنس: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات].





العشـرون: الجنَّة مخصوصة بأهل التوحيد والعبادة الخالصة لله تعالـى، ولا حَـظَّ فيها لغيـرهم

والآيات الدالَّة على هذه الحقيقة كثيـرة، نكتفي منها بِمثالين:

١ ـ الآيـات (١٠٥ ـ ١٠٦ ـ ١٠٧) من (الأنبيـاء):

ونقتبسُ من أنوار هذه الآيات الأضواء الثلاثة الآتية:

أولاً: كتب سبحانه وتعالى في الزبور بعد التوراة، أن أرض الجنَّـة يرثـها فقط عبـادُهُ الصـالـحون ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

و[﴿ٱلزَّبُورِ﴾] هو الكتاب الذي أنزله الله تعـالى على (داود) عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال تعـالى: ﴿. . . وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ١٦٣].

و[﴿ٱلذِّكْرِ﴾] يقصد به هنـا التوراة لأنَّ الزبور أنـزل بعده أولاً، وثانيـاً: سـمّى الله تعالى التـوراة ذكراً، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء].

و[﴿ٱلْأَرْضِ﴾] المقصودة في الآيـة هي أرض الجنّة بدليـل:

أ) دلالة السـياق، حيـث الآيات كلّها تتحـدّث عن الآخرة وأحداثهـا ومقدِّماتـها ونتائجهـا.

ب) ودلالـة الـواقع، إذ لا بدَّ منْ أن يتحقق وعدُ الله، ولكن قلّما

تـمكَّنَ عباد الله الصالحون من الأنبياء وغيـرهم من السـيطرة على الأرض، بل عاشوا مضْطَهدين ومنهم من قتل وعُذِّب، كبعض أنبيـاء بنـي إسرائيل وغيـرهم.

ج) وقد سـمَّى الله تعالى الجنة أرضاً، كما سنذكر بعد قليل، عند التعليق على آيتي (٧٣ و٧٤) من (الزمر).

ثانيـاً: والعبادة هي الوسيلة التي يكتسِبُ بـها الإنسانُ الصَّلاح، حسب مـيـزان الله تـعـالـى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنـبـيـاء]، فبالعبادة يَصْـلُحُ الإنسانُ عند الله تعالى، ويدخل في سلك الصّـالحين، وبالصلاح يستأهل لدخول الجنّـة.

وبنـاءً عليـه:

فالصالح من الناس هو العابدُ منهم، وبقدر تـحقّق الإنسان بالعبادة لله تعالى، يـزْدادُ خيـراً وصلاحاً، ومن ثم جدارةً لـميراث الجنة.

ثـالثاً: ورسولُ الله الأعظمُ ونبيُّـه الخاتم ﷺ، هو وحده الذي يَدُلُّ الناس على الصراط المستقيم، ويهديهم إلى العبادة التي جعلها الله تعالى وسيلة لنيـل الصّلاح، وبالنتيجة جدارَةِ دخول الجنـة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

حيث سـمّاه الرحمٰن الرحيم جلّ وعلا [﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾] واعتبَرهُ سبب رَحمْته لِمَنْ يتَّبعُـهُ من العالمين، وذلك لأن من اتّبعه حقاً، فهو يَدُلُّـه على صراط الله المستقيم، وليس صراطه المستقيم سوى عبادته سبحانه عبادةً حقيقيةً (أي خالصة وشاملة وكاملة)، ومَنْ عَبَد الله تعالى كما أمر به، وكما فعله رسوله ﷺ، فهو يستحق حسب وعد الله وعَدلِهِ وفضْـلِهِ، دخولَ جنَّتـه التي هي مسـتقرُّ رَحْمَتِـهِ ورضوانه تبارك وتعـالى.

ولكن بـخلافه، مَنْ لم يَتَّـبعْ رسولَ الله المبعوث رحمة للعالمين، فهو يكون بِمَعزلٍ عن صراط الله المستقيم والقيام بعبادته، كما يرضاه سبحانه، ومن لَـمْ يعبد الله تعالى العبادة الصّحيحة التي لا يدلّ عليها سوى خاتم

النبيّين ﷺ، فهو يُحْرَمُ من الصَّلاح ومَنْ حُرِمَ الصّلاحَ، لا يستأهل دخولَ الجنّة التي خصَّها الله بعباده الصالحين.

٢ ـ الآيتان (٧٣ و٧٤) من (الزمر):

وفي هاتين الآيتين يُخبِرُ الله تعالى بصيغة فعل الماضي ـ لأنَّ وعد الله مؤكَّد لا خُلْفَ فيه ـ أنه قد جيء بالمتقين جماعات جماعات إلى الجنّة، ثم لما اقتربوا منها، فُتِحت لهم أبوابُها، ثم رحَّب بهم الملائكة المُشْرِفون على الجنّة (خزنة الجنَّة) قائلين لهم: ﴿...سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقولُ الملائكة [﴿طِبۡتُمۡ﴾] إخبارٌ عن طيبة المتقين وتَعْليلٌ لدخولهم الجنة، أي بما أنكم صرتم (طَيِّبين) فأنتم جديرون بدخول الجنة، لِذا فادخلوها!

وقد ذكرنا من قبل أن كلمة (طيِّب) استعملت في كتاب الله، للدلالة على كل ما هو جيِّدٌ ونافعٌ وصالحٌ وخير، من الأشخاص والأشياء والأمكنة والأفعال والأقوال، ولا شك أن الذي طَيَّبَ المتقين، ومن ثَمَّ جعلهم جديرين بدخول الجنة، هو إيمانُهم وتقواهم، والتقوى هو أن يتصرَّف الإنسان بحيث يكون في وقاية من غضب الله وعقابه، والشرك هو أكثر ما يُثير غَضَبَ الله، ويُعرِّضُ الإنسان لِعقابه وعذابه، لِذا لا يكون الإنسان متقياً، ما لم يكن موحِّداً لله وعابداً له كما يُرْضِيه، ومجتنباً للشرك خَفِيِّهِ وجَليِّهِ.

وفي الختام يُثْني المتقون الطيِّبون على ربّهم الكريم، قائلين: ﴿...ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]، فيحمدون الله تعالى على صدق وعده معهم، وإيراثه أرض الجنة إياهم[1]، الجنة التي أباحها الله تعالى

(١) وقوله تعالى على لسان الطيِّبين الوارثين للجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٧٤...﴾ [الزمر]، نصٌّ على ٱستعمال كلمة (الأرض) لأرض الجنة والسِّياق هو الذي يُحَدِّد: هل أن المقصود بها الجنة، أم أرض الدنيا؟

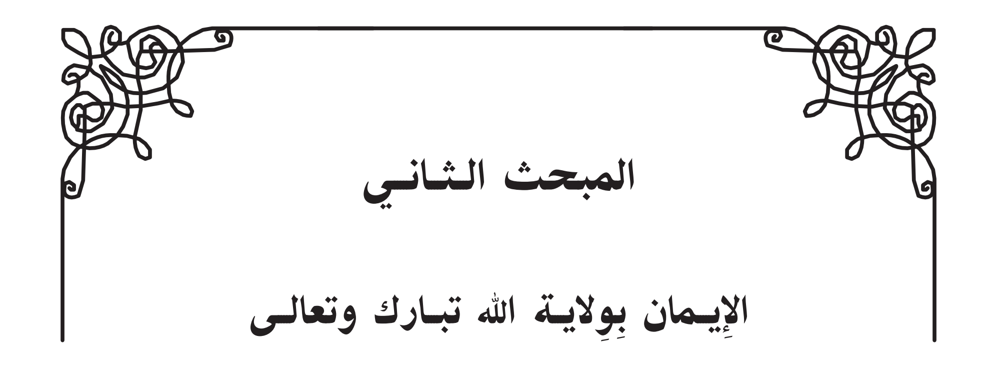
لهم، فيتخذون فيها المنزل، ويستقرون فيها حيثما شاؤوا ورغبوا.

وبناءً عليه:

فالجنة مخصوصة بأهل التوحيد والعبادة الخالصة، وليس فيها نصيبٌ لِسواهم، وكيف يُسكِنُ الله الحكيمُ جنَّته التي هي مستقرّ رحمتِهِ ورضوانه، أعداءه الذين لم يعبدوه ولم يتّقوه، ولم يقوموا بالواجب الذي ألزمهم إياه، ولم يُحقّقوا الحكمة التي إنّما أَوجدهم لأَجلها، وهي عبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]؟!!

وبهذا نختم هذا المبحث الأول من الفصل السابع، وننتقل إلى المبحث الثاني بإذن الله.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الثـانـي

الإيـمان بِولايـة الله تبـارك وتعالـى

وللإطّلاع على مفهوم ولاية الله تبارك وتعالى، لنَتدَبَّر هذه الآيات المباركات كأمثلة لما ورد من الآيات بهذا الصّدد:

١ ـ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة].

٢ ـ ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾ [آل عمران].

٣ ـ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . .﴾ [المائدة: ٥٥].

٤ ـ ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [الأنعام].

٥ ـ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف].

٦ ـ ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف].

٧ - ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال].

٨ - ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف].

٩ - ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء].

١٠ - ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف].

١١ - ﴿. . . فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

١٢ - ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًاۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان].

١٣ - ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت].

١٤ - ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ].

١٥ - ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا

نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر].

١٦ ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ [الشورى].

١٧ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى].

١٨ ـ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ [الشورى].

١٩ ـ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ...﴾ [الشورى: ٤٤].

٢٠ ـ ﴿... وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ [الشورى].

٢١ ـ ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد].

ونُلَخِّصُ ما تدلّ عليه هذه الآيات، في مجال التعريف بولاية الله تعالى وكيفية الإيمان بها، في الفقرات السبع الآتية:

الأولى: معنى ولاية الله سبحانه وتعالى.

الثانية: اتخاذ غير الله تعالى وليّاً، شركٌ بالله في ربوبيَّته وأُلوهيَّته.

الثالثة: الشعور بالضعف والحاجة، وٱعتقاد الحماية والنصرة فيمن يلجأ إليه، هو الذي يَدْفَعُ الإنسانَ لاتخاذه ولياً.

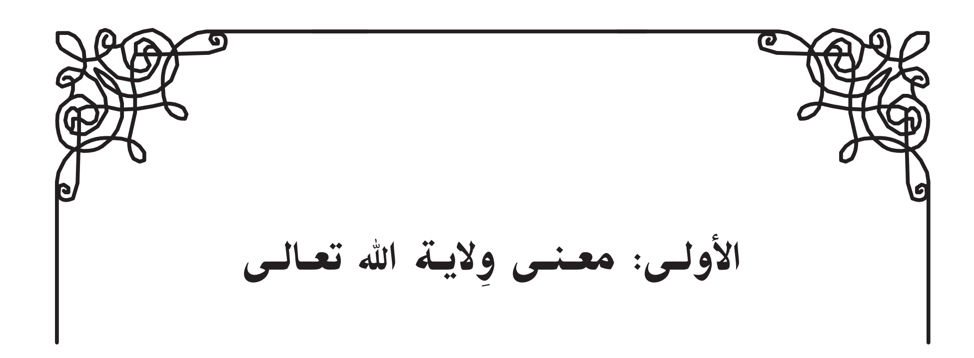
الرابعة: من اتـخذ الله تعالى ولياً، اتـخذه الله وليـاً.

الـخامسة: ولاية الله لعباده من الملائكة والإنس والجن، نوعان: عامّـة، وخاصّة.

السادسة: ثـمار ولاية الله ﷻ لأهل الإيـمان وعاقبتها.

السابعة: مصير اتـخاذ أهل الكفر أولياء من دون الله تعالى.

ونبـدأ بالفقـرة الأولـى بتوفيق الله الكريـم:



الأولى: معنى وِلاية الله تعالى

بعد التدبُّر في آيات كتاب الله الحكيم التي وردت فيها كلمة (الولاية) بمختلفَ صِيَغها، يتبيَّن لنا الأمور الآتية، بالنسبة لمفهوم ولاية الله سبحانه وتعالى:

أولاً: إن وِلاية الله تعالى جزءٌ من ربوبيَّته، وذلك لأن ربوبية الله عامَّة وشاملة لكل شيء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ...﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ولكن ولايته خاصة بذوي الشعور من المخلوقات من مَلائكة وإنسٍ وجنٍ، كما سيتبيَّن لنا من خلال الآيات التي ستأتي في الفقرات الآتية، ثم وِلاية الله، نوعان: ولاية عامة، وولاية خاصة، وأمّا ولاية الله العامة، فسنتحدَّث عنها لاحقاً في فقرةٍ مستقلة، وأمّا ولايته الخاصة، فهي مختصَّة بأهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال: ﴿...وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وسنبيِّن قريباً: معنى ولاية الله لأهل الإيمان.

ثانياً: وكلمة (الوِلاية) بِكسر الواو تعني التدبير والإشراف، وبفتح الواو (الوَلاية) تعني النُّصرة، وقد قريء قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ...﴾ [الكهف: ٤٤]، بكلتا القرائتين.

ثالثاً: وكلمة [﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾] أصلها من (وَلْي) وهو بمعنى القرب والدنوّ(١)، كما قال تعالى: ﴿...قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ...﴾

(١) مختار الصحاح، ص ٦٣١، لفظ: و ل ي.

[التوبة: ١٢٣]، أي: الذين يَقْربُون منكم، وهم أقرب إليكم من حيث المسافة والمكان، من غيرهم.

إذاً:

ولاية الله لأهل الإيمان، تَعني: قُرْبُهُ منهم واعتناؤه بهم وإِشْرافُهُ على أمورهم وإصلاحُهُ لشؤونهم، وهذا واضحٌ بيِّن في قوله تعالى على لسان رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف].

وفي دعاء القنوت: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ**» (أَخْرَجَهُ أَحْمَد برقم: (١٧٢٧)، وَأَبُو دَاوُدَ برقم: (١٤٢٥)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٤٦٤) وَقَالَ: حَديثٌ حَسَنٌ، وَالنَّسَائيُّ برقم: (١٧٤٥)، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (١١٧٨) عَن الحَسَن بْنِ عَلِي رضي الله عنهما، وَصَحَّحَهُ الألباني في (المشكاة) برقم: (١٢٧٣)).

ومن تولّاه الله تعالى وتولّى أمره، كفاه أمر دنياه وأُخراه، وأغْناهُ عن كل ما سواه.

رابعاً: وكذلك ولاية الله لأهل الإيمان، تعني: هدايته لهم ـ هداية خاصة ـ بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ...﴾ [الشورى: ٤٤]، إذْ هذا يعني أنَّ الوليَّ هو الذي يهدي من يتولّاه، لأن قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ أي: مَنْ لم يهده الله فليس له هادٍ من بعده، إذاً: فالهداية هي أخصُّ أوصاف الولي بالنسبة لمن يتولّاه.

خامساً: وولاية الله لأهل الإيمان، تعني إخراجه إياهم من الظلمات إلى النور، بدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ...﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ومن الواضح ـ كما سنبيّنه فيما بعد ـ أن مفهوم الإخراج من الظلمات إلى النور، أوسع من مفهوم الهداية، لأن الإخراج من الظلمات إلى النور، يشمل كل الجوانب العملية والنظرية في الحياة، ومن ضمنها حَلُّ المشكلات، والفَرَجُ في الشدائد والأزمات.

سادساً: وولاية الله لأهل الإيمان، تَعني نصره إيّاهم على أعدائهم، كما قال تعالى: ﴿...وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾...﴾ [الشورى]، وقال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد].

وكل هذه الآيات تدل على أن ولاية الله لأهل الإيمان، تتضمَّن في طياتها نَصْرَهُ سبحانه وتعالى إيّاهم على أعدائهم، كما وتدلُّ على أن سبب هزيمة الكفّار ودمارهم في الدنيا، وسبب خسرانهم وشقائهم في الأخرى، هو تخلّيه سبحانه عنهم وعدم ولايته لهم.

وقد استعمل كتاب الله الحكيم كلمة (الولاية) لغير الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ...﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿...وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

وربّما يظنّ ظانٌّ أن بين هاتين الآيتين السابقتين، اللَّتَيْن تَنْسِبان الولاية لغير الله تعالى، وبين قوله تعالى الذي يَحْصِرُ فيه الولايَةَ في نفسه، حصراً لا شركة لأحدٍ فيها، تناقضاً: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ [الشورى]! ولكن الأمر ليس هكذا، وبيانه كالآتي:

١) أما آية (المائدة) والتي نُسِبَتْ فيها الولاية لأهل الإيمان بالإضافة إلى الله تعالى، إلى كل من:

١ ـ رسول الله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

٢ ـ والمؤمنين ﴿. . . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟. . .﴾ [المائدة: ٥٦].

فالمقصود بالولاية المنسوبة إلى الرسول ﷺ، وإلى الذين آمنوا، إنَّما هو الولاية الجزئية التي هي واقعة في دائرة ولاية الله الشاملة ومتفرِّعة عنها، وذلك لأنَّ تولِّي الإنسان لله تعالى واتخاذه إيّاه ولياً، إنما هو لذات الله تعالى، نيلاً لرضوانه وثوابه، ولكن تولِّيه لرسول الله ﷺ ليس لذاته، بل هو لكونه رسولَ الله ﷺ ومبلِّغَ شريعته، وكذلك تَوَلِّيه لأهل الإيمان، إنما هو لكونهم إخوةً له في الدين، وفي العبادة والطاعة لربِّ العالمين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: فتولِّي المؤمن لربِّه جلَّ وعلا، يجِبُ أن يكون تولّياً مطلقاً شاملاً، ولكن تولِّيه لرسول الله ﷺ ولأَهْلِ الإيمان، إنما هو تولّ جزئي، ولكل بحسبه، وهذا هو السبب في أن رسول الله ﷺ جعل الحبّ في الله والبغض في الله، والإعطاء والمنع لله، علامة كمال الإيمان: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**» (أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ برقم: (٤٦٨٣)، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، وَصَحَّحَهُ الألباني في (السلسلة الصحيحة برقم: ٣٨٠).

ولا شك أن الحُبَّ والبغض هما أساس الموالاة والمعاداة.

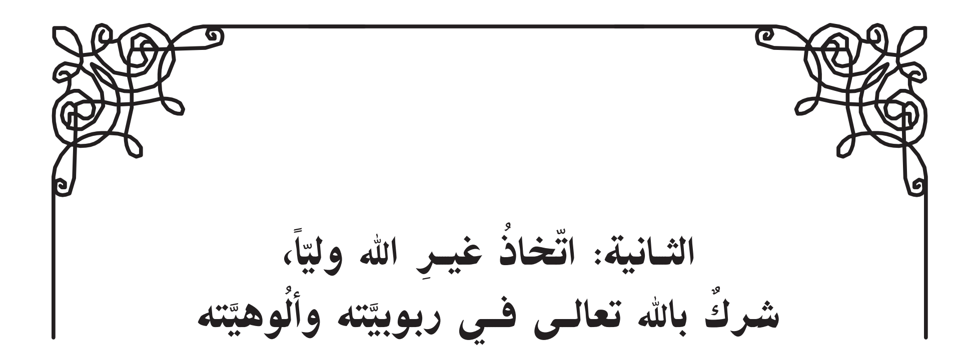
٢) وأما آية (النساء) والتي حكم فيها سبحانه بالخسارة الواضحة على كل من يتخذ الشَّيطان ولياً من دون الله، فالمقصود بالولاية فيها هو تولِّي الكَفَرة للشَّيطان وسَيْرُهم في ركابه، ومن الجَلِي أن اتخاذ الكفار الشيطان ولياً، مثله مثل اتخاذهم إياه إلهاً ومعبوداً، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس]، وكما أن عبادة الكفار للشَّيطان الرجيم ـ وكذلك للطواغيت والأصنام ـ واتخاذهم إياه إلهاً، جهلاً وظلماً، لم يغيِّر من ماهية الشيطان ـ وسائر المعبودات الباطلة ـ شيئاً، ولم يُصْبِحْ إلهاً، كذلك اتخاذهم إيّاه ولياً، سفهاً وشططاً، لم يُلْبِسْ ذلك السَّفِيهَ ثَوْبَ الولاية الحقيقية، بل لم تتجاوَزْ تلك الولايةُ الإبليسيةُ المزعومة، عَتَبَة الوهم أبداً! إذاً:

عندما يحصر الله تعالى في نفسه (الولاية)، كما في قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٩﴾ [الشورى]، فالمقصود بها هو الولاية الحقيقية المطلقة، ولكن عندما ينسبها إلى غيره، فهي نوعان:

أ ـ نوع يقصد به الولاية الشرعية من المؤمن لرسول الله ﷺ خاصة، ولأهل الإيمان عامة، وذلك تبعاً لولاية الله العامة المطلقة، وهذا النوع من الولاية واجبة، ولكنّها جزئية وتابعة للولاية الأصلية المطلقة التي لا تجوز لغير الله تعالى.

ب ـ ونوع يقصد به الولاية الشركية الكفرية، التي تُوَجَّهُ للشياطين والطّواغيت، وهذه ليست محرَّمة فَحَسْبُ، بل تعتبر كفراً وشركاً، كما سنوضِّحه في الفقرة التالية.





الثـانية: اتّخاذُ غيـرِ الله وليّاً، شركٌ بالله تعالـى فـي ربوبيَّته وألُوهيَّته

ويدلُّ على كون اتخاذ غيـر الله شِركاً في ربوبيَّتِهِ، كَوْنُ ولايتـه سُبحـانه جزءاً من ربوبيَّتِـهِ، كما قلنا سابقاً، وكذلك تدل عليه آيات كثيـرة منهـا قولـه تعـالى:

١) ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [الأنعـام]، حيـث يأمر سبـحـانه نبيـه الكريم أن يقول للكفّار مُسْتفهِماً مُنْكِراً: هل أَتخذ غير الله الذي هو مُبْدِعُ السّموات والأرض، وهو الذي سخّر الرزق والطّعام للمخلوقين، ولا يحتاج إطعامَ أحدٍ؟ ثـم يأمره أن يقول: إنـي أُمِرْتُ أن أكون أوَّل مُسْلـم، ونُهِيْتُ أن أكون من المشـركين، وأن يقول: إنـي أخاف إن عصيت ربِّي (باتخاذ غيـره وليـاً) عذاب يوم عظيم:

لِذا من اتخذ غيـر الله ولياً، فقد أشرك بالله في ربوبيَّتِـهِ، والتي من أبرز أوصافها، تـهيئةُ الرزق والغذاء للمخلوقين.

ومن تلك الآيات أيضاً قوله تعـالى:

٢) ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف]، إذْ يـأمر سبحانه أن نتّبع ما أنزله إلينا بصفته ربّنا، وينهانا عن اتباع غيـره، واتخاذِه ولياً من دونه، ثم يقـول: إنكم تتذكّرون

تذكراً قليلاً، والخطاب موجَّه للبشر عموماً، والتذكّر القليل هو من نصيب أهل الإيـمان، من ضمن البشر عموماً، ويمكن أن يكون الخطابُ مُوجَّهاً لأهل الكفر خصوصاً، والتذكّر القليل هو حِصّة المهتدين منهم.

وقد اعتبـر سبحانه اتِّباعَ الناس لغيـر منهاج ربـهم الذي أنزله إليهم، من الأديان والمناهج الأخرى، اتـخاذاً منهم لغيـر ربـهم أولياء، أي تسويتهم أولئك الأولياء (بسبب اتباعهم لـمناهجهم وأديانـهم) بِرَبِّ العالـمين، وبالـنتيجة إشراكهم به في ربوبيَّـته التـي أخصُّ أوصافها: إنزالُهُ الـهدايةَ لعباده، لئلاّ يضـلّوا عنه.

هذا بالنسبة لكون اتخاذ غيـر الله ولياً، شركاً به في ربوبيَّته، وأما بالنّسبة لكونه شِـركاً به في ألوهيَّتـه، كذلك هناك آيات كثيـرة، ولكن نكتفي بثـلاثة أمثلة منها:

١ ـ قـولـه تـعـالـى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الـزمـر]، إذ يعلن الله تبارك وتعالى في هذه الآية بدايـة، أنَّ الطاعة الـمطلقة والخضوع التام إنـما هو جديرٌ به سبحانه وحده، لأن كلمة (الدِّين) هنا تعنـي الطاعة والإنقياد، و(الخالص) هو الصّافي الذي لا شوب ولا كدر فيـه.

ثـم يبيِّن سبحانه أن الـمشركين الذين يتخذون غيـر الله تعالى أولياء لهم، يبـرِّرون شركهم بقولهـم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أي: إنـما اتـخذنا أولئك الأولياء آلـهة ومعبودين لنا، كي يقرِّبونـا إلـى الله قربـانـاً!

لِذا من اتخذ غيـر الله تعالى وليـاً، فهو يعتبـر مشركاً به فـي أُلوهيَّتـه ويُعتبـر عمله ذلك عبادة لغيـر الله، كما صرَّح به المشركون.

وإنـما قال تعالـى علـى لسان الـمشـركـيـن [﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾] بَدَلَ (ما نَتَّخذهم) الموافق للجملة السّابقة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ كي يُعْلَمَ أن اتخاذ غيـر الله تعالى ولياً، يعتبـر عبادة لغيـر الله.

ثم يقول تعالى مُعقِّباً على موقف أولئك المشركين وتذرُّعهم المتهافت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ أي: إن الله تعالى وهو الحكم العدل، لا يترك الموحِّدين والمشركين وشأْنَهم، بل سيحكم بينهم وفيما اختلفوا فيه، ثم يَصِمُهُمْ ـ أي المشركين ـ بالكذب والكفران، والظاهر أن هذا جوابٌ لتذرّعهم الهزيل، أي: هم كاذبون وليس قصدُهم التَّقَرُّبُ إلى الله، لأن من أراد التقرب إلى الله، يسلك الطريق الذي حدّده الله تعالى ورَسَمَه لَهُ، وكذلك هم كثيروا الكفران لربهم، إذ هو وحده خالقهم وربهم ورازقهم ووليهم، ولكنهم يعبدون غيره!

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ١٧﴾ [الفرقان].

وفي هذه الآيات ـ التي أدرجناها من قبل ـ يبيِّن لنا المولى جَلَّ وعلا، أنه سَيَحْشُر يوم القيامة كلَّ الذين يعبدون غير الله تعالى مع آلهتهم المزعومة، ثم يسأل المعبودين ـ ويبدو من جوابهم أنهم هم الملائكة والصالحون من البشر ـ فيقول: هل أنتم أضللتم هؤلاء العباد (فدعوتموهم لعبادتكم) أم هم بأنفسهم سلكوا ذلك المنهج المعوج؟! ويجيبه المعبودون الذين عُبِدوا من غير رضاهم، قائلين: ﴿... سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ...﴾ [الفرقان: ١٨]، أي: نُنَزِّهُكَ تَنْزيهاً (عن أنْ نأمر أحداً بعبادة غيرك)، إذْ لم يكنْ يصلحُ لنا أنْ نتخذ من دونك من أولياءَ، أي: إنك كنت وحدك الولي الذي كنّا نعبدك، ولم يكن لنا ولي سواك، إذاً: فهؤلاء إنّما خَدَعوا أنفسهم عندما زعموا وتصوّروا بأننا نواليهم على شركهم المتمثل في عبادتهم لنا!

وبعد أن ينسف أولئك الصالحون مزاعم المشركين، يُبَيِّنون سبب ضلالهم وانحرافهم عن جادة التوحيد إلى متاهات الشرك، بأنّه هو الإنغماسُ في الدنيا وشهواتها: ﴿...وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ...﴾ [الفرقان: ١٨].

وفي الختام يُعقّبُ سبحانه على ما سبق ذكره صراحة أو ضمناً: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان]، والخطاب مع العابدين الذين عبدوا الملائكة أو الأنبياء والصالحين، فيوبِّخهم سبحانه بعد أن يكذِّبهم أولئك الذين توهَّموا فيهم الألوهية والولاية ويتبرَّؤون منهم، ويقول لهم: ها قد كذَّبوكم في ادّعائكم، والآن لا تقدرون: لا على دفع العذاب عنكم، ولا على الإنتصار..

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ].

وفي هاتين الآيتين يُخْبِرُنا سبحانه وتعالى، أنه يوم يحشر المخلوقين جميعاً ويسأل الملائكة ـ وهو أعلم بهم منهم، ولكن تبكيتاً للمشركين ـ: هل هؤلاء المشركون كانوا يعبدونكم أنتم؟ والمقصود منه هو: هل كانوا يعبدونكم برضاكم وبأمركم؟!

ويجيبه الملائكة الكرام بقولهم: تنزيهاً لك عن ذلك، بل أنت وحدك وليُّنا ولا موالاة بيننا وبينهم أصلاً، بل كانوا يعبدون الجِنَّ، أكثرهم يؤمنون بهم، ويعتقدون فيهم الألوهية والولاية.

وإنّما ينفي الملائكةُ الكرامُ عبادَة المشركين لهم، وان كان منهم من كان يعبد الملائكة فعلاً، لأن الملائكة لم يَرْضَوْا بذلك، والشياطين ـ من الجن ـ هم الذين وسوسوا لهم بذلك، وهذا هو السبب في نسبة الملائكة عبادة المشركين إلى الجنّ ـ أي الشياطين منهم ـ، ونفيها عن أنفسهم.

والشاهد هو قول الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾.

والنتيجة:

إنَّ كونَ الله تعالى ولياً، يقتضي العبادة له، ومن اتخذ غير الله ولياً، فقد أشرك بالله في أُلُوهيَّتِهِ، وَيُعْتَبَرُ عابداً لِذلك الغير الذي اتخذه ولياً.



الثالثة: الشعور بالضعف والحاجة، واعتقادُ الحماية والنصرة فيمن يَلْجَأُ اليه، هو الذي يَدْفع الإنسانَ لإِتِّخاذه ولياً

وهذا جَليٌّ جداً بعد معرفة معنى الولي والولاية والتولِّي والموالاة، كما سبق، ولكن بالإضافة إلى ذلك، يَدلّ عليه قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء].

إذ يأمر الله تعالى نبيَّه الكريم ﷺ أن يحمد الله ويُثني عليه، ثم يصف نفسه بثلاثة أوصاف:

١ ـ ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي: ليس له ذرية، لا ذكور ولا إناث، كما يفتري المشركون.

٢ ـ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي: ولا يوجد من يشاركه في المالكية والربوبية، كما يزعم المشركون بأن لآلهتهم المزعومة شركة ما مع الله تعالى في الخلْق والأمر.

٣ ـ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: وليس له سبحانه ولي يواليه كي يَدْفع به الذلَّ والضعف عن نفسه، وذلك لأن الله تعالى هو العزيز الذي له العزّة جميعاً، كما قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا...﴾ [فاطر: ١٠].

إذن: لقد وصف الله تعالى نفسه بنفي كلٍ من:

أ ـ الولد الذي يأتـي من حيث القرب، في الدرجة الأولـى (حسب مقاييس الناس).

ب ـ والشريك الذي يأتـي بعـده.

ج ـ والولـي الذي يأتـي في الدرجة الثالثـة.

والحكمة في تقييد الله تعالى نفي (الولـي) عن نفسه بـ(عِلَّة الذُّلِّ)) هي:

أ ـ أن المخلوقين إنـما يتخذون الأولياء لِيُعَوِّضوا بـهم عن الضعف والذلّ الذي يشعرون به في أنفسهم، ويكتسبوا به القوة والعزّة والحماية والكفاية.

ب ـ كي لا يكون نفيه لاتـخاذ الولي شاملاً لأوليائه الذين يتخذهم أولياءَ له، لكمال طاعتهم وعبادتهم له، واتخاذهم هو وحده ولياً لهم.

وبنـاءً عليـه:

فالآية الكريـمة واضحة الدلالة على أن الإنسان عندما يتخذ ولياً، إنّما يتخذه لـما يشعر به في نفسه من الضعف والحاجة، ولـما يتوقع في وليّـِهِ من النُّصرة والحمايـة والكفايـة.

ولـهذا بيَّـن سـبحانه وتعالـى ان كلاّ من (القوّة) و(العزّة) و(الولاية) و(الكفاية) منحصرة فيه هو وحده، ولا يـملك غيـره منها، ذرةً، كما قال تعالـى:

١ ـ ﴿. . .أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا. . .﴾ [البقرة: ١٦٥].

٢ ـ ﴿. . .فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا. . .﴾ [النساء: ١٣٩].

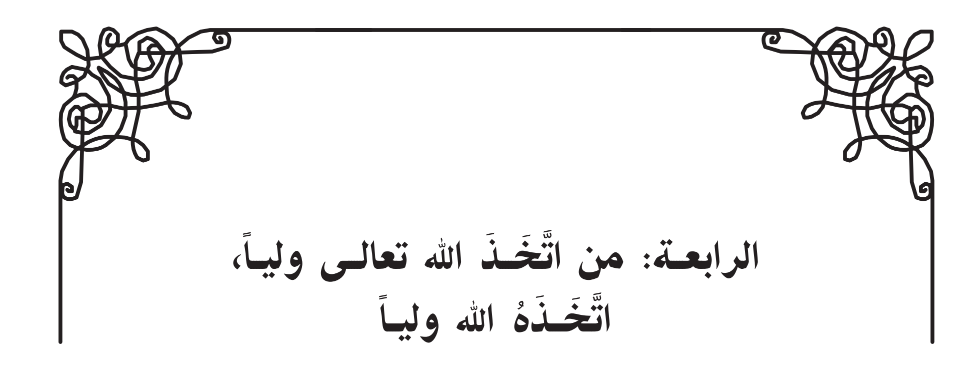
٣ ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ. . .﴾ [فاطر: ١٠].

٤ ـ ﴿. . . فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ. . .﴾ [الشورى: ٩].

٥ ـ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ. . .﴾ [الزمر: ٣٦].

ومـمّا لا شك فيه أن الإنسان متى آمن واعتقد يقيناً بأن الله تعالى ـ كما وصف نفسه وهو أصدق القائلين جَلَّ وعلا ـ له القوة كلُّها، والعِزَّةُ جميعاً، ولا ولاية على المخلوقين إلّا له، ولا كفاية إلّا به سبحانه، فإن ذلك الإيـمان والإعتقاد، يَدْفعه إلى اتخاذ الله وحده ولياً والإستناد إليه، وتفويض الأمر إليه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الرابعة: من اتَّخَذَ الله تعالى ولياً، اتَّخَذَهُ الله ولياً

والدليل على هذا، هو أنَّ الله تعالى سمَّى عبادَه المؤمنين المتقين (أولياءَ الله)، كما قال تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس].

ونقتبس الأضواء الأربعة الآتية من أنوار هذه الآيات، فيما نحن بصدد البحث فيه:

أولاً: بدايةً يُنَبِّهُنا الله تعالى ويُخْبِرُنا بأنَّ أولياءه لا يَتَطرَّقُ الخوف والحزن إلى قلوبهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

والخوف هو انزعاج القلب بسبب ما يَحُسُّ به ويتوقَّعه من شرّ أو خطر مِمّا يُخَبِّئُه الزَّمَنُ الآتي (المستقبل).

والحزن هو القَلَق والإِنقباض الذي يعتري القلب من جرّاءِ ما فاته في الماضي.

وقد نَفى الله تعالى كِلَيْهِما عن أوليائه بإطلاق، وهذا يشمل الدنيا والآخرة، ومن الواضح ان المؤمن المتوكِّل على ربِّه، لا يخاف الآتي دنيوياً

وأخروياً، لأنَّه واثق بربِّه وولايته له وكفايتـه إيّاه، وكذلك لا يَحْزَنُ بسبب الماضـي لأنه، أولاً: يجدُ بابَ التوبة والإنـابة مفتوحاً على مصراعيه، فبإمكانه تدارك أمره، وثانيـاً: يعلم أن كلَّ شيء جرى ويجري بِقَدَرٍ، وما فات فلا يعود.

ثـانياً: ثـم يُعرِّف سُبحانه [أَوْلِيَاءَ الله] بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وقد بينّا في السابق معنى الإيـمان، وأمّا التقوى فهو: (جعل النفس في وقاية من سخط الله وعقابه) وهذا لا يتأتى إلّا بفعل المأمورات التـي أمر بـها الله تعالى، وتَرْكِ المحظورات التي نـهى عنها، كُلِّها، حسب الطاقة والوسع، وهذا يعنـي الإلتزام التام بشريعة الله تعالى: فعلاً لِما أَمَرتْ به، وتركاً لما نَهَتْ عنه.

وكلما كان الإيـمانُ أرسخَ وأكملَ، والتقوى أتمَّ وأشْـمَلَ، كانت ولاية العبد لِرَبِّـه أحسن وأفضل، وقد قال العلماء في تعريف (الولـيّ) في ضوء هذه الآيـة: (من كان مؤمناً تقيـاً، كان لله تعالى وليـاً).

ثالثـاً: ثم يبيِّـن سبحانه وتعالى العاقبة المحمودة لأوليائه، بقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس].

والبُشرى هي الخبـر السارُّ الذي يدخل بسـببه السُّرُور في القلب، ويظهر البِشْرُ والنَّضْرَةُ على الوجه.

وبشارة الآخرة معلومة، إذْ هي الإخبار بدخول الجنّـة التـي هي دار كرامة الله تعالى، ومُسْـتقر رحمتـه ومحلّ رضوانه.

وأما بشـارة الدنيا لأولياء الله تعالى، فهي تشمل كل ما يَسُـرُّ به قَلبُ المؤمن ويفرَحُ، مِمّا يتعـلق بـما بينـه وبين الله العظيم، من طاعةٍ وعبادةٍ

يُوَفَّق لها، وطمأنينة يشعر بها، وسكينة تنسكب على قلبه وتَغْشاه، وإلهامِ خيرٍ، ورُؤىً صالحة... إلخ.

وقد فسَّر رسولُ الله ﷺ بُشْرى الدنيا، بالرؤيا الصالحة التي يراها الإنسان بِنفسه أو تُرى له، كما جاء في حديث، رواه أحمد وصحَّحَهُ الحاكم، وقد أوردناه سابقاً في الكتاب الثاني من هذه الموسوعة.

وكذلك اعتبر رسولُ الله ﷺ حَمْدَ الناس وثناءَهم على المَرْءِ بسبب عَمَلِهِ الصالح: (عاجل بشرى المؤمن): عن أبي ذر أنه قال: يا رسول الله! الرجلُ يعمل العَمَل ويحمده الناسُ عليه ويُثْنون عليه به؟ فقال رسول الله ﷺ: «**عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ**» (أَخْرَجَهُ الطيالسي برقم: (٤٥٥)، وَأَحْمَد برقم: (٢١٤١٧)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٦٤٢)، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٤٢٢٥)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٣٦٦)).

رابعاً: ثمَ يخاطب الله تعالى نبيَّه الكريم، أوَّلَ الأولياء وسيِّد الأصفياء ﷺ ومن خلاله أولياءَه من أهل الإيمان والتقوى، بقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس]، أي: ولا يحزنك قول الكفار (وهذا عام يشمل كلَّ الأقوال والدعايات السيئة لأهل الكفر)، لأن العِزّة هي كلها لله تعالى، فَيُعِزُّ بها أولياءه ويُذِلّ بها أعداءه، ثم هو سميع يسمع أقوال أهل الكفر المُحْزِنَة لك، كما ويسمع دعاءَك أنت، وكذلك هو عليم بكل الأعمال والأحوال، بل النيات والخواطر والأفكار!

ولا شك أن يقين العبد، بأن ربّه يراه ويسمعه ويطَّلع على كل أحواله، يُسَرِّي عنه ويُعَزِّيه، بَلْ ويَمْلأُ قَلْبَهُ أَمَلاً وثقةً ورجاءً وطمأنينةً.





الخامسة: ولايـة الله تعالـى لعباده من الملائكة والإنس والجنّ، نوعـان: عامَّـة وخاصَّـة

ذكرنا سابقاً أن ولايـة الله تعالـى، مفهومُهـا أخصُّ من مفهوم ربوبيَّتـه، إذْ ربوبيَّتُـه تَعُمُّ كل الموجودات، فيدبِّر الكلَّ ويُشْرِف على أمورها ويهديها إلى تحقيق الأغراض التـي خُلِقَتْ لها عموماً، ولكن ولايته تَخُصُّ المخلوقات ذات الشعور والإدراك من ملائكةٍ وجنّ وإنسٍ، وهذا نعلمه نتيجة استقراء الآيات الواردة عن كل من الربوبية والولاية الرّبانيتين لمخلوقاته بنوعيها.

ثم إنَّ ولاية الله تعـالى للمخلوقين، نوعان: أحدهما تَعُمُّ جميع المخلوقين بِغَضِّ النَّظر عن إيمانـهم وكفرهم ـ وهذا يخص الجنّ والإنس فقط ـ، وثانيهما خاصة بأهل الإيـمان والصَّلاح منهم فحسب.

وكذلك ولاية الله العامة للمخلوقين نوعان: الولاية التكوينية، والولاية التشريعية، والآن بعد هذا الإيـجاز والتلخيص، إلى شيء من البيان والتفصيل:

١ ـ ولايـة الله العامَّـة للمخلوقين:

أ ـ الولايـة التكوينـية: والمقصود بـها هو تولِّيه سبحانه شؤون مَخْلوقيهِ، من ناحية إدارة حياتـهم، بتهيئة أسباب الحياة ومستلزماتـها لـهم، كما قال تعـالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى].

إذْ إنزالُ الله تعالى الـمطَر عامٌ للناس كُلِّهم، وما ترتبط به حياتهم من النّبات والحيوان، ووصف الله تعالى نفسه بـ(الولي الحميد) بعد ذكر إنزال الغيث، يَـدُلُّ على أن إنـزالَهُ الـغَيْثَ شـأنٌ من شؤون ولايته للمخلوقين (أي الولايـة التكوينيـة).

ب ـ الولاية التشـريعية: والمقصود بـها هو تولِّي الله تعالى شـؤون مَخْلوقيهِ، من ناحية هدايته لهم، بإنزال الكتب والوحي على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف].

والآية واضحة الدلالة على أن إنزال الله تعالى الدين والكتاب للجنّ والإنس، إنّما هو من شـؤون ولايته لـهم (أي الولاية التشريعية).

٢ ـ ولايـة الله الخاصَّة لأهل الإيـمان:

وهذه قد تحدثنا عنها في الفقرة الأولـى، لِذا نكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الآيات المباركات التي وردَ فيها ذكرُ ولايـة الله لأهل الإيـمان:

* ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ. . .﴾ [البقرة: ٢٥٧].

* ﴿. . .وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

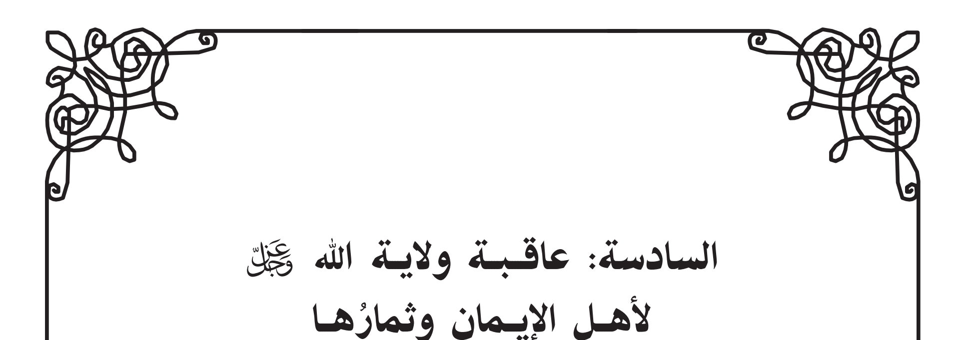
* ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمد].

* ﴿. . .فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ. . .﴾ [الحج: ٧٨].

* ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف].

* ﴿. . .وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ. . .﴾ [الجاثيـة: ١٩].





السادسة: عاقبة ولاية الله عزّ وجلّ لأهل الإِيمان وثمارُها

لا شك أن من اتخذ الله تعالى ولياً ومولىً بحق، يتولّاه الله تبارك وتعالى كما ذكرنا سابقاً، ومَنْ تولّاه الله تعالى، كفاه ما يُهِمُّه من أمر دينه وأخراه، وهذه نتيجة بديهية لما سبق ذكره، ولكن نَزيدُها إيضاحاً بالتدبّر في هذه الآيات:

* ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى...﴾ [البقرة: ٢٥٧].

* ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة].

* ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف].

ونقتبس من أنوار هذه الآيات، الأضواء الثلاثة الآتية:

أولاً: أما الآية (٢٥٧) من (البقرة) فأَعْلَنَ فيها ربّ العالمين جلَّ شأنه، أنه ولي للذين آمنوا، وأنه سَيُخْرِجُهم من الظلمات إلى النور.

والخروج من الظلمات إلى النور، والذي تُثْمِرُه ولايةُ الله تعالى لأهل الإيمان، يعني أشياءَ كثيرةً جِدّاً، منها:

١ ـ الخروج من ظلمة الجهل، إلى نور العلم.

٢ ـ ومن ظلمة الشرك، إلى نور التوحيد.

٣ ـ ومن ظلمة الظلم، إلى نور العدل.

٤ ـ ومن ظلمة الضلال، إلى نور الهدى.

٥ ـ ومن ظلمة الشك، إلى نور اليقين.

٦ ـ ومن ظلمة المعصية، إلى نور الطاعة.

٧ ـ ومن ظلمة الفجور، إلى نور التقوى.

٨ ـ ومن ظلمة الهلع والقلق، إلى نور السكينة والطمأنينة.

٩ ـ ومن ظلمة سوءِ الخُلُق، إلى نور حُسْنِ الخُلُق.

١٠ ـ ومن ظلمة الضِّيقِ، إلى نور الفَرَج.

١١ ـ ومن ظلمة الشَّقاء، إلى نور السعادة.

١٢ ـ ومن ظلمة الذُلِّ، إلى نور العِزَّة.

١٣ ـ ومن ظلمة الإستضعاف، إلى نور التمكين.

وهذا كله بالنسبة للدنيا، وليست الآخرة سوى نتيجة تترتَّب على الحياة الدنيا، ترتيب النتيجة المنطقية على مقدماتها، وبناءً عليه: من حَظِيَ في دنياه بولاية الله، والتي تُثْمِرُ لَهُ الخروجَ من الظلمات كلِّها إلى النور كلِّه، فهو تكون حياته الأخروية أيضاً بحسب ما اكتسبه من النور في دنياه، كما قال تعالى: ﴿...وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

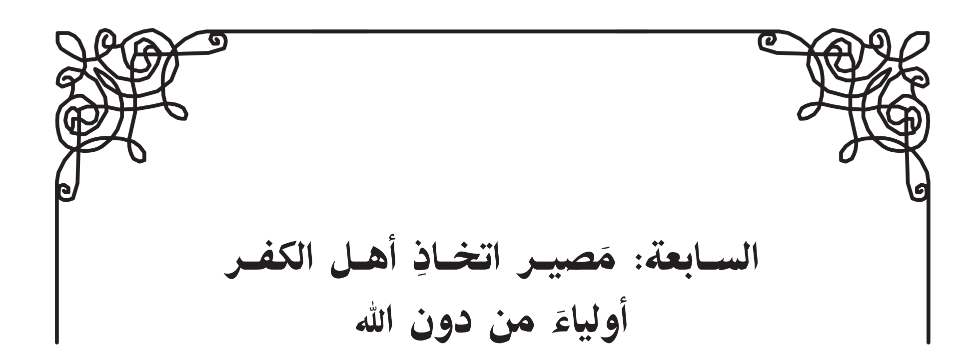
ثانياً: وتدل الآية (٥٨) من (المائدة) على أن ولاية الله تعالى للإنسان، تجعله داخلاً في (حزب الله) ومن سنن الله تعالى أن حِزْبَهُ غالبون على من عاداهم وناوَءَهُم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وغَلَبَة حزب الله وأوليائه على حزب الشيطان وأوليائه، تشمل كلا ميداني الحجة والبرهان، والقوة والسّلطان، كلٌّ في أوانِهِ، وحسب

الشروط التي يَتوقف عليها، والتي يدل عليها العقل والنقل.

وقد وصف الله تعالى في آية أخرى حزبه، بالمفلحين، حيث قال: ﴿...أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وإذا كانت الغلبة مخصوصة بالدنيا، فالفلاح شامِلٌ للدنيا والآخرة، ولكن التَّجَلِّي الحقيقي للفلاح لا يكون إلّا في الآخرة، وكيف تَسَعُ الدنيا الصغيرةُ الحقيرةُ، ثوابَ الله الجزيل وأجره الكبير الذي وصفه سبحانه بـ﴿...أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦]، أي: غير مقطوع!!

ثالثاً: وتدلّ الآية (١٠١) من (يوسف) على أن ولاية الله لعبدِهِ، تكون سبباً لنجاته من الشدائد والعَقبات، ونيله العِزَّة والتمكين ـ كل بحسبه ـ، وذلك لأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي تَعَرَّض للظلم والإضطهاد والإتهام الباطل، يقول في مناجاته مع ربِّه: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ وهذا تذكُّرٌ منه لِنِعَم ربِّه عليه، وثَناءٌ منه على ربِّه، ثم يقول: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ فيذكر خالقية ربِّه بعد ذكر ربوبيَّتِهِ، ويُرجِعُ نِعَمَهُ التي أنعم الله عليه بها، وخاصة نعمتي الملك والعلم، إلى ولايته سبحانه له في الدنيا والآخرة، ثم يطلب من ربِّه ووليِّه الكريم جلَّ شأنه، أن يَخْتِمَ له تلك النِّعَم التي وهبها له بنعمة حُسْنِ العاقبة والموت على الإسلام، ومن ثم اللحوق بالصّالحين في دار البقاء والجزاء: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ويدلُّ قولُ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾، على أن الله تعالى يتولّى عباده الصالحين، ويَرْعى شؤونهم في الدنيا والآخرة، ومن تولّاه الله كفاه وأَغْناهُ عمَّن عَداهُ، والذي لا إله سِواهُ!





السابعة: مَصير اتخاذِ أهل الكفر أولياءَ من دون الله

الذين يتخذون غير الله تعالى ولياً لهم، ينتظرهم شَرُّ مَصيرٍ وأَسوَءُ عاقبةٍ، كما تدلّ عليه الآيات الآتية على سبيل المثال:

* ﴿...وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء].

* ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت].

* ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد].

* ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ...﴾ [الشورى: ٤٤].

وتَهَبُنا هذه الآيات الحقائق الخمس الآتية، فيما نحن بصدد البحث فيه:

١) يدلّ قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النساء]، على أن الإنسان لا مندوحة له من اتخاذ ولي في حياته الدنيا، إمّا الله تعالى، وإمّا الشَّيطان، ومثل الولاية في هذا الجانب مثل العبادة ـ والولاية المطلقة نوعٌ من العبادة ـ، كما أن الإنسان لا بدّ له من أن

يعبد شيئاً، إما الله تعالى وهو المعبود الحق، وإمّا الشَّيطان المُتَمَثِّل في الطواغيت والأصنام بشتى أشكالها وصورها، كذلك لا بُدَّ للإنسان أن تكون له ولاية إمّا مع الله تبارك وتعالى، وإمّا مع الشَّيطان المُتَمَثِّل في شتى الأولياء المزيَّفة الباطلة، وسبب ذلك هو أنَّ الإنسان بفطرته التي فطره الله عليها، يشعر بالضُّعف والحاجة إلى مَلْجأٍ وملاذٍ وسندٍ يحتمي به ويستند إليه، وليس للإنسان في حياته الدنيا غير الله تعالى ملجأ وسند، إذ هو وحده خالِقهُ ومالكه وربّه ووليُّهُ، ولكن إذا أخطأ إليه الطريق، لا يمكن أن يبقى فارغاً وعاطلاً بل يستعيض منه ـ بظنّه ـ ببعض ما يتوهم فيه أو من يتوهم فيهم الربوبية والولاية! ولكن شتان بين الحقيقة والوهم، والحق والباطل، وهيهات أن يعوِّض الترابُ عن ربِّ الأرباب جَلَّ شأنه!

٢) ويَدلُّ قوله تعالى: ﴿...وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أن كل من اتخذ غير الله (الذي هو الشَّيطان بصورة من الصور) ولياً، فلن تُجدِيَهُ ولايته الباطلة تلك فتيلاً، بل وعلاوة على عدم جدواها، تكون سبباً لخسارته خسارة ماحِقةً بيِّنةً واضحةً في دنياه وأخراه، وكيف لا! وهل يجني مُتَّبِعُ السَّراب غير العَطَشِ والهَلاك؟!

٣) ويصوِّر الله الحكيم جلّ وعلا حالَ الذين يتخذون غَير الله تعالى أولياء ـ في الآية (٤١) من (العنكبوت) ـ بحال العنكبوت التي تنسج لنفسها بَيْتاً، ثم يقول تعالى مُعَقِّباً على هذا: ﴿...وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ووهن بيت العنكبوت لا يخفى على أحد، إذ ليس بيتها سوى خيوط واهية، لا يَردُّ حَرّاً ولا بَرْداً ولا عدوّاً! وهذا القدر من المعرفة بوضع بيت العنكبوت، لا يتوقف على العلم بل يراه الناس عَياناً، لِذا فلا بُدَّ أن يكون هناك سِرٌّ تحت قوله تعالى: ﴿ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾! وفِعلاً توصَّل العلماء الباحثون عن حياة العناكب، إلى معلومات مهمة، هذه بعضها:

أ ـ إنّ أُنثى العنكبوت هي التي تصنع البيت الخيطي، ولهذا

أنَّث الله تعالى العنكبوت التي اتخذت البيت، في الآية: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ﴾.

ب ـ وإنما تصنع العنكبوت الأنثى عُشَّها الواهن وتَنْسِجُها من لعابها، الذي يتحوّل خيطاً دقيقاً بعد خروجه من فمها.

ج ـ وفي بيت العنكبوت تُوجد فوضى عارِمة، إذْ تقتل الأنثى بعد بناء بيتها، ذكَرَها، ثم ان بيت العنكبوت فَخّ وكمين منصوبٌ للحشرات الضعيفة التي تَمرُّ به أو تَلْجأ إليه، إذ فور ما تقع في ذلك الشراك تتعرَّض لأبشع أنواع القتل، حيث تقوم العنكبوت المُضيِّفُ بِمَصِّ كل ما فيها من حياة ورطوبة، إلى أن تصير هياكل جوفاء!

ويمكن أن يكون مقصود التشبيه في الآية، تصوير حال ومَآل الذين يتخذون غير الله تعالى أولياء، بِمقارنَتِهِ بحال ومَآل تلك الحشرات المخدوعة التي تلجأ إلى بيت العنكبوت، طمعاً في العثور على ملاذٍ ومأوى أو النَّجاة من خطر، غافلة أنها بفعلتها الحمقاء تَحفُرُ قبرها بنفسها، وكذلك حال ومَآل الكفرة والمشركين، الذين يتخذون الطواغيت والأصنام أولياءَ من دون الله، جلْباً للمنافع ودَفْعاً للمضارّ، يكون كحال ومَآل تلك الحشرات، إذْ يكون هلاكهم وشقاؤهم وخسرانهم، على يد تلك الأولياء المزعومة الموهومة نَفْسِها!

٤) وفي الآتين (١٠و١١) من (محمد) يأمر الله تعالى بأسلوب الإستفهام الإنكاري، أهل الكفر بالسّير في الأرض والتأمّل في عواقب الأمم الكافرة والمكذّبة، وكيف دمّرهم الله تعالى وأبادهم، ثم يَحَذِّر الكفار بأن تلك السنة الربانيَّة القاضية بإهلاك المكذبين ما زالت سارية المفعول: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾، ثم يُعَلِّلُ سبحانه انتصار أهل الإيمان واندحار أهل الكفر، بأن الله تعالى هو مولى أهل الإيمان، ولكن الكفّار ليس لهم ولي: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد].

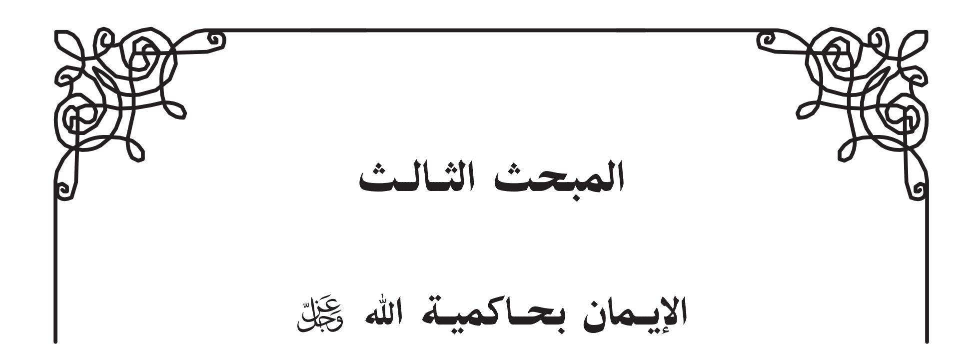
٥) وفي الآية (٤٤) من (الشورى) ـ أي الجملة الأولى منها ـ يُعلِنُ

سبحانه وتعالى بأنَّ الّذي يُضْـلِلهُ الله تعالى ـ من جرّاء اختياره للضلال ـ لا يمكنُ أن يجد ولياً غيـر الله تعالى يتولّاه ويرعـاه، إذاً:

فالكفّار المتخذون غيـر الله تعالى أولياء، هـم في الحقيقـة صِفْـر اليدين، وذلك لأن الله تعالى هو وحده الولي الحق، ولا يوجد سواه وليٌّ أحَد، بل كل ما يظنّه الناس ولياً لهم من دون الله، ليس سوى وهمٍ، ولا أساس له من الواقع.

وقد أعلن سبحانه وتعالى في أكثر من آية، تَفَرُّدَه بالولاية، وأنه لا يوجد سواه وليٌّ للبشر، كما قال ـ على سبيل المثال ـ: ﴿...مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف]، وبناءً عليه: فَمَنْ اتخذ غير الله تعالى ولياً، ليس حاله بأحسن من حال من عطش عَطشاً شديداً، ثم أبصر من بعيد سراباً، فَزَعَمَهُ ماءً مَعِيناً فاتَّجه صَوْبَه! ولهذا عبّر سبحانه عن وضع الكافر الذي لا يتخذ ربّه ولياً بكلمة الضّلال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الشورى]، والضلال هو الضياع، والضالّ هو الضائع، ويا تُـرى من هو أَضْيَعُ مِنَ الذي يُضِيعُ ربّـه، ويَفْقِـدُ ولايَتَـهُ؟!





المبحث الثالث

الإيمان بحاكمية الله عزّ وجلّ

لِفَهْم معنى حاكمية الله الحكيم عزَّ وجلَّ وأبعاد حاكميته، ومن ثم كيفية الإيمان بها، لنتأمَّل أولاً الآيات الآتية، كأمثلة للآيات الواردة في هذا المجال:

قال الله العليم الحكيم سبحانه وتعالى:

١ - ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة].

٢ - ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا...﴾ [الأنعام: ١١٤].

٣ - ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس].

٤ - ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف].

٥ - ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف].

٧ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرعد].

٨ ـ ﴿...مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

٩ ـ ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى].

١٠ ـ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين].

١١ ـ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ ...﴾ [الإسراء: ٢٣].

١٢ ـ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ...﴾ [الشورى: ١٣].

ونُلَخِّصُ الحقائق التي تدلّ عليها هذه الآيات المباركات، في الفقرات السَّبع الآتية:

الأولى: حاكمية الله تعالى جُزءٌ من ربوبيَّتِهِ وهي أخصُّ من ولايته.

الثانية: حاكمية الله تعالى نوعان: حاكمية تكوينية، وحاكمية تشريعية.

الثالثة: حكم الله لعباده يتمثل في كتبه التي أنزلها على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

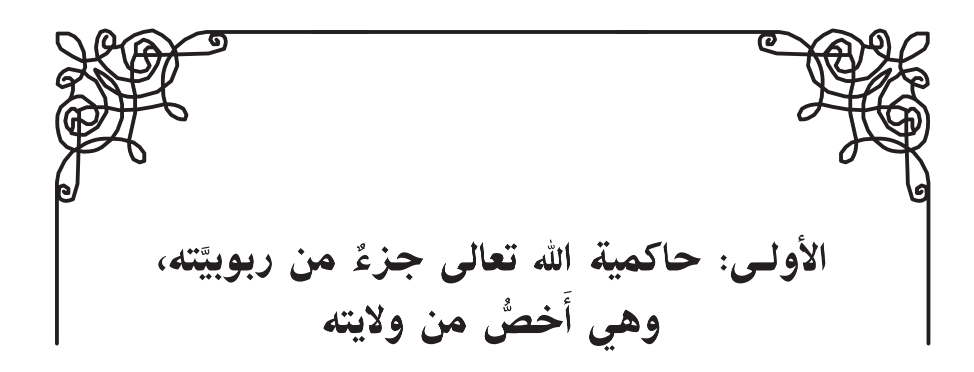
الرابعة: ليس بديل حكم الله الحكم جلَّ شأنه، سوى حكم الجاهلية.

الخامسة: الدَّينونة لحاكمية الله ﷻ، والإلتزام بحكمه، أساس العبادة له.

السادسة: إتّباع غير حكم الله وشرعه، كفرٌ، سواء كان كلّياً أو جزئياً.

السابعة: ألله سبحانه وتعالى هو أمضى الحاكمين، وأفضلهم حكماً، وأكثرهم حكمة.

ونبدأ بالفقرة الأولى بتوفيق الله الوهاب:



الأولى: حاكمية الله تعالى جزءٌ من ربوبيَّته، وهي أَخصُّ من ولايته

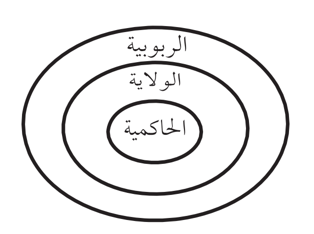
حاكمية الله تعالى جُزءٌ من ولايته، كما أنَّ ولايته جُزءٌ من ربوبيَّتِهِ وهذا واضحٌ عند التأمل في الآيات التي ورد فيها بيانُ حاكمية الله تعالى، ويمكننا تشبيهُ مفاهيم ربوبيَّة الله وولايته وحاكميته، من حيث سَعَتُها وضِيقُها، بثلاث دوائر متداخلة، فالربوبيَّة أوسعها دائرة، ثم الولاية، ثم الحاكمية.

وذلك لأنه كما ذكرنا سابقاً، ربوبيَّة الله تعالى عامة وشاملة لكل مخلوقاته بكل أنواعها، ولكن ولايته خاصة بذوي الشعور والإدراك منها، وهم في هذه النشأة ـ حسب علمنا ـ الملائكة والإنس والجن، ولكنها شاملة لكل نواحي حياتهم المختلفة، وأما حاكميته فخاصة بذوي الشعور، ولكن من جانب سنن الله الكونية المهيمنة على حياتهم، أو أحكامه الشرعية، الصادرة منه إليهم، لينفِّذُوها بإرادتهم.

ولهذا يمكننا القول:

إنَّ حاكمية الله تبارك وتعالى في حياة البشر، هي أَخَصُّ جوانب ربوبيَّته لهم، كما أنَّها هي أكثر نواحي ولايته تجلِّياً في حياتهم.

وهذه هي صورة الدوائر الثلاث المتداخلة بعضها في بعضٍ:



وسَـيَتَّضِحُ لنا مفهومُ الحاكمية لله تبـارك وتعالـى في حياة البشر، أكثرُ وبصورة أتمُّ في الفقرات الآتيـة تباعـاً، ولهذا نكتـفي هنا بـهذا القدر.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الثانية: حاكمية الله تعالى نوعان: حاكمية تكوينية، وحاكمية تشريعية

أولاً: حاكميـة الله التكوينيـة:

والمقصود بحاكمية الله التكوينيـة، هو تصريفه لأمور خَلْقه من ملائكة وإنس وجِنّ، طبقاً لسننه التي وضعها في حياتهم، ومن الآيات التي تتحدَّث عن هذا النوع من حاكمية الله تعالى، الآيات الآتية:

١ ـ ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾ [يونس].

٢ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾ [الرعد].

٣ ـ ﴿...وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)﴾ [يوسف].

٤ ـ ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)﴾ [غافر].

١) إذ يأمر الله الحكيم في الآية (١٠٩) من (يونس)، نَبيَّـه الكريم ﷺ باتِّباع ما يوحيه إليه من كتابه ودينه الحق والإلتزام به، ثـم الصبر والإنتظار إلى أن يحكُمَ الله تعالى، ويُبرِمَ قضاءَه الذي لا مردَّ لَـه.

٢) وفي الآية (٤١) من (الرعد) يُلْفِتُ الله تعالى انتباهَ أهل الكفر: كيف يَنْقُصُ أطرافَ أرضهم وما حولهم، بانتشار دعوة الإسلام المباركة، ثم يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ أي: إن الله تعالى يقضي بما يشاء ويحكم على الأوضاع والأحوال حسبما يريد، ولا يقدر أحد أن يتعقّب حُكْمَهُ ويَنْقُضَهُ ويُلْغِيَه، بَلْ ما شاءه يكون، ولا رادَّ لقضائه وحكمه.

٣) وفي الآية (٦٧) من (يوسف) يُوَصِّي يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أبناءَه، ألّا يدخلوا (مصر) من بابٍ واحدٍ، بل من أبواب شتَّى، ثم يُنَبِّهُهُمْ إلى أنَّ وصيته إياهم، لا تُغَيِّر مما يريد الله تعالى شيئاً، وأن الحكم والقضاء المطلق في الأمور كلِّها، هو لله تعالى، فقط: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ وفي الختام يعلن أنه معتمدٌ على الله تعالى وحده، ويَعِظُ أبناءَه ضمناً، أن يتَّكلوا عليه هو فَقط، دون غيره: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

٤) وفي الآية (٢٠) من (غافر) يُبيِّن سبحانه أنه هو وحده يحكم ويقضي ـ أي: الحكمَ والقضاءَ الكونيَّ القَدَريّ ـ بالحق، ولكنَّ الذين يُدْعَوْن ويُعْبَدُون من دونه من الآلهة الموهومة المزعومة، لا يملكون شيئاً من الحكم والقضاء، أي: التصرّف في أمور المخلوقين.

إذاً:

حاكمية الله تعالى الكونية القَدَريَّة في حياة المخلوقين، حاكمية مطلقة ولا يملك أحدٌ إزّاءَها شيئاً، بل له سبحانه الحُكْمُ النهائيُّ والقضاء المُبْرَمُ، ولكن يُنَفَّذ حكمُ الله وقضاؤه في حياة المخلوقين، من خلال سننه الحكيمة التي سنَّها ووضعها لهم.

ثانياً: حاكمية الله التشريعية:

والمقصود بحاكمية الله التشريعية في حياة المخلوقين ـ والمقصود بهم هنا هو الجن والإنس حصراً ـ هو تشريعه سبحانه لهم وإصدارُه الأحكامَ التي يهتدون بها، ويُنظِّمون في ضوئها حياتهم وأمورهم ويُرَتّبونَها، وقد عبَّر

سبحانه عن هذا النوع من حاكميته، بكل من ألفاظ: (الحكم) و(القضاء) و(الشرع)، وهذه أمثلة من الآيات التي تتحدَّث عن هذا النوع من حاكمية الله سبحانه وتعالى:

١ - ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة].

٢ - ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ...﴾ [الأنعام: ١١٤].

٣ - ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى...﴾ [الشورى: ١٠].

٤ - ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء].

٥ - ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ...﴾ [الشورى: ١٣].

وبَيِّن جِدّاً أنَّ المقصودَ بكل من (الحكم) و(القضاء) و(الشَّرع) في هذه الآيات، إنّما هو الدِّينُ الذي شرَّعه الله تعالى لعباده، ثم ألزمهم به، وأعطاهم الخيار في الإلتزام به، أو عدم الإلتزام به ابتلاءً منه إياهم.

وسنُلقي بعضَ الضَّوء على مفاهيم هذه الآيات أو أكثرها، لاحقاً.





الثالثة: حكم الله لعباده، يتمثَّل في كتبه التي أنزلها على أنبيائه عليهم الصلاة والسّلام

من المعلوم في الدين بالضرورة، أنَّ كلَّ كتب الله المنزَّلة السابقة على القرآن، كانت حاوية لحكم الله وشرعه وقضائه العدل التام، لكل أمة حسب حاجتها ومقتضيات زمانها، ولكن بما أن الأنبياء السابقين عليهم السلام، وشرائعهم كانت لمجتمعات معيَّنة وأزمنة مخصوصة، بخلاف خاتم النبيين ﷺ وقرآنه العظيم، الَّلذَيْنِ جعلهما شامِلَينِ لكل البشرية، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هذا من ناحية، ومَنْ ناحية أخرى، بما انه لم يَسْلَمْ من التحريف والكتمان والنسيان، سوى القرآن من بين كل كتب الله المنزلة، إذ تولّى الله الحكيم حفظ القرآن بنفسه، ولم يَعْهَدْ به إلى الناس، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر]، إذاً: فالآن وبعد الآن ومنذ مجيء خاتم النَّبيِّن، يُعتبر كتابُ الله المجيد وقرآنُه العظيم، هو وحده دينَ الله الحق وحكمه وشرعَهُ وقَضاءَهُ الملزِم للبشرية، وليست سنةُ رسول الله ﷺ سوى شرح وتبيينٍ لِكتاب الله الحكيم، وكيفية تطبيقه في واقع الحياة، كما قال تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

ونكتفي في هذا المجال، بالإستشهاد بهاتين الآيتين:

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام].

في البداية يُوَجِّهُ سبحانه على لسان رسول الله ﷺ سؤالاً بأسلوب الإستفهام الإنكاريِّ إلى الكفار، فيقول: هل أَطْلُب غيرَ الله تعالى حَكماً وحاكِماً في حياتي، والحال قد أنزل إليكم كتابه واضحاً ومبيَّناً فيه كلُّ الحقائق والأحكام (التي تحتاجها حياة البشر)؟ والإستفهام الإنكاري يَحْمِلُ جوابه في طيّاته، كما ذكرناه مِراراً.

ثم يُخاطب الله الحكيم الحَكَمُ جلّ شأنه رسولَهُ مُخبِراً إيّاه، بأنَّ أهل الكتاب يعلمون أن هذا القرآن مُنزَّلٌ إليك من ربك بالحق، لِذا فلا تَشُكَّنَّ في أمره أبداً، وقد آمن العلماءُ المنصفون من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وأَقرّوا بحقانية القرآن وحقانية نبوَّة (محمد) ﷺ، في زمن الرسول ﷺ، ولا يزال، كما سنتحدّث عن هذا الموضوع في الفصل الخامس من هذا الباب ـ أي: الكتاب السابع من هذه الموسوعة ـ بإذن الله تعالى.

ثم يقول تعالى معرِّفاً كتابَه الحكيم المبين العظيم: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام]، أي: إن كلام ربك المبارك (القرآن) تامٌ وكاملٌ في صِدقه، وتامٌ وكامِلٌ في عدلِهِ، وإنما وصف سبحانه كتابه الكريم، بكونه تاماً في الصدق والعدل، لأن القرآن عموماً من حيث موضوعُهُ ومحتواه، ينقسم إلى قسمين:

أ ـ الأَخبار.

ب ـ الأَحكام.

فأما أَخباره فَكُلُّها صادِقةٌ غاية الصدق، سواء منها ما يتعلق بالماضي، كقصص الأنبياء عليهم السلام، والأمم الغابرة، أو ما يتعلق بالمستقبل، بالنسبة لزمن نزول القرآن، وبالنِّسبة لنا كذلك.

وأما أحكامه فعادلة كلّها، لا جور ولا ظلم فيها بتاتاً.

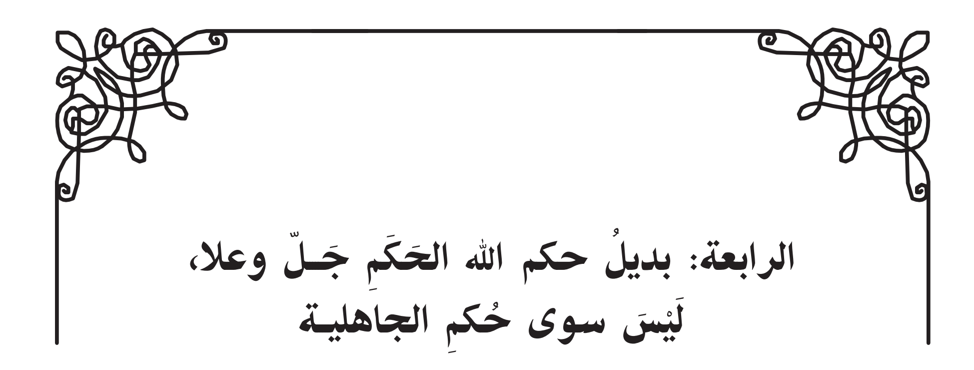
ونحن كأهل الإسلام والقرآن، نتحدَّى المُتَشكِّكين في كتاب الله، أن

يَعْثُـروا على قدر مثقال ذرة من نقص (أي خلاف الصدق والعدل) في كل كتاب الله الحكيم، ولكن هيهات!

ثم يقول سبحانه: (لا مُبدِّل لكلماته) أي: لا يمكن أبداً أن تتزحزح كلمةٌ من كلمات كلام الله المبارك عن مكانـها، مهما تطورت الحياةُ وتَبدَّلت الأحوال، وتقادمت العصور، وذلك لأن كتاب الله، ـ كما وصفه في هاتين الآيتين ـ (حَقّ) و(صِدْق) و(عدل)، والحق خلاف الباطل، والصدق عكس الكذب، والعدل نقيض الظلم، وما كان هكذا، فلا يمكن أن يعتريه التغيُّر والتبدُّل، وإنـما يعتري التغـيُّر والتبدُّل ما هو باطل وكذب وظلم، أو ما خالَطَهُ الباطل والكذب والظلم، وذلك ككتب أهل الكتاب عامة، والتوراة والإنجيل المنـزَّلَيْن على موسى وعيسى عليهما السَّلام، خاصة، إذْ لما حرَّفهما اليهود والنصارى، وخَلَطُوا بهما الكثيرَ من الأفكار والآراء البشرية الـمتقلِّبة، والخرافات التي لا تنسجم مَع أي عقل، ولا يستسيغها أيُّ منطق، أصبحا بعد أن كانا سبب هداية ورشاد، سبب زيغ وضلال وارتداد، والذي يَطَّلِعُ على ما يسمّى بـ(العهد القديم والعهد الجديد) عن كثب ويتأمل فيهما، يُدْرِكُ سبَبَ حدوثِ ذلك الإنفصال والإنفصام الحادّ بين الحياة والدِّين[1] في المجتمعات الغربية.

نعـم، إنّ سبَبَ رفْضِ الغرب لدينه الخُرافي وانسلاخه منه أولاً، وإعلانه العداءَ تجاه أصل الدين الربانـيِّ ككل ـ وفي مقدمته الإسلام ـ ثانياً، هو ما ذكرناه، ولهذا فمن الجهل المُضْحِك، قياسُ الإسلام، دينِ الله الحق وكتابِهِ المحفوظ من التحريف، على اليهودية والنصرانية المُبتَدِعَتَيْن، والتوراة والإنجيل المُحَرَّفين، وبناءً عليه: فما حدث في الغرب لم ولن يحدث في العالم الإسلامي.

(١) أي ما يعرف هناك بالدِّين ـ بمفهومه العُرفي ـ وإلّا فإنَّ دين الله الحق في وادٍ، وكلٌّ من اليهودية والنصرانية في وادٍ آخر، إذ لم يبق فيهما من دين الله الحق، سوى مسائل جزئية لا تُغني شيئاً.



الرابعة: بديلُ حكم الله الحَكَمِ جَـلّ وعلا، لَيْسَ سوى حُكمِ الجاهليـة

كما قال جلّ وعلا بـهذا الصدد:

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة].

وهذا السؤالُ الإنكاريُّ مُوجَّهٌ للكفار، أي: كيف يطلبون حكم الجاهلية وحكم الله الحكيم العليم بين أيدهم؟!

ثم يقول سبحانه مُسْتَفْهِماً على سبيل الإنكار: مَنِ الذي حكمه أحسن من حكم الله، لأناس عندهم إيمان يقيني؟! والجواب واضحٌ.

وقد قارن سبحانه في هذه الآية، بين نوعَيْن من الحكم وهما: (حكم الجاهلية) و(حكم الله) وجعل أحدهما ضدّاً ونقيضاً للآخر، أي من اختار أحدَهما رفض الآخر لا مَحالة، فهما نقيضان لا يـجتمعان أبداً، كما لا يجتمع النورُ والظلامُ في مكان واحد، بل حضور أي منهما ينفي وجودَ الثانـي.

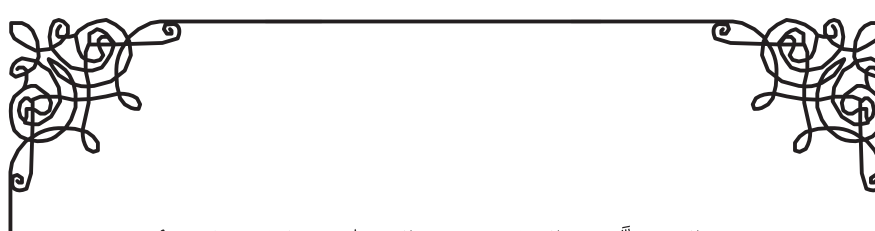
وبما أن حكم الله تعالى ودينَـه الحَقَّ، مُتَمـثِّلٌ في كتابه وسـنة نبيِّـه ﷺ، لذا فكل حكم ودينٍ ومنهج غيـر الإسلام الـمُتَمثِّل في القرآن والسنة النبوية، يُعتبـر حكمًاً وديناً ومنهجاً (جاهلياً) بِغَضِّ النظر عن العناوين والشعارات، إذ العبـرة بالـمُسمَّى والمَخْبَرِ، وليس بالعنوان والمظهر!

وسـمَّى الله العليمُ الحكيم جلَّ شأنه كلَّ حكم ودين، غيـر حكمه ودينه الحق (جاهليـاً)، لأن دينَ الله الحق وحكمه العدلَ، هو الدين والحكم الوحيد الذي صدر عن علم الله الـمحيط بالوجود كلِّه، وما فيـه من أسرار، والشاملِ للدنيا والآخرة، والحياةِ وأدوارِها، والإنسانِ وفطرتِـه، روحاً وعقلاً وجسداً، وفرداً وأسرة ومجتمعاً، وأما غيـرُهُ من الأديان والمناهج والأنظمة، والتي تـمخَّضت عنها عقولُ البَشَرِ (الكافرين) القاصرة الـمتباينـة، وأهواؤهم الـمتقـلِّبة الـمتعارضـة، فأَساسُها الجَهْـلُ الـمُطْـبِقُ بالوجود والحياة والإنسان، وما بُني على الجهل فهو جاهلي.

ثـم يـجبُ أن يكـون واضـحاً لنـا جـميعاً ـ كأهل الإسلام ـ أَنَّ تَـمَسُّحَ بعض الأنظمة والحكومات الجاهلية المعاصرة، والتي بُنيت أساساً على رفض كتاب الله وسنة رسول الله، كأساس وإطار للدستور (القانون الأساسي) والقوانين التي تُسيَّر بـها دَفَّةُ الحكومة وتُنـظَّمُ بـها شؤون المجتمع، أجل إنّ تَـمَسُّحَ بعض الحكومات والأنظمة الجاهلية المعاصرة ببعض الشعائر والمظاهر الإسلامية وتَظاهرُها بـها، لا يُغيِّـر من جاهليَّتـها شيئاً، وهل الكافر الذي يُسمَّى (محمداً) يَصير مُسلماً، أم هـل الفاجر الذي سُميِّ (صالحاً) يُصْبِحُ صالحاً بـمجرد التسـمية؟!

ولنا عـودة إلى هذا الموضوع في الفقـرة السادسـة بإذن الله تعالى.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الخامسـة: الدَّينونة لحاكميـة الله والإلتزامُ بِحُكمِهِ، أساسُ العبـادة لَه

ولتوضيح هذه الحقيقة، لنتأمل هاتيـن الآيتين اللَّتَيْـن تُشكِّلان جُزءاً من الحوار الذي جرى بين نبـيٍّ الله يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، ورفيقَيْـه في السِّجن:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف].

بدايةً يسأل يوسف عليه السلام رفيقيه، بأسلوب الإستفهام التقريري، فيقول: هل أسيادٌ مُتفرِّقون مختلفون خيـرٌ ـ للإنسان وتوجيه حياته ـ أم الله الواحد القهّـار؟! والجواب لوضوحه غَنِـيٌّ عن الذكر.

ووَصَفَ يـوسفُ الله تـبارك وتـعالـى ـ من بيـن كـل صفـاته العُـلى ـ بالوحدانية والقهر والهيمنة، لاقتضاء المقام، إذ الرب يجب أن يكون واحداً وليس متعدِّداً، وأن يكون قديراً ومهيمناً على غيـره، وإلّا فأيُّ معنـىً لربوبيَّته!!

وبعد التمهيد السَّابق، يقوم يوسف عليه السلام بإماطة اللّثام عن الأرباب والآلهة الموهومة المزيَّفـة التي يعبدها المشركون والكفرة، ومن ضمنهم رفيقـاه، فيقـول: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ . . .﴾ [يوسف: ٤٠]، أي: إنَّ تلك الأشياء، أو أولئك الأشخاص (الأصنام والطواغيت) التي تَدِينون لها بالطاعة وتَتعبّدون لها، وتَتَوهَّمون فيها الربوبيَّة والألوهيَّة، ليست في الحقيقة سوى أسماء وعناوين مُجرَّدة خالية من المحتوى، أطلقتموها أنتم وآبائكم على أساس التقليد أباً عن جدّ، وليس على أساس التفكير الصَّحيح والتحقيق من أمرها، ثم هي عاريةٌ عن البرهان الواضح الذي له سلطة على الإنسان، بحيث إذا ما تأمّله بإنصافٍ يقتنع به عقلُه ويستسلم له، وذلك النوع من البرهان ـ على أمور الغيب المرتبطة بالله تعالى وكيفية التعامل معه ووظيفة الإنسان في حياته الأرضية ومصيره ـ لا يملكه غيرُ الله الخالق المالك جلّ وعلا، وبناءً عليه: فأيّ مُعتَقَدٍ لم يتأيَّدْ بسلطان الوحي الآتي من الله تعالى، ليس بشيء، وذلك لِأَنَّ الله تعالى حَصَرَ كُلّاً من الخلق والأمر في نفسه، أَجَلْ، كما أن المخلوقات لا وجود لها من دون الله وإيجاده إياها، كذلك لا وجود لمنهج صحيح، بلْ ومُعتقدٍ صحيح، ولا شرعية له، ما لم يكن مُسْتَنِداً إلى دين الله الحق وصادراً من أمره ووحيه: ﴿. . .أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهذا التعريف الذي عرَّف به نبيُّ الله الحكيم (يوسف) عَلَيْهِ السَّلَامُ أديانَ أهل الكفر وآلهتهم ومعتقداتِهم الباطلة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ. . .﴾ [النجم: ٢٣]، والذي ورد أيضاً في سورة (النجم): ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ. . .﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٣]. وفي سورة (الأعراف) على لسان نبي الله هود، مخاطِباً قومَهُ (عاد): ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ. . .﴾ [الأعراف: ٧٠، ٧١].

أجلْ، إنّ هذا التعريف لهو أحسن تعريفٍ وأصدَقُهُ لأديان أهل الكفر

ومعتقداتهم الباطلة، ومعبوداتهم المزيَّفة قديماً وحديثاً، إذ هي ليس سوى مُصطلحات رنّانة، وأسماءٍ وشعاراتٍ طنّانة، تملأ الآذان بأصواتها وضجيجها، ولكن لا تراها العينُ في دنيا الواقع، مثلها مثل الأشياء الموهومة التي لها اسم وعنوان، ولكن ليس لها مِصْداقٌ في دنيا الواقع كالـ(عنقاء) و(ماء الحياة)[1] والـ(إكسير)[2].. وغيرها، وإلّا فقل بربك أين هي مصاديق كلٍّ من:

الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحق تقرير المصير، والوطنية، والإنسانية... الخ؟!! ثم بعدما يُظْهِرُ نبيُّ الله الكريم يوسف بن يعقوب عليهما السَّلام، زيْفَ الباطل المتمثِّل في عبادة غير الله تعالى، واتِّباع غير دينه وحكمه ومنهاجه الحق، يُعلِنُ الحَقَّ مدويّاً ويُصرِّح بالتوحيد ودين الله الحق ويَصْدَعُ به مُجَلجِلاً، فيقول: ﴿...إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

وهذا الإعلان الرباني على لسان يوسف النبي السَّجين ظلماً، يتضَمَّن ثلاث حقائق عظيمة، تعتبر أوجهاً ثلاثة لحقيقة واحدة، وهي: حقيقة التوحيد، وعبادة الله تعالى، والدينونة له من غير شريك:

١ ـ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ليس الحُكْمُ (التشريعُ والتحليلُ والتحريم) حقاً لِأحدٍ سوى الله، إذ هو وحده خالق الناس وربهم ومالكهم ووليهم، لِذا يجب ألّا يتحكّم فيهم، وألّا يحكمهم بوضع الدين والمنهاج لحياتهم، غَيْرُهُ سبحانه، وهل هناك من هو أَجْدَرُ وأحق بالحاكمية والولاية والإشراف على حياة المخلوقين المرزوقين، من خالقهم ورازقهم وربّهم؟!

٢ ـ ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: أمركم الله الخالق الرب المالك الولي، جلّ شأنه أن تعبدوه هو وحده بلا شريك.

وهذه الجملة تأكيدٌ وتوضيحٌ للجملة السّابقة، وذلك لأن إفراد الله

(١) الذي مَنْ شَرِبَه، ضَمِنَ لنفسه الخلودَ في الدنيا!

(٢) هي مادة تحوِّلُ المعادِنَ الرخيصة كالحديد وغيره، إلى ذَهَبٍ، حسبما كان يُتَصوّر!!

تعالى بالحاكمية، يعني إفرادَهُ بالطاعة والعبادة، وإنما يعبد الله تعالى وحده مَنْ يَتَّبِعُ دِيْنَهُ، ويَخْضَعُ لِحُكْمِهِ وحده، وهل طاعة الله وعبادته، سوى الخضوعِ لحكمه وشرعه، والإتِّباعِ لِمِنْهاجِه وصراطه المستقيم؟!

لِذا فمعنى جملة: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ هو: أمر ألّا تتَّبِعوا غير حكم الله وشرعِهِ، كما أن معنى جملة: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾ هو: لا يصحُّ ولا يجوز الخضوعُ والطّاعة لغير حكم الله، لأن الطاعة والخضوع هو أصل معنى العبادة، فمن خضع لغير حكم الله وأطاع غير الله، في اتِّباع حكمه ودينه ومنهجه، فهو عَبَد ذلك الغيرَ، واتَّخَذَه رباً وإلهاً من دون الله تعالى!!

إذن:

تَوْحيدُ الله تعالى في عبادته، يتم من خلال توحيده في حاكميته، ولِهذا نفى سبحانه الشريكَ له في كلّ من: حُكْمِهِ وعبادته، حيث قال: ﴿... وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وقال: ﴿... وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

٣ ـ ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾ أي: إن إفرادَ الله تعالى بِالحاكمية، وعدَمَ اتباع حُكم أحدٍ سواه، وإفرادَه بالعبادة، وعَدمَ تقديم العبادة لِسواه، هو التديُّن الصَّحيح، والصراط المستقيم، والمنهج القويم، الذي يرضاه الله لعباده ولا يرضى لهم ولا يقبل منهم سواه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]، وليس الإسلام سوى الإنقياد والخضوع التام، والإستسلام الكامل لله تعالى، عَبْرَ الإلتزام بدينه الحق المتمثِّل في كتابه وسنة رسوله ﷺ.

ويختم يوسف عليه السلام إعلانَه الواضِحَ المُدَوِّيَ عن دين الله الحق، وتوحيدِهِ المُتَمَثِّل في إفرادِه بالحاكمية والعبادة والدينونة، بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون هذه الحقيقة العظيمة، ولهذا يَتَلبَّسون بالشرك والكفر، في الوقت الذي يظنون أنهم عابدون لله تعالى وملتزمون بدينه.

والملاحَظُ أن يوسف عليه السلام جعل كلاً من: (الحكم والعبادة والدين)

كلماتٍ مُعبِّرةً عن التوحيد لله تعالى، وذلك كي يعلم الناس أنّ (المُوحِّد الحق) هو مَن:

١ ـ يُحَكِّمُ حُكْمَ الله وشَرْعَهُ على نفسه وحياته الخاصة والعامة دون غيره.

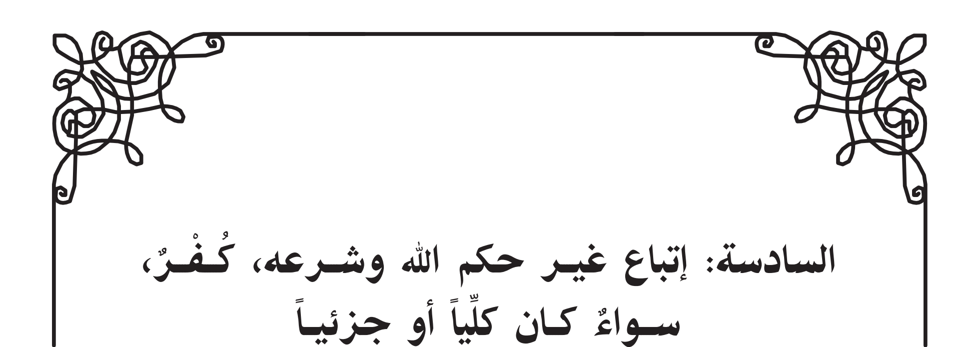
٢ ـ ويعبد الله تعالى وحده دون سواه، بالمفهوم الحق الشامل لكلمة العبادة.

٣ ـ ويَتَديَّن بدين الله القيِّم، ولا يتَّبع ديناً ومنهاجاً سواه، لا جزئياً ولا كلِّياً.

ومن الجَليِّ أن كلاً من هذه الثلاثة، يستلزمُ صِنْوَيْه الآخرين حيث: مَنِ اتَّبع حكمَ الله: يَعْبُدُ الله وحده، ويتديَّن بدينه القيِّم، ويسلكُ صراطَه المستقيم.

وكذلك من عَبَدَ الله بِحقّ: اتَّبَع حُكْمَهُ، والْتزَمَ دينَه الحق، ورَفَض كُلَّ حكم ودينٍ آخر، كما ومَنْ تديَّن بدين الله القيِّم، خَضَعَ وانقادَ لحكمه، وقدَّم له العبادةَ اللاّئقة به سبحانه.

وصدق يوسف الصديق عليه السلام في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إذْ ما زال أكثرُ الناس ـ ومن ضمنهم كثيرٌ من أهل الإسلام في هذا العصر ـ يجهلون ذلك الحقَّ الواضح الأبلجَ، الذي بيَّنه الله تعالى في الآية (٤٠) من (يوسف)!



السادسة: إتباع غير حكم الله وشرعه، كُفْرٌ، سواءٌ كان كلّياً أو جزئياً

أجل اتِّباعُ حكم وشرع (منهج) غير حكم الله وشرعه الذي رضيه للناس، وهو الإسلام المتمثِّل في الكتاب والسنَّة: ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًاۚ...﴾ [المائدة: ٣].

كُفْرٌ صُراحٌ، سواء كان ذلك الإتِّباع لغير حكم الله ودينه ومنهاجه، كلّياً وعلى سبيل الإستقلال، وذلك بأن يَتَّبِعَ فردٌ أو مجموعٌ ديناً ومنهاجاً ونظاماً للحياة غير الإسلام، في كل جوانب الحياة ويتبنّاهُ تبنّياً كامِلاً، أو كان جزئياً وعلى سبيل الإشتراك، بأن يكون الإتِّباع في بعض الأمور والمجالات التي فيها مخالَفَةٌ لدين الله وشرعه ومُصادَمَةٌ مع أحكامه.

وإنَّما فرَّقنا بين الإتباع الكُلّي والجزئِيِّ لغرض التوضيح فقط، وإلّا فَرَفْضُ دين الله وحكمه كلّياً أو جزئياً كفرٌ، بل من يرفض حكماً شرعياً واحداً واضحاً يُصْبِحْ كافِراً، كما قال تعالى: ﴿...ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة].

كما نرى جعل الله سبحانه، جزاء من يكفر ببعض كتاب الله، أي بعض أحكامِهِ:

١ ـ الخزي في الحياة الدنيا.

٢ ـ والرَّد إلى أشدِّ العذاب في الآخرة، وأخبر سبحانه أن أولئك:

أ ـ اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، أي تبرَّؤوا من الآخرة من أجل الدنيا.

ب ـ لا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ، وهذا يعني الخلودَ الأبديَّ في جهنَّم، لأن من لَمْ يُخَفَّفْ عنه العذابُ، فهو بالأَحْرى لا يخرج منه!

ج ـ وأنهم لا يُنْصَرون ولا يُنْقذَون من مصيرهم المشؤوم.

والآيتان وان كانتا في سياقٍ يتحدَّث عن اليهود، ولكن من الواضح أن خصوصَ السَّبب لا يمنعُ شمولَ المعنى، كما هو مقرَّر بين المُحقِّقين، وإذا كفر اليهوديُّ بمخالفة بعض أحكام التوراة، فَكُفْرُ المسلمِ، بمُخالفة بعض أحكام القرآن أولى!

وبناءً عليه نقول:

إن الذين[١] يَتَّبِعون في كثيرٍ من نواحي حياتهم السياسية والإجتماعية والإقتصادية، أنظمةً ومناهجَ جاهلية، ويقتبسون منها نُظماً وقوانين يستعيضون بها عن بعض أحكام شريعة الله الواضحة القاطعة المنصوص عليها في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، أو يَتَبَنَّوْنَ أفكاراً وتصوراتٍ وقِيماً جاهليةً مُخالِفَةً للكتاب والسنة، يجب أن يعلموا يقيناً أنهم بموقفهم ذلك، قد انسلخوا من دين الله انسلاخ الحيَّةِ من جِلْدِها، وأصبحوا غُرباء عن رسول الله ﷺ وخارجين عن دائرة أمته، ولا يشفع لأولئك المتَّبِعين لغير الإسلام، كونُهم مُتسمِّين بأسماءٍ إسلامية، أو مُسَجَّلين في السجلاّت الإدارية كمسلمين، بل حتى قيامهم ببعض أعمال الإسلام وشعائره كالصَّلاة والصيام والحج وغيرها، لا يَشْفَعُ لهم، وذلك لأن الإِستسلامَ لله تعالى

---

(١) أي من المنتسبين للإسلام والأمة الإسلامية.

والإنقيادَ لله تعالى، باتّباع دينه وحكمه ومنهجه، وَرفْضَ كُلِّ المناهج والأديان والأنظمة الأخرى، من صُلْب الإيمان والعقيدة، ومِمّا يَسْتَلْزِمُهُ كلٌّ من الإيمان:

١ - بربوبيَّة الله.

٢ - وألوهيَّته.

٣ - وولايته.

٤ - وحاكميته.

وبناءً عليه:

فمن لم يُحَقِّقْ في نفسه الإتّباعَ التام - قدر الإستطاعة - لِدين الله الحق وشرعه الحكيم، ولم يُعلنْ رَفْضَهُ لكل المناهج والأنظمة الجاهلية، ولم يتبرَّأ منها، فهو ليس صادِقاً ولا جادّاً في قوله: (أنا مسلم) و(ديني هو الإسلام) وأيُّ دينٍ وإسلام، لِمَنْ أشرك بالله وكفر به في كلٍ من: ربوبيَّته وألوهيَّته وولايته وحاكميته؟!!

إذاً:

فمن استعاض بقانونٍ واحدٍ، من دينٍ ونظام جاهلي (وكل الأديان والأنظمة سوى الإسلام جاهلية) عن حكم شرعي واضح واحدٍ، وبدَّل غيرَ الإسلام بالإسلام، في قليل أو كثير، بأيّ مُبرِّرٍ كانَ ذلك التبديل، فهو يحكم على نفسه بالكفر، أياً كان كبيراً أو صغيراً، وحاكماً أو محكوماً، وعالِماً أو غير عالم، وموقفه الكفري ذلك، يَنْقُضُ تَلَفُّظَه بكلمة الشهادة: (أشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأشهد أن محمد رسول الله)، ويُبطِلُ أعمالَه الظاهرة الصورية من صلاة وصيام وغيرهما، وذلك لأن توحيد الله تعالى في ربوبيَّته وألوهيَّته وولايته وحاكميته، هو أساس الإيمان والإسلام، ولُبُّ العبادة، وما لا أساس له فَمَهْدومٌ، كما أن ما لا لُبَّ له، فارغٌ!

والآن زيادةً في الإيضاح والبيان، لنتأمَّل هذه الآيات المباركات، كأمثلة في بابها، ونُعَلِّقُ عليها بإيجاز:

١ ـ ﴿... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

٢ ـ ﴿...مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

٣ ـ ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى].

٤ ـ ﴿...إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ...﴾ [يوسف: ٤٠].

٥ ـ ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [النور].

٦ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء].

٧ ـ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

أولاً: أما الآية (٤٤) من (المائدة) فقد أعلن فيها ربُّ العـزَّة جلَّ شأنه بأوضح عبارة، أنَّ مَنْ لـم يحكم بـما أنـزله الله تعالى، فهو لَيْسَ يكفر فَحَسْبُ، بل هو مَنْخَرِطٌ في سِلْكِ الكافرين!

ولم يفرِّقْ سبحانه بيـن كثيـر وقليل من الحكم، بل أطلق فيـه القول، إذاً: فمن لم يحكم بشرع الله، رافضاً إيّاهُ في حكمٍ أو أكثر، فهو داخِلٌ في سلك الكفّار.

ثانياً: وأما الآية (٢٦) من (الكهف) فأخبـر فيها سبحانه أنَّ الناس ليس لهم وليٌّ سواه سبحانه، وأنه لا يُشرِكُ في حكمه (القَدَريِّ والشرعيِّ) أحداً، بل هو الحاكم الأحد الفرد لعبيده، وبناءً عليه:

مَنْ حَكَمَ على الناس بغير حكم الله، أو شرَّعَ لهم غيرَ حكمه وشَرْعِهِ، في قليل أو كثير، فهو جَعَلَ نَفْسَهُ شريكاً لله في ولايته وحاكميته، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ . . .﴾ [الشورى: ٢١]، حيث سمَّى سبحانه الطواغيت الذين يُشَرِّعون للناس ويَضَعُون لهم الدين والمنهج، أو بعض القوانين، (شركاء) أي شركاء لله في ربوبيَّته وألوهيَّته وولايته، وهذا حسب اعتقاد وزعم الأَتْباعِ الكفرة والمشركين، الذين يُسْلِمون قيادَهُمْ للطواغيت المشرِّعين، والمتحكِّمين على رقاب الناس، الحاكمين بغير حكم الله وشرعه، وإلّا ففي الواقع، ليس لله العزيز شريكٌ في أيِّ شيء، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿. . . وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرعد].

ثالثاً: وفي الآية (١٠) من (الشورى) يقول جلّ وعزَّ على لسان رسول الله ﷺ مخاطِباً الناسَ كلَّهم أو الكفّار خاصة: إنَّ أيَّ شيء صار فيه اختلاف ونزاعٌ، صغيراً كان أو كبيراً، فحكمه إلى الله، ولا يجوز لغيره أن يحكم فيه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، ثم يقول مُعلِّلاً إرجاعَ الحكم على الأشياء كلِّها إلى الله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وهذا يعني: أن كونَ الله تبارك وتعالى وحده ربّاً للبشر، يقتضي أن يكون كذلك وحده حاكماً وحَكَماً عليهم، وأن يكون التوكل عليه وحده، والإنابة إليه وحده.

رابعاً: وفي الآية (٤٠) من (يوسف) والتي تكلَّمنا عنها من قبل، يَحْصُرُ يوسف عليه السلام الحُكْمَ والتشريع في الله تبارك وتعالى، بأبلغ أساليب الحصر، ثم يُعلن أن الله تعالى أمر ألّا يُعْبَد سواه، وهذا يعني:

أن الله تعالى إنَّما يُوَحَّد في العبادة، فقط، عندما يُتَّبَعُ حُكْمُهُ وشَرعه وحدهُ، ويُفرَدُ بالحاكمية، لأن الحكم والشرع هو أساس العبادة، ولهذا لم يفرض الله العبادةَ على الناس، إلّا بعد ما أرسل إليهم رسُلَه، وأنزل إليهم كُتُبَه الحاوية على حكمه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

[النساء]، إذ مفهوم هذه الآية الكريمة جليٌّ بأن الناس لهم العُذْرُ والحُجَّةُ في عدم عبادة الله تعالى، قبل مجيءِ الرُّسُلِ المُبَلِّغين لدين الله عليهم الصلاة والسلام، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، أي: إنَّ هذا التوحيد لله تعالى في حاكميَّتِهِ وألوهيَّتِهِ المُتَمَثِّلتَيْنِ في عدم اتباع حكم غير حُكْمِهِ، وعدم تقديم العبادة لِسواه، هو التديُّن الصحيح والصراط المستقيم فقط.

خامساً: وفي الآية (٤٧) من (النور) يَسْلُبُ الله الحكيم سَلْباً قاطعاً، صِفَةَ الإيمان عن كل مَنْ يتولَّى ويُعرِضُ عن طاعة الله، وإن ادّعى الإيمانَ بالله والرسل عليهم الصلاة والسلام، وتظاهَرَ بالإسلام والطاعة، والآية وردت في سياق الحديث عن الإلتزام بالشريعة والخضوع والإنقياد لأحكامها، لذا:

فَمن رفض حكماً من أحكام دين الله تعالى، يَخرج من دائرة الإيمان والإسلام، ولا يشفعُ له تظاهُرُه بالإسلام والطاعة، وهذا يستوي فيه الحكّامُ والمحكومون: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وإن هذه الآية وحدها، لدليل قاطع وبرهان ساطع، على أن تظاهر بعض الحكّام الطواغيت بالإسلام وإعلانهم الإيمانَ، لن يُجْدِيَهُم شيئاً، طالما أنهم يرفضون بعضَ أحكام الشريعة، بل ولو حكماً واحداً، ولن يُغيِّر ـ في ميزان دين الله ـ تَظاهُرُهم الشَّكليُّ بالإسلام[1]، وتَمَسُّحهم ببعض مظاهره وشعائره، من واقعهم الكفري شيئاً، وهذا كلّه بالنّسبة للحكام الذين يُعْلِنون الإسلام والإلتزام بالشريعة، وأمّا الذين تبنَّوا غير الإسلام ديناً ومنهاجاً ونظاماً للحكم، كالعلمانية والليبرالية والإشتراكية..الخ، والذين إذا ما قيل لهم: هل نظامكم في الحكم ومنهجكم إسلاميٌّ؟! قالوا بملءِ أفواههم: كلاّ ليس منهجنا ونظامنا في الحكم إسلامياً!! أجل، فهذا خارجٌ عن نطاق البحث، إذْ هو مُقرٌّ بكفره وخروجه عن دين الله، منذ أن أعلن

(١) لكن الحاكم الذي لا يرفض حكماً شرعياً، ويُقِرُّ بتقصيره، ويعتذر بأعذار واقعية ومنطقية لعدم تمكُّنه من تطبيق بعض أحكام الشريعة، فهذا له حكم آخر؛ إذْ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وسنتحدث عن هذه المسألة في ختام هذه الفقرة.

تَبَنِّيَهُ لغير دين الله وحكمه منهجاً وديناً للحكم، كما قال تعالى: ﴿... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

إذْ لم يقل سبحانه: (فأولئك كفروا) بل قال: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ أي: إنَّ الكفر في أولئك ثابت وليس شيئاً طارئاً، لأَنَّ الإسم يَدُلُّ على الثبوت والإستقرار، وهم بتبنِّيهم غير ما أنزل الله للحكم، يُعْتَبرون النموذَجَ الكامِلَ للإنسان الكافر.

سادساً: وفي الآية (٦٠) من (النّساء) يَصِفُ الله تعالى الذين يدَّعون الإيمان والإسلام، ولكن يتحاكمون إلى الطاغوت، لِحَلِّ مشكلاتهم ـ والطاغوت هو كل مُطاع على غير أساس الشريعة ـ يصفهم بأنهم: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾، وكلمة (الزَّعم) قلَّما تستعمل في غير[1] الكذب، والمعنى: يدَّعون ويَظنُّون كذباً أنهم [ءَامَنُواْ]، ثم يصفهم سبحانه بقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلاًۢ بَعِيدًا﴾، وهذا معناه: أنَّ من لجأ إلى الطواغيت وأنظمتهم لِحَلِّ مشكلاته، أياً كانت تلك المشكلات، وفي أي جانب من جوانب الحياة، فهو تابعٌ وعابِدٌ للشيطان، والشيطان يريد بهم ما ذكره الله تعالى..

سابعاً: وفي الآية (٦٥) من (النّساء) يُقسِمُ الله العظيم بِربوبيَّته مُخاطباً رسولَه ﷺ، أن الذين يتحاكمُون إلى الطاغوت، لا يُحْسَبون في عِداد أهل الإيمان، حتى يرفضوا الطاغوتَ وحُكْمَه والتحاكُمَ إليه، ثم يحكِّموك أنت (أي: رسول الله ﷺ ومَنْ يَنُوبُ عنه، في تنفيذ حكم الله وتطبيق شريعته) في القضايا التي يختلفون ويتنازعون فيها فيما بينهم، ثم لا يشعروا بأدنى ضِيْقٍ في أنفسهم، بسبب قضاءِك وان كان عليهم، وفوق ذلك يجب أن يستسلموا استسلاماً كاملاً (لحكم الله ورسله) بحيث لا يتحرَّك فيهم عِرْق المخالفة أبداً.

---

(١) قال راغب الأصفهاني: الزَّعْم: حكايةُ قولٍ يكون مَظِنَّةً للكذب، (مفردات ألفاظ القرآن) ص٣٨٠.

وفي ختام هذا الموضوع أقول:

ليس بعد هذا البيان الرّبانيّ الجليّ بيانٌ، بأنَّ المُتَّبعَ لغير حكم الله كلّياً أو جزئياً ـ والحاكم بغير حكم الله بطريقٍ أوْلىٰ[1] ـ ولو كان مُسلِماً في الأصل، يكفر بموقفه المذكور، ويخرجُ من دائرة الإيمان والإسلام، ولا يُجْدِيه ادّعاءُ الإسلام والإيمان شيئاً، وكذلك لا يُجْديه تَمَسُّحُه وتظاهرُهُ ببعض مظاهره شيئاً.

والعجيب من أمر أولئك الطواغيت: أنّ منهم مَن يُضيفُ إلى جريمة إزاحته لشريعة الله ورفضه لها أو لِبَعْض أحكامها، جريمَةَ محاربَةِ دعاة تحكيم الشريعة، بل واستئصالهم قتلاً وسجناً وتعذيباً وطرداً وإبعاداً، مُدَّعياً أنَّ هؤلاء الإسلاميين الداعين لتحكيم شريعة الله في الحياة، كما أوجبه الله تعالى، يُشكِّلون خَطَراً على أَمْنِ المجتمع والوطن، لِذا يجب ضربهم بِيَدٍ من حديدٍ!

ومن الواضح أنَّ هذا الموقف من طواغيتنا المعاصرين، يُذَكِّرُ بموقف أخيهم في الغابرين (فرعون)، إذ قال في جواب دعوة (موسى) عليه السلام الربانية: ﴿...ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، ولكن هل تنطلي تلك الحِيَلُ والمخادعات إلّا على السُّذَّج! وهل دينُ المجتمع الذي يتحكّم فيه الطاغوتُ، ويحكم عليهم بغير ما أنزل الله شَيءٌ آخر، سوى دين الطاغية ومنهاجه الذي شرعه لهم؟! ثم هل يوجد فسادٌ أعظَمَ وأبشَعَ، من إبعاد الناس عن دين الله وحكمه، وفرض نظام جاهليّ عليهم؟!

نعم لا تنطلي تلك الحِيَلُ والخِدَع إلّا على السُّذَّج، ولهذا عَلَّل

---

(١) لأن الحاكِمَ بغير حكم الله، بالإضافة إلى اتِّباعِه لغير حكم الله، يُلْزِم غيرَه بذلك، أيضاً، وقال تعالى في أولئك الضالّين: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ...﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت].

سبحانه إطاعة قوم فرعون له، بكونهم سُخفاءَ العقول، حيث قال: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ...﴾ [الزخرف: ٥٤]، وهذا يعني أنه لولا سخافة عقولهم وسفاهة أحلامهم، لما انخدعوا بادّعاءات فرعون ومزاعمه، ولما انْطلَتْ عليهم حِيَلُه وسَفْسَطاتُهُ!!

وكذلك الأمر الآن هكذا:

إذْ مَنْ يُصَدِّق ـ سوى السَّطْحيِّين والمُغَفَّلين ـ الطواغِيتَ الرافضين لحكم الله وشرعه، كلّياً أو جزئياً، بأنهم مُخْلِصون للمجتمع وحريصون على مصالحه وأَمْنِهِ وسلامَتِه، أو صادقون في ادّعائهم الإِيمان والإسلام[1]!!

❋ ❋ ❋

إستثناء من هذه القاعدة

ولكن في ختام هذا الموضوع الحسّاس، أَوَدُّ الإشارَةَ إلى مسألةٍ مُهِمَّة وهي: أن الحكامَ المنحرفين عن الشريعة وأحكامها، في مسألةٍ جزئية أو مسائل محدَّدة، طالما يُعْلِنون إسلامَهم، ويَلْتزِمُون بالشريعة عموماً ويُقِرُّون بخطأِهم وتقصيرهم، أو يعتذرون لعدم تمكُّنهم من إجراء بعض أحكام الشريعة، بأعذارٍ منطقية، منها عدم وجود أرضيةٍ مناسبة في ذلك الوقت، لا يمكن الحكم عليهم بالكفر والخروج من المِلَّة، إلّا إذا رافَقَتْ انحرافَهم الجزئِيَّ، قرينةٌ دالَّة على رفضهم لشريعة الله كُلِّها أو بعضها، وإلّا فَلَيْس ذلك الإنحرافُ وحده دليلاً على الكفر، بَلْ يعتبر ذنباً وخطيئةً، كبقية الذنوب والخطايا، وهذا رأي جمهرة العلماء[2].

---

(١) والمُضْحِكُ أنَّ من أولئك الطّواغيت، من يَقومُ ببناء المساجد والجوامع والإنفاق بسخاءٍ حاتميٍّ على بعض وعّاظ السَّلاطين... إلخ، وكل ذلك في الوقت الذي يقتلون ويسجنون ويشرِّدون أهلَ الدينِ والعلمِ الصادقين، العامرين لبيوت الله بالعبادة والعلم والذكر والطاعة!!

(٢) لكن بعضهم يعتبرون حتى مثل هذه التصرُّفات من الحكام، كفراً أكبر مخرجاً من المِلَّة، ولكن أَعُدُّ هذا الرأي غُلُوّاً وتطرُّفاً.

وجديرٌ بالذكر أن قوله تعالى: ﴿... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، جاءَ في سياق الحديث عن بعض أهل الكتاب المنحرفين عن شريعة الله على سبيل الرَّفْضِ والإِنكار.

هذا وقد أَشْبَعْنا هذه المسألة بَحْثاً ودراسةً في المجلَّد الرابع من: (سلسلة دروس في الإيمان والعَقيدة الإسلامية)[١] عند الحديث عن موضوع: (الإِيمان بالكتب)[٢].

(١) هذه السلسلة عبارة عن خمسين مُحاضرة شَرَحْتُ فيها الإيمان والعقيدة الإسلامية باللغة الكوردية، بإسهاب وقد طبعت تلك المحاضرات بعد خروجي من السجن الأمريكي، في ستة مجلدات، والحمد لله أولاً وآخراً وباطِناً وظاهراً.

(٢) أُنظر: المجلد الرابع، ص ١١٦-١٤٠، الطبعة الأولى/ ٢٠٠٧.



السابعة: ألله سبحانه وتعالى هو أمضى الحاكمين، وأَفضلُهمْ حُكماً وأكثرُهم حِكمةً

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين].

وهذا الإستفهام يُقصد به التقرير، ولَيس السؤالَ وانتظارَ الجواب، والمعنى: إن الله تعالى بلا ريب هو أحكم الحاكمين.

وهذه الجملة الإستفهامية التقريرية ـ حَسبما أرى ـ تَدُلُّ على ثلاثة معانٍ:

أولاً: ألله سبحانه وتعالى هو أمضى الحاكمين حُكماً وأكثرهم نفوذاً مضاءٍ أحكامه، وعلى هذا المعنى يكون المراد بالحكم هو (الحكمَ الكونيَّ القدريَّ) وليس الشرعيَّ الأمريَّ، وهذا كما قال تعالى: ﴿...وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ...﴾ [الرعد: ٤١].

ثانيــاً: ألله عزَّ وجلَّ هو أفضل الحاكمين حكماً وتشريعاً، فيكون المقصود بالحكم هو (الحكمَ الشرعيَّ الأمريَّ)، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة]، وكقول كبير إخوة (يوسف) عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما أمر إخوانه بالعودة إلى أبيهم لإطلاعِهِ على ما جرى لأخيهم الذي وجد (صاع الملك) في رَحْلِهِ: ﴿...قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:

٨٠]، إذْ المقصود بقوله: (أو يحكم الله لي) هو أن يُنزِّل الله تعالى في شأنه وحياً إلى أبيه، ويقضي فيه حُكْمَهُ.

ثالثاً: ألله تعالى جدّه، هو أكثر الحاكمين حِكْمةً، والحكمة هي وضع الشيء في موضعه، أو الإصابة في القول والفعل، وفي هذه الحالة يكون المقصود بالحاكمية، هو الحاكمية التكوينية والتشريعية معاً، وذلك لأن الله تعالى له الحكمة البالغة اللاّئقة به، في خلقه وأمره.

وهذه المعاني الثلاثة كلُّها مُتحقِّقةٌ على أفضل وجهٍ في حاكمية الله وفي حكمه، بل لولا أنَّنا لا نجِدُ تعبيراً آخر غير صيغة التَفْضيل (أحكم)، لكان من الإجحاف بحق الله تعالى استعمال مثل هذه الصِّيَغ، أَعْني: (أَمْضى، أفْضَل، أكثر)، وذلك لإيحائِها إلى مفاضلةٍ مّا بين الله تعالى وغيره، وبديهيٌّ أن المقايسة والمفاضلة بين الله وخَلْقه غير جائز، أَللهُمَّ إلّا إذا قلنا: إن الفرق بين صفات وشؤون الله تعالى وصفات مخلوقاته، هو الفرق بين الصِّفْر واللاّنهائي!

وخلاصة معنى هذه الآية الكريمة:

أن الله تعالى هو أمضى حاكمٍ لحكمه، وأفضلُ حاكمٍ في أحكامِهِ، وأكثر الحاكمين حِكْمَةً.

إذاً:

طالما أن الله تعالى هو هكذا في حاكميته: أمضى حاكم، وأفضل حاكم، وأكثر الحاكمين حكمةً، فَيَجب ألّا يتخذ الناس سواه حاكماً ولا يَتَّبعوا حُكْمَ سِواه، وأن يستيقنوا يقيناً تامّاً، أَن الله تعالى كما خَلَقَ خَلْقَه وأَبْدَعَهُ بمنتهى الإتقان والحكمة، كذلك أصدر أحكامه وشرَّع شريعتَه على أفضل ما يكون الحكم والشرع.

لِذا فمن اتبع حكماً ومنهجاً غير حكم الله ومنهجه المُتَمَثِّل في

كتـابه وسُـنّة رسولِهِ ﷺ ـ اختـياراً[1] ـ أو اتـخذه نظام حكم (كلياً أو جزئياً)، فهو قد كذَّب الله تعالى بعملـه ولسان حاله، وان لـم يتلـفَّظ به بلسانه، في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين]، وذلك لأن المتَّبع لحكمٍ ودينٍ غيـر حكم الله ودينـه، أو الحاكم به، لا يخلـو من حاليـن:

١ ـ إمّـا أنه يُفَضِّـل ويُرجِّح ذلك الحكم والدين على دين الله وحكمه، ويـراه أفضل منه وأصلح.

٢ ـ أو أنه يُسـوِّيه به، ويراهما متسـاوييـن.

وفي كلتـا الحالتين، يكون مكذِّبـاً لله تعـالى في قولـه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التيـن].

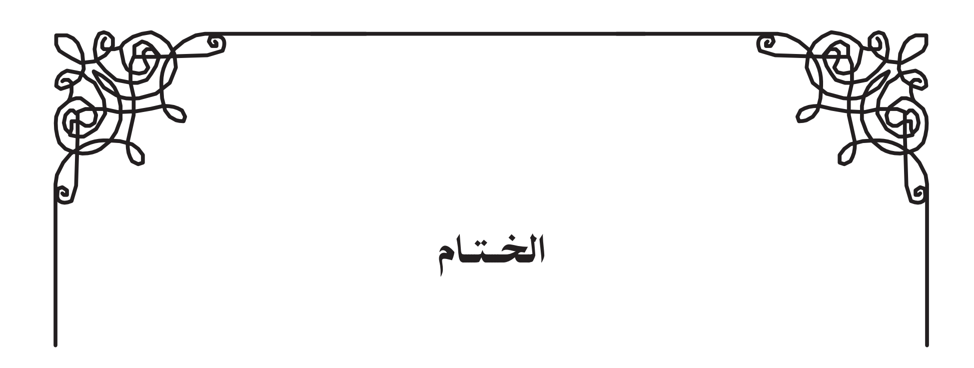
وفـي قـولـه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ...﴾ [الأنعام: ١١٥].

وفي قولـه: ﴿...وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

أَجَلْ هذه هي نتيجـة اتّـباع غيـر حكم الله وشرعه والحكم به، في قليل أو كثيـر.



(١) لأنّ الإكراه أحد موانع التكفير، وهذا ما سنبِّينه في الباب الرابع (أي الكتاب الثاني عشر) عند الحديثً عن الكفر والرِّدَّة.



الختام

وأختم هذا الموضوع بقولي الآتي:

قول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة]، واضِحُ الدلالة على أن كل نظام حكم، ومنهج حياة، لم يكن إسلامياً وربّانياً، فهو جاهلي وشيطاني، لأن الله تعالى سمّى بديل حكم الله تعالى بـ(حكم الجاهلية)، وقد بيَّن رسولُ الله ﷺ بوضوح دونه الشمس، أن كلَّ مَنْ دعى بدعوى الجاهلية ـ أي تَبنَّى منهاجاً ونظاماً جاهلياً ورفع شعاراً جاهلياً ـ فهو من أهل النار وإن صلَّى وصام وزَعَم أنه مسلم! كما قال ﷺ: «**وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ وَالْهِجْرَةُ وَالْجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ، فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ**» (أَخْرَجَهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٢٨٦٣)، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، وَصَحَّحَهُ الألباني).

وبما أن كلّ منهج ونظام غير إسلامي يعتبر جاهلياً، كما نصَّ عليه كتاب الله، فكلُّ من تبنَّى واتبع غير الإسلام، فهو داع بدعوى الجاهلية، ومن ثمَّ يتحقق فيه وعيدُ رسول الله ﷺ بصيرورته من جثيِّ جهنّم!

وبهذا نختم هذه الفقرة السابعة من المبحث الثالث من الفصل السابع والأخير من هذا الكتاب الثالث من هذه الموسوعة.

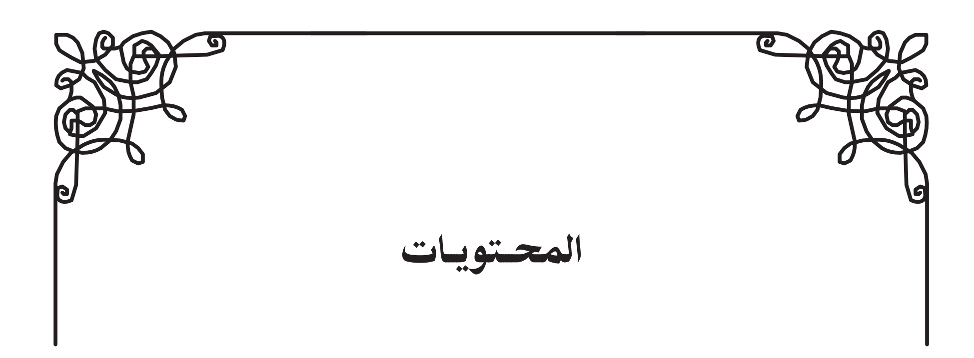
ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net



المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
٣ ـ الشُعور بالضّعف والحاجة، واعتقادُ الحمايـة والنصرة فيمن يَلْـجأ اليـه، هو الذي يَدفع الإنسان لاتـخاذه ولياً	٢٥٦
٤ ـ من اتَّخَذَ الله تعالـى ولياً، اتَّخَـذَهُ الله وليـاً	٢٥٩
٥ ـ ولايـة الله تعالـى لعباده من الملائكة والإنس والجنّ نوعان: عامَّة وخاصَّة	٢٦٢
٦ ـ ثِمار وعاقبة ولايـة الله عـزَّ وجَلَّ لأهـل الإيـمان	٢٦٤
٧ ـ مَصيـر اتخـاذِ أهل الكفر أولياءَ من دون الله	٢٦٧
المبحث الثـالث: الإيـمان بحاكميـة الله عزَّ وجلّ	٢٧١
١) حاكمية الله تعالـى جُزءٌ من ولايته كما أنَّ ولايته جُزءً من ربوبيَّتِهِ	٢٧٣
٢) حاكـمية الله تعالى نوعان: حاكمية تكوينية، وحاكمية تشريعية	٢٧٥
٣) حكم الله لعبـاده يتمثَّل فـي كتبـه التـي أنزلـها على أنبيائـه عليهم الصلاة والسّلام	٢٧٨
٤) بديل حكم الله الحَكَم جَـلّ وعلا ليس سوى حُكم الجاهليـة	٢٨١
٥) الدَّينونة لحاكمية الله والالتزامُ بِحُكمِهِ، أساسُ العبـادة لَه	٢٨٣
٦) إتباع غيـر حكم الله وشرعه كُفْـرٌ، سواءً كان كلِّياً أو جزئيـاً	٢٨٨
إستثناء في هذه القاعدة	٢٩٦
٧) ألله سبحانه وتعالـى هو أمضى الحاكمين وأفضلُهمْ حُكماً وأكثرُهم حِكمةً	٢٩٨
الختـام	٣٠٠
الفهـرس	٣٠٣

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑